## الجامعة الأردنية

### نمـوذج تفـويض

أنا الطالب فاطمة عبد السلام طافش الرواشدة ، أفـوض الجامعـة الأردنيـة بتزويد نسخ من أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

التوقيع:

التاريخ: ١٨/٥/٢٠١١م

الجامعة الأردنيـــة
كلية الدراسات العليا

التاريـــخ: / /

**نموذج رقم (١٦)**
**اقرار والتزام بالمعايير الأخلاقية والأمانة العلمية وقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها لطلبة الدكتوراه**

أنا الطالب: فاطمة عبدالسلام طافش الرواشدة الرقم الجامعي: ( ٩٠٦٠٠١٤ )
تخصص: لغة عربية الكليـــــة: الآداب

عنوان الاطروحة: ........................................
السيرة الذاتية في الأندلس دراسة في البنية والرؤية
........................................
........................................

اعلن بأنني قد التزمت بقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول المتعلقة باعداد اطروحات الدكتوراه عندما قمت شخصيا" باعداد اطروحتي وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية وكافة المعايير الأخلاقية المتعارف عليها في كتابة الأطروحات العلمية. كما أنني أعلن بأن اطروحتي هذه غير منقولة أو مستلة من أطاريح أو كتب أو أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة اعلامية، وتأسيسا" على ما تقدم فانني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في الجامعة الأردنية بالغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيع الطالب: ........................................ التاريخ: ١٨ / ٥ / ٢٠١١م

# السيرة الذاتية في الأندلس

## (دراسة في البنية والرؤية)

إعداد

فاطمة عبد السلام الرواشدة

المشرف

الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه

في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

أيار، 2005م

## قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة / الأطروحة :( السيرة الذاتية في الأندلس دارسة في البنية والرؤية )

وأجيزت بتاريخ ١٢ / ٥ / ٢٠١١.

| أعضاء لجنة المناقشة | التوقيع |
|---|---|
| • الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار ، مشرفا ، أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي. | |
| • الأستاذ الدكتور يوسف حسين بكار، عضوا أستاذ النقد الأدبي | |
| • الأستاذ الدكتور شكري عزيز ماضي، عضوا أستاذ الأدب الحديث. | |
| • الأستاذ الدكتور محمد علي الشوابكة، عضوا أستاذ الأدب الحديث. (جامعة مؤتة) | |

# الإهداء

إليك.... يا نبع الحياة الدفاق،

وسر الألق الذي ينكشف عن إطلالة الفجر،

إلى السنديانة الشامخة في وجه الزمن..... أمي الغالية

إلى منارات يهتدي إليها السائرون في عتم الطريق.... إخوتي

إليكم جميعا أهدي هذا الجهد .

فاطمة الرواشدة

## شكر وتقدير

أحمد الله عز وجل وأشكره لما يسره لي من إنجاز هذا البحث.

وأتقدم بوافر شكري و عظيم امتناني لأستاذي الكريم الدكتور صلاح جرار الذي تفضل بالإشراف على هذه الدراسة، ولما أسداه من النصح الرشيد و التوجيه، ولإحاطته لي ولهذا البحث بالرعاية العلمية التي تجسدت فيها معاني الإشراف العلمي، و ذلك بتوفيره كل ما يجده مفيدا، وتذليله الصعوبات، فكان و ما زال نعم المشرف و الأب الناصح الموجه، مما أعانني على إنجاز هذه الدراسة ، فبارك الله في جهده، وأمد في عمره وأبقاه سندا لمن يصفو إليه و يرتجيه.

كما أتقدم بالشكر الجزيل و الثناء المديد إلى أساتذتي الأفاضل ( يوسف بكار، محمد الشوابكة، شكري عزيز الماضي ) على تفضلهم قبول مناقشة هذه الدراسة و إبدائهم الملاحظات القيمة التي سوف تغني هذه الرسالة وترفع من مستواها، متمنيه من الله أن تنال إعجابهم وجزاهم الله الخير كله.

ولا يفوتني أن أشكر كل من قدم لي يد العون حتى أصل بهذه الدراسة إلى مرتبة القبول.

# فهرس المحتويات

**السيرة الذاتية في الأندلس دراسة في البنية والرؤية**

**إعداد**

**فاطمة عبد السلام الرواشدة**

**المشرف**

**الأستاذ الدكتور: صلاح محمد جرار**

**الملخص**

تناولت هذه الدراسة فن السيرة الذاتية في الأندلس وفق مقولات علم السرد السير ذاتي الحديث ومقارباتها، لذلك فإن موضوع البحث الذي اخترناه وهو: " السيرة الذاتية في الأندلس"، قد اقتضى منا في مرحلة أولى استيعاب أهم النظريات السير ذاتية الحديثة، ومواكبة مختلف الدراسات التطبيقية التي تمخضت عن هذه النظريات، وعبرت عن توجهاتها، وهي دراسات توضح نوع المقاربات التي طبعت على النصوص السير ذاتية، وساهمت في تحديد نوعية القضايا التي تطرحها مثل هذه النصوص.

ولأجل دراسة النصوص السير ذاتية الأندلسية فقد عمدنا إلى :

أولا: متابعة التطور النقدي للمقاربات السير ذاتية الحديثة وجعلها منطقنا في هذه الدراسة.

ثانيا: العمل على الاستفادة منها على المستويين النظري والتطبيقي استفادة تلائم نصوص الدراسة الأندلسية، وتقيم معها حوارا بناءً يظهر خصائصها البنائية والمضمونية.

وجاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول:

عرض التمهيد إلى سؤالين هما:

١. متى نشأت السيرة الذاتية؟

٢. أين نشأت السيرة الذاتية.

وما تمخض عن هذين السؤالين من آراء وقضايا.

وتناول الفصل الأول، سمات النص السير ذاتي الأندلسي، التطابق بين " المؤلف والراوي والشخصية المركزية" والميثاق السير ذاتي.

أما الفصل الثاني، فقد تناول المرافقات النصية ودلالة العتبات، وقد تخيرنا منها ما يلائم نصوص السيرة الذاتية الأندلسية: العنوان، اسم المؤلف، المقدمة، دوافع كتابة السيرة الذاتية.

وأفرد الفصل الثالث، للبناء والهوية السير ذاتية الأندلسية.

وأخيرا نؤكد على أن البحث الذي اضطلعنا به لم يكن إلا مقدمة أساسية للبحث في خصوصيات السيرة الذاتية الأندلسية التي بدت أنها سير ذاتية خضعت لأهم الاشتراطات التي تؤهلها لأن تدرج في سلك الجنس السير ذاتي مع الاحتفاظ بخصوصيتها المانعة لبعض نصوصها من الارتقاء إلى مرتبة السيرة الذاتية في العصر الحديث، ومع ذلك فإن هذه الخصوصية النابعة من روح عصورها التي دونت فيها المنطلق الأساسي لكتاب السيرة الذاتية العربية في العصر الحديث. وهي ذاتها التي شكلت مكونات الخطاب السير ذاتي الحديث أيضا.

## المقدمة

لم يحظ جنس السيرة الذاتية الأندلسية في إطار البحث الجامعي بالاهتمام الذي أولاه الباحثون لغيره من الأجناس كالشعر و المقامات و الرسائل ...الخ. و ربما كان ذلك هو الدافع الأساسي الذي حملني على دراسة هذا الموضوع رغبة في لفت الانتباه إلى ما في ذلك من أهمية فكرية و نقدية تسهم في اغناء معرفتنا بمختلف جوانب الحياة الثقافية و بالقضايا العامة المثارة فيها.

و تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول السيرة الذاتية في الأندلس في دراسة أكاديمية مستقلة ،لأن معظم الدراسات التي تناولت فنون النثر الأندلسي أدرجتها في إطار النثر بشكل عام مغفلة خصوصياتها . فضلا عن أن هذه الدراسة تتناول السيرة الذاتية الأندلسية في داخل المحض الثقافي والفكري الذي تكونت به، وذلك لأنه هو الذي صاغ خصائصها الفنية وصاغها بصيغته الفكرية، فلا يمكن فصلها عنه ، وهذا ما لم تفعله معظم الدراسات التي تناولت السيرة الذاتية ، إذ إنها اهتمت بالخطاب الحكائي دون النظر إلى الإطار الثقافي الذي نشأت فيه و منحها مشروعيتها النابعة من الواقعية التاريخية لمؤلفيها.

ولأجل إعداد هذه الأطروحة فإن الباحثة علقت على قراءة بعض النظريات و المقولات العلمية التي اختصت في هذا الجنس الأدبي حتى يتسنى لها تحديد المفاهيم الأساسية التي تستطيع من خلالها دراسة النصوص المقترحة للدراسة ووضعها في نصابها الصحيح.

وقد بدا لي أمام ندرة المراجع العربية حول هذا الموضوع، وغلبة طابع الشكوك المنهجية على أهم الدراسات الأوروبية و الفرنسية بخاصة، التي أولته في معظم الأحيان عناية فائقة، فإنني أنطلق في أطروحتي هذه من تعريف فليب لوجون للسيرة الذاتية، وذلك لاستقراره النسبي و حدوده التي تصل إلى حد النمطية العارمة. وأن أتخذ من بعض مقولات جورج ماي و بعض الباحثين أساسا نظريا أتكئ عليه واضعةً نصب عيني خصوصية السيرة الذاتية الأندلسية.

وقد خضعت لهذه الغاية النصوص التي سوف تدخل في مجال الدراسة، إما بناء على الدوافع المعلنة في الكتابة كالتصريح بالقصديه السير الذاتية ،و في أحيان أخرى انطلاقا من معرفتي الثقافية باستقلال هذه النصوص للمحكي الذاتي في نصوصهم. و قد وقع الاختيار على اربعة نصوص هي:طوق الحمامة في الألفة و الألاف لابن حزم، وكتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة للأمير عبدالله بن بلقين آخر ملوك بني زيري في غرناطة ،

و نصّ سيرة أبي بكر بن العربي في كتابه قانون التأويل،و ترجمة لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة.

و بعد أن اتخذت الباحثة قرارها دراسة هذه النصوص بدأت البحث عن دراسات سابقه مستقلة عنها، و قد وجدت أن الدراسات التي عرضت للسيرة الذاتية في الأندلس دراسات قليلة، و محدودة جدا ولم تعطها حقها، إذ إنها كانت تمر عليها في أثناء حديثها التاريخي عن نشأة السيرة الذاتية عند العرب بأسطر قليله لا تتجاوز عند البعض منهم الصفحة أو نصف الصفحة حول أي نص منها. و من هذه الدراسات:

دراسة إحسان عباس "فن السيرة"، ودراسة شوقي ضيف "الترجمة الشخصية"، و دراسة يحيى إبراهيم عبد الدايم " الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث"، ودراسة هاني العمد "دراسات في كتب التراجم و السير".

و هناك دراسات تناولت السيرة الذاتية الأندلسية بشكل عام مدرجة إياها في إطار الفنون النثرية، دون التعرض لخصوصيتها السير الذاتية وهذه دراسات كثيرة.

أما هذه الدراسة فتسعى إلى تناول السيرة الذاتية في الأندلس في دراسة علمية مستقلة شامله للجوانب الفنية و الأدبية و العناصر البنائية والملامح السيريه التي تدخلها إلى عالم السيرة الذاتية، وذلك بعد أن حددت مفهوم السيرة الذاتية و طبيعتها و العوامل الفاعلة فيها، وأوضح بعض الآراء التي دارت حولها في العالمين الغربي و العربي معتمده على النظريات التي تناولت هذا الجنس بالبحث والتقصي.

وقد جاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول:

ففي التمهيد تناولت مفهوم السيرة الذاتية ونشأتها في العالمين الغربي و العربي.

أما الفصل الأول ،فقد عرضت فيه لفكرة التطابق بين المؤلف و الراوي و النصّ في مبحثه الأول، وأما المبحث الثاني فقد كان عن النقد السير ذاتي.

وفي الفصل الثاني، بحثت المواريات النصية ودلالة العتبات متخيرة منها ما يخص السيرة الذاتية الأندلسية .وخصصت الفصل الثالث لدراسة البناء والهوية السير ذاتيه الأندلسية.و في الختام فإن كل ما توصلت له هذه الدراسة لا أقول إنه بلغ صفة الكمال و خلوه من العثرات بل

هو عمل قابل للزيادة و النقص في ضوء ما يستجد من آراء و نظريات ونصوص حول هذا الجنس الزئبقي المتمدد.

فإن أصبت الهدف من هذه الدراسة فبفضل الله أولا ، وفضل أستاذي الدكتور صلاح جرار ثانيا الذي أشرف على هذه الدراسة و قدم لي يد العون ولم يبخل علي بجهده ووقته فسدد خطاي على الطريق العلمي الصحيح، جزاه الله خيرا مديدا لا ينضب وجعله ذخرا للعلم و أهله ولأمته أجمعين.

فإن تعثرت خطاي فعذري أنني طالبة علم ما زلت في بداية الطريق، والله من وراء القصد وإياه أسأل الهدى و التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله و صحبه أجمعين.

## التمهيد

رغْمَ ما شهدته الساحة النقدية من تباين حول ماهية السَيرة الذاتيَة ، ومقوماتها الفنية والمضمونية أو بما يختص بقضايا تصنيفها الأجناسية ، حتى استقر عندهم بأنه " جنس زئبقي يتأبى على كل محاولات التقنين الصارمة ويسخر من كل الضوابط والشروط السابقة على الإبداع نفسه"[١]، إلا أننا نجد أن هناك إجماعاً على فكرتين ثابتتين قلما نجد فيهما معترضاً ، تؤكد الأولى: ارتباط السَيرة الذاتيَة بالثقافة الغربية . أما الثانية : فهي الاتفاق على أن مُؤلف جان جاك روسو (( الاعترافات)) هو بحق فاتحة الجنس السير ذاتي في العصر الحديث، اكتملت فيه معالم هذا الجنس ونضجت، وعليه تكون الكتابة في جنس السيرة الذاتية الحديثة منذ بداية القرن الثامن عشر تحديداً.[٢]

يفتتح جورج ماي حديثه عن تاريخ جنس السيرة الذاتية مؤكداً القاعدة الأولى وذلك من خلال نصّه الآتي:

" يتفق مؤرخو السَيرة الذاتيَة إجمالاً على القول بأن موضوع دراستهم قد نشأ في أوروبا وأنه ينتمي الى الثقافة الغربية. قال أحد النقاد الإنجليز: " إذا ما غضضنا الطرف عن بعض الحالات الشاذة في هذا الصقع أو ذاك، قلنا إن السيرة الذاتية إنما ظهرت أساساً في أوروبا الغربية وفي منطقة تأثيرها، شأنها في ذلك شأن مرض الزهري " ولذلك فإن صادف مثلا أن كتب بعض الشرقيين كـ(غاندى) قصص حياتهم، فما ذلك إلا لأن عدوى ثقافة الغرب قد سرت إليهم، أو لأنهم كما قال جورج قوسدورف قد "جعلوا أتباعاً لعقلية غير عقليتهم "[٣].

فهذه الفكرة الانحيازية العرقية التي استهل بها جورج ماي كتابه " شاعت حتى تفشت في كل محاولات التأريخ للجنس السير الذاتي ، وأضحت تشكل تصوراً قاعدياً في النقد الأوروبي انبنت عليه جل الأحكام السير ذاتية والتأويلات المختلفة التي خضعت لها النصوص الإبداعية ، وعلى ذلك فإن خاصيات الكتابة السِّير ذاتيَة الأوروبية قد غدت عند القوم الأنموذج الأكمل أو المصدر الأم المجسد لماهية الجنس السير الذاتي [٤].

---

[1]) الطريطر ،جليلة ، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث بحث في المرجعيات ، مركز النشر الجامعي ، دون طبعة ، ٢٠٠٤ص١،٢

([2]) من عام ١٧٨١-١٧٨٨

([3]) ماي ،جورج ، السيرة الذاتية ، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، مبين الحكمة ، ١٩٩٢م، ص ٢٣

[4]) الطريطر ،جليلة،مقومات السيرة الذاتية ص١٠٣

فمن كتب سَيرة ذاتيَة من غير الغرب فهو واحد من اثنين، إما أن يكون قد سرت له عدوى الغرب أو كان تابعاً لغير عقليته.

وأما الحالات النادرة التي يمكن أن ترد هنا أو هناك من أصقاع العالم فهي: "حالات شاذة لا تكفى في حقيقة الأمر للتشكيك في كون السيرة الذاتية إنما هي شكل من أشكال التعبير تختص به الثقافة الغربية"(١) .

ويمضي جورج ماي مؤكداً هذه القاعدة بعد استعراضه لدراسة تصنيفية قامت بها عالمة أمريكية " ولما كان نشر هذا الكتاب يعود إلى سنة ١٩٠٩، جاز لنا أن نقول إن الكمية الهائلة من النصوص السَير ذاتيَة التي نشرت منذ ذلك التاريخ . تجعل هذا التصنيف متهافتا بقدر ما كان اعتباطيا . ولكن ذلك، حسب رأينا لم يغير شيئاً فيما أجمع عليه القوم من أن السيرة الذاتية ظاهرة تختص بالغرب وحده.(٢)

وأما فليب لوجون فكان أكثر انحيازاً، وقال إنَ هذا النوع هو " ظاهرة خاصة بأوروبا الغربية لا يتعدى عمرها قرنين من الزمان "(٣) .

ومما يؤكد هذه الفرضية التي شاعت ورسخت أن معظم العوامل التي كانت وراء نشأة هذا الجنس هي عوامل نابعة من صميم الثقافة الغربية؛ فجورج ماي يرى أنَ هناك عاملين أساسيين كانا وراء ظهور هذا اللون الأدبي الأول : العامل الديني ويقصد به الفرضية المسيحية باعتبارها تستند الى فعلين هما:

"محاسبة النفس التي يحضَ عليها التَزهد المسيحي، والإيمان بالأخوة بين البشر وبتساويهم في المراتب، وبتساوي النفوس كلها في القيمة، من شأنهما معاً من أن يفسرا لنا الأسباب التي أدَت إلى كتابة بعض السَير الذَاتية الدينيَة العظيمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر."(٤)

فمع اتجاه السَيرة إلى منحنى دنيوي " كتابة الذات فإن " هذه الفرضية المسيحية نفسها فقدت الكثير من ألقها حين يتعلق الأمر بسيرة ذاتية تهدف إلى تدوين مسيرة صاحبها الروحية كما كان الحال بالنسبة إلى أغلب السير الذاتية التي كتبت بعد اعترافات روسو"(١) .

---

(1) ماي ،جورج، السيرة الذاتية ص٢٤
(2) ماي ،جورج، السيرة الذاتية ، ص٢٤
(3) لوجون ، فليب ، أدب السيرة الذاتية في فرنسا المفاهيم والتصورات ،ترجمة د.ضحى شيحة، ص٢٤.
(4) ماي، جورج ،السيرة الذاتية ، ص ٢٩

وبعد أن فقد العامل الديني ألقه أصبح " من الواجب علينا ... أن نلجأ إلى اعتماد فرضية أخرى لنفهم كيف يتم الانتقال من الكتابات السير ذاتية التي دونت بدافع من الورع إلى الكتابات التي اتخذت الإنسان محوراً لها [٢] فكانت الفرضية الثالثة هي نزوع الأوروبيين الى العلمنة التي دعت الى فصل التعاليم الدينية عن القوانين الأرضية ، والفردانية الإنسانية التي كان لها دور كبير في التغير الجذري الذي شهدته الثقافة الغربية حول مفهوم الإنسان، فأعيدت صياغته [٣] ، فأصبح الأنا محل عناية بعد أن كانت مهملة في العصور القديمة، وتحولت النظرة إلى الإنسان من البحث عن التطابق بينه وبين المثل العليا إلى التركيز على الانحرافات والألوان والشذوذ ومظاهر التفرد وضروب الضعف الإنساني [٤] وتبع هذا الفهم تغيراً جذرياً مفاده أن الحديث عن النفس لم يعد مشروعاً مذموماً يجب الاعتذار له بل أصبح بالأحرى موضع فخر.[٥]

إذاً فإنّ العلمانية والفردانية الإنسانية يفسران لنا كيف أن السيرة تحولت من النوع الأول الذي يغلب عليه الطابع الديني إلى النوع الثاني الذي تعكس توجهاً علمانياً لائكياً.[٦]

يتضح من هذا التحول أن السَيرة الذاتية كانت مستجيبة ومنسجمة مع هذه التحولات القيمية والمعرفيَة التي ساعدت على نشأتها من جهة وتطورها من الجهة الثانية ، فهذه الاستجابة هي التي دفعت نقاد الغرب الى ربط السيرة الذاتية بالثقافة الغربية وحدها دون سواها.

ومن النقاد الذين ربطوا الكتابات الذاتية الأوروبية بالأصول الدينية المسيحية الباحث الفرنسي جورج قوسدورف فإنه يرى خلافاً لجورج ماي " أن النزعة الكاثوليكية ، نظراً لتكريسها للوظائف الكهنوتيَة وترسيخها لمبدأ الاعتراف القائم على وساطة القِس بين الله وعباده......لا تشجَع بالمرَة على مواجهة الذَات لهفواتها وآثامها مواجهة ذاتيَة مباشرة ، وتفضل تدخَل طرف أجنبيَ ، إليه توكل وظيفة تطهير النفَس ومحو ذكرياتها الأليمة إلى الأبد.[٧]

---

[1] ماي ،جورج ، السيرة الذاتية، ص ٢٩-٣٠

[2] ماي، جورج ،السيرة الذاتية ، ص٣٠

([3]) ينظر: المبخوت،شكري، سيرة الغائب سيرة الاتي ،السَيرة الذَاتية في كتاب الايَام لطه حسين ، دار الجنوب للنشر ، ١٩٩٢ ،ص٢٤

([4])اي مفهوم الإنسان .

([5])ينظر ، المبخوت الغائب سيرة الأتي ،ص٢٥ .

([6]) ينطر،ماي، جورج ، السيرة الذاتية ص٣٠.

[7] الطريطر ،جليلة ،مقومات السَيرة الذَاتية ص(١٠٦)

ورأى أن التصورات البروتستانتية التي تشجَع على الاستنباط هي التي أساءت في الفكـر العقدي الأوروبي لمسؤوليّة الإنسان الفردية إزاء خالقه وقللت بالتـالي مـن سـلطة المؤسـسة الكنيسَية ونفوذها الذي تغلغل حتى في حياة الإنسان المسيحي الحميمَية .[١]

وأما الفرضية الثانية : التي ترى أن اعترافات روسو كانت فاتحة الجنس السَير ذاتَي فـي العصر الحديث، فإنها انطلقت مما حققه هذا المؤلف من شهرة ورواج أديا إلى انتشار عدد هائل من السَير الذاتَية في أنحاء أوروبا كافة، فكان وراء قيام السَيرة الذاتية باعتبارها سنة أدبية، فكان مثالاً يحتذى ونموذجاً اكتملت به عناصر هذا الجنس ونضجت.

يقول جورج ماي " إن رواج هذا الكتاب مهد لظهور أول وعي جماعي حقيقي بأنَ السَيرة الذاتَية أصبح لها كيان أدبي. ولله در" جورج قوسدورف" إذ قال: " لقد كان هذا الحدث المـشهود بداية السَيرة الذاتَية في فرنسا وفي أهمَ الثقافات الأوروبية " . بل وينبغي أن نضيف إليها الثقافـة الأمريكية أيضا.[٢]

وقد أكد فليب لوجون هذا الرؤية " ورأى أن روسو لم يبتدع ابتداعاً الجنس الـسَير ذاتـي بقدر ما حقق دفعة واحدة كل فرضياته، فغدت" اعترافاته" أول سيرة ذاتية يصلح أن يبـدأ منهـا التأريخ الصحيح لهذا الجنس، وهي إلى ذلك أجرأ السَير الذاتَية التي ظهرت في عصرها"[٣].

وإذا انتقلنا إلى الجانب العربي حول هاتين الفرضيتين نجدُ أن هناك آراء متباينة، فمنها ما ينصبُّ في نفس الاتجاه، ومنها ما يأخذُ اتجاهاً معاكساً، فهذا عبد الرحمن بدوي يحذو حذوَ النقاد الغربيين الذين اطلع على آرائهم كروزنتال "[٤] ويقول إن العرب لم يعنوا بهذا النوع مـن الأدب لأسباب تتعلق بطبيعة الشخصية العربية [٥] ، والكتَاب في العربية الذين كتبوا فـي هـذا البـاب قليلون، وأغلبهم ليسوا عرباً خلَصاً، بل ينتسبون الى الجنس الآري من فـرس ومـوالي علـى

---

([1]) ينظر، مصدر، ص١٠٦

([2]) ماي، جورج.،السيرة الذاتية ص٢٧

([3]) الطريطر.:جليلة مقومات السيرة الذاتية ص(١٠)

([4]) روزنتال مستشرق ألماني كتب بحث عن تاريخ التراجم الذاتية في الإسلام وكان بحثه هذا على غرار ما كتبه جورج ميش في ما يخص تاريخ التراجم عند الغرب، وقد ظهر في سلسلة مجموعة الأبحاث الشرقية التي يصدرها المعهد البابوبي للكتاب المقدس بروما ضمن مجموعة بحوث ثلاثة تحت عنوان دراسات عربية رقم ١٩٣٧/١ م لخصها الدكتور عبد الرحمن البدوي وضمنها كتابه الموت والعبقيرة الذي نشره ١٩٤٥ م فروزنتال يرى ان العرب قلدوا اليونان والفرس واخذ يبرهن على رآيه هذا من خلال ذكره لتراجم التي عرفها العرب من هاذين المصدرين ثم كيف انهم حذوا حذوها . ينظر، بدوي ،عبد الرحمن ،الموت والعبقرية ١٩٤٥ م ، ص ١١٦-١٢٧.

([5]) بدوي، عبد الرحمن ،الموت والعبقرية، ص ١١٥-١١٦

اختلاف أجناسهم، وحتى هذا القليل الذي كتبوه، لم يبلغ الغاية التي قصد إليها من هذا النوع من الأدب ، ونعني بها التعبير عن الشخصية كوحدة روحية لها كيانها الخاص وميزاتها الروحية التي تميزت بها "[1] ويرى شوقي ضيف ان الترجمة الشخصية فن مستحدث عند العرب " قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبيَة التي قرأوا آثارها وخاصة اليونان ...[٢]

ومعظم تراثهم محاكاة اقتفوا فيها آثار فلاسفتهم وعلمائهم"حتى إذا كان العصر الحديث رأينا الترجمة الشخصية عندنا تتطور تحت تأثير ما قرأ أدباؤنا وكتَابنا للغربيين من تراجم كاملة عن حياتهم، وقد وصفوها من جميع أطرافها بعيوبها ومحاسنها بل لقد تحولوا بها الى اعترافات صريحة بدون أي تحرج أو تصنع، وبذلك غدت الترجمة الشخصية عندهم ضرباً من القصص الحي البديع "[٣].

ومن بين المؤلفات التي يعدها شوقي ضيف ملهمة للعرب، فحاكوها تلك الفصول الطويلة من كتاب "غالينيوس" التي تضمنت نبذاً ونوادر متفرقة عن حياته وتربيته وسلوكه ومؤلفاته وما صادفه من محن، وما قرأه العرب من اخبار برزويه في كتاب كليلة ودمنه لابن المقفع.

فجاءت كتابات بعضهم كحنين بن اسحاق والرازي وابن الهيثم على شاكلة ما قرأوه لغيرهم ممن ترجموا لهم، ولم يحد العرب عن هذه القاعدة في ترجماتهم في العصور اللاحقة، وهكذا ومع مر التاريخ نشأ المؤرخون ونشأت طبقات من المفكرين والفلاسفة أودعت كتاباتها كثيرا من حياتها وأحوالها وتجاربها ".[٤]

ويقول أيضا إن أدباءنا المعاصرين قلدوا الغربيين فأدى ذلك أن أصبح لهم فيها تراثٌ ضخم.

وأما يحيى ابراهيم عبد الدايم والمسدي فيذهبان الى عكس ذلك تماما فعبد الدايم يذهب الى أن السَيرة الذاتية موجودة في الأدب العربي القديم "وإن كان القدماء لم يعرفوا المصطلح الذي هو حديث النشأه ، ليس في أدبنا العربي وحده ، بل في الأدب الغربي أيضاً" [٥].

---

[1] بدوي عبد الرحمن الموت والعبقرية ص١١٥-١١٦

[2] ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية دار المفارق ص٥ دون طبعة.

[3] الترجمة الشخصية ص ٦

[4] شوقي ، عبد الدايم ابراهيم يحيى الترجمة الذاتية في الادب العربي الحديث دار النهضة العربية د- ت- ص١٠

ويقول المسدي: " إن السيرة الذاتية لونٌ من الألوان الإبداعية التي عرفها تاريخنا الأدبي ... وهو غرض أدبي عريق في حضارتنا العربية الإسلامية، ولئن لم يتبلور متصوره الذهني بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقدي مخصوص، فإنه قد صيغ على نماذج تكاد تصل به منزلة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب "[١].

وأما شكري المبخوت قد رأى أن العرب عرفوا نوعين من السيرة الذاتية: سيرة ذاتيه كلاسيكية وأخرى حديثة[٢].

وهذا الرأي يأخذنا إلى سؤال دار حوله نقاش بين معظم الباحثين وهو : هل السَيرة الذاتَية، جنسٌ قديمٌ أم حديث ؟

لقد جاء هذا السؤال في ظل غياب التعريف المانع الجامع لجنس السَيرة الذَاتية فاختلفت الآراء "وأصبح من العسير بمكان الإجماع على النَصوص، التي تمثّل الجنس، سواء أكانت قديمة أم حديثة، الشَيء الذي أدى إلى بروز اختلافات جوهرَية في تقويم النصوص وتأويلها[٣] .

ورغم أن جورج ماي تنبّه إلى هذه الإشكالية مما دفعه إلى ان يقول "فالظاهر إذن أن اختلاف النَاس في ماهيّة السَيرة الذَاتية يجيز لهم أن يرجعوا ظهورها إلى أيَ قرن من القرون أرادوا ، فهو القرن الرَابع مع القدَيس "أوغسطين" أو القرن الثَاني عشر مع "ابيلار" Abelard أو القرن الثامن عشر مع روسو"[٤].

فمع أننا نجده يعامل بعض النَصوص القديمة كاعترافات اوغوسطين معاملة السَيرة الذَاتية بالمعنى الاصطلاحي الحديث.

"وفي هذه الحالة لا يمكننا أن نفهم كيف يكون الجنس السَير ذاتيَ قادراً من بعض وجوهه على أن يتحقَق مع فئة قليلة موهوبة عاشت في الماضي السَحيق ،وأن يكون في نفس الوقت مشروطا بشروط غليظة كلَها مرتبطة بأوضاع وظواهر حضاريَة حديثة .[٥]

---

[1] المسدي ،عبد السلام، النقد والحداثة مع دليل بيليوغرافي ، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت، ط ١، ١٩٨٣م ص ١١٣-١١٤

[2] المبخوت ،شكري،سيرة الغائب ص٢٤

[3] الطريطر ، جليلة ،مقومات السَيرة الذاتية ص ١١١

[4] ماي ،جورج ،السيرة الذَاتية ص ٢٦.

[5] الطريطر جليلة : معوقات السيَره الذاتية ص ١١٢

وأما جورج قوسدورف فإنه يقول " بأنَ جنس السَيرة الذَاتية قديم قدم العوامل الدَينيَة التي أسهمت في بروزه إلى الوجود وبلورته في الثقافة الأوروبية، رَغم تطوره فيما بعد إلى لون من الاعتراف اللائكي – معتبرا أنَ اعترافات القديس أوغسطين هي أبرز شاهد على أنَ روسو احتذى حذوه ،على ما بين كتابتهما من فروق. ولا أدلَ على ذلك من تماثل عنواني سيرتي الرجلين الذَاتيتين"[١].

ويقول شوقي ضيف:" لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم فيعرفون بأنفسهم وقد يذكرون بعض أعمالهم[٢] ".

فهذه المقولة تشكل بداية الخط لهذا الجنس فلا يمكن أنَ نؤرخ للسَيرة الذاتية من اعترافات روسو وذلك لأن هذا الفن لا يمكن أنَ يكون وليد اللحظة وإنه جاء هكذا طفرة من العدم.

ومن ناحية أخرى كان اختيار كتاب غربي لتحديد نشأة جنس السَيرة الذَاتية يشكل خطراً على المدونة السير الذَاتية في الأدب العربي القديم، إذا إنهم بهذا التحديد الزماني (القرن الثامن عشر)، والمكاني (اعترافات روسو) في أوروبا تحديداً ينفون وجودها، ولكن هاتين الفرضيتين مردودتان، وخير برهان على ذلك هذه النصوص التي تشكل المدونة السَير الذَاتية العربية القديمة، ولكن الغرب حين نادى بهاتين الفرضيتين فقد كان حكمه " عرقياً متسرعاً ومحدوداً متسرعاً. لأنه لم يكن نابعا من نزعة معرفَية جادَة قائمة على الاستقصاء التَاريخيَ والاطلاع الواسع بقدر ما كان صادرا عن نزعة تبريريَه أراد أصحابها تعميم ما لاحظوه من علاقات بدت لهم بديهية ومتينة بين خصائص المجتمعات الأوروبية الحديثة واتَجاهات النصوص السَير الذَاتية العامه في تفاعلها بتلك الخصائص وتأثَرها بها [٣].

ومن الأمور التَي عززت ذلك الفكر لديهم أنهم كانوا أسبق الأمم التَي خاضت في قضايا الكتابة المرجعيَة وخاصة منها الكتابة في السيرة الذَاتية والسمو بها إلى مستوى الجنس الأدبي

---

لقد وقع جورج ماي في ما اسماه بعض النقاد بالوهم الاستعادي وهو اسقاط مفاهيم حديثة على كتابات قديمة رغم انه نبَه على خطورة ذلك فإنه لم يتحرج من معاملة بعض النصوص القديمة معاملة السَيره الذَاتية في العصر الحديث وهذا يشكل في حد ذاته رداً على من يدعون أن السيرة الذاتية حديثة النشأة حديثة النشأة وأنها بدأت منذ اعترافات روسو على حد قوله كما اشرنا لذلك في وقت سابق

(1) نقلاً عن الطريطر، جليلة ، مقومات السيرة الذَاتية ص ١١٣

(2)ضيف، شوقي، الترجمة الشخصية ص٧

(3)الطريطر جليلة : مقومات السيرة الذاتية ص (١٠٤)

في حين جاء ذلك متأخراً عند الأمم الأخرى كالعرب على سبيل المثال الذين انصرفت جهــودهم إلى فنون الأدب الأخرى كالشعر والقصة والمسرح[١].

وهناك أمر آخر دفع المنظرين إلى إقصاء أيَ نص من دائرة الـسَيرة الذّاتيــة الغربيــة وخصوها بالغرب وحده دون غيره من الأمم هو تعري النفس الفاضح الذي نجده في اعترافــات أغوسطين وروسو، فكانت سنة تتبع في الغرب ومفقودة عن العرب على سبيل المثال " فــنحن لا ننتظر من السيرة الذاتيه العربية القديمة "والحديثه" أن تصل إلى تعري النفس الفاضح كما نجده عند أوغوسطين وروسو حتى نقول انها سيرة ذاتيه بحق " [٢].

## تعريف السَيرة الذّاتيَة

يجمع جل الباحثين في حقل السيرة الذاتية على أنها جــنس استعــصى علــى التعريــف الواضح المحكم نظراً لسببين اثنين : الأول عائد إلى حداثة هذا الجنس في رأيهم، والثاني: عدم وجود سنة راسخة في قراءة النصوص وتحليلها[٣] .

ونتيجة لهذا الاختلاف برز ثلاثة مواقف مختلفة كان لكل منهــا رأيــه حــول إشــكالية التعريف، فأصحاب الموقف الأول يقدمون تعريفاً من أبرز سماته أنه يقوم على تعريــف جــنس السَيرة الذاتية تعريفاً واسعاً فضفاضاً يجنح إلى التعميم وعدم تفصيل الخــصوصيات الأجناسَــية واختصارها في مفهوم أساسي واحد، ألا وهو تطابق الكاتب والشخصية التي يتحدث عنها[٤].

وأما أصحاب الموقف الثاني فقد أحجموا عند تقديم تعريف للسِيرة ذاتيَــة ومــن أبــرزهم جورج ماي القائل : " فأيَ نفع يرجى من أن نضيف إلى تعريفاتهم تعريفا آخر قد يكــون محــل جدل؟ ولعل هذا التعريف يثير على الفور سخطا لدى قسم من القرَاء بقدر ما يثير من الرَضــى لدى قسم آخر منهم هذا إن لم يكن السَخط أغلب "[٥] .

وقد حاول أن يضع أسباباً يبرر فيها إحجامه عن تقديم تعريف للسيَرة الذاتية، فهو يــرى أن السَيرة الذاتية ليست جنساً مستقلاً بذاته، بل هو شديد التداخل مع أجناس أخرى منها ما يقــع

---

[1] ينظر حول هذا الطريطر، جليلة ص ١٠٤ ،وعبد الدايم ص ج

[2] هياس خليل شكري : السيرة الذاتية العريقه تاريخ وثقافة المعرفة ع ٤٨٩ حزيران ٢٠٠٤ ص (٦٨)

[3] ينظر الطريطر، جليلة ،مقومات السيرة الذاتية ص ١١٤-١١٥

[4] المصدر نفسه ١١٥ من ابرز النقاد الذين يمثلون هذا الاتجاه جورج ميش الذي أراد أن يؤرخ لمدونة سَير ذاتية قديمة يدخلُ فيها أكبر عدد من النصوص في العصرين القديم والوسيط وذلك من خلال مشروعه الذي آرخ به إلى السيرة الذاتية الاردنيه في العصور القديمه والوسيطه بسبعة اجزاء المصدر نفسه ١١٥

[5] ماي، جورج: السيرة الذاتية ص (١٢٢)

ضمن دائرة أدب الذات كالمذكرات، وذلك كونه أكثر الانواع اختلاطاً بالسَيرة الذاتَيـة والروايـة ايضا.[1]

ومن الأسباب التي برر فيها موقفه أيضاً أن هذا الجنس مستحدث، ولعله أحدث الأجنـاس الأدبية على الإطلاق [٢]، وهو "بصدد التكوين أو أنه يوشك أن يتأسس....وأن الأوان لـم يحـن بعد لكي نعرفه على غرار الأجناس الاخرى )[٣] وأما أصحاب الموقف الثالث فقد كـانوا أكثـر إيجابية وجرأة وذلك لأنهم اجتهدوا وحاولوا قدر استطاعتهم أن يقدموا لهذا الجـنس نظريـات تسمو به جنساً أدبيا مستقلاً عن سائر أجناس الأدب الأخرى له عناصره وخصائصه التي يتفـرد بها.[٤]

ومن أهم هذه النظريات نظرية فيليب لوجون التعاقدية فقد كسر حاجز التردد منـذُ ١٩٧١ واقترح تعريفاً للسَيرة الذاتَية في كتابه السيرة الذاتية في فرنسا[٥].

وبعد مضي بضع سنوات أعادا لوجون النظر في التعريف الذي قدمه ونقحه فـي كتابـه "الميثاق السير ذاتي" عام ١٩٧٥ م إذ رأى أنه بحاجة الى سد بعض الثغرات التي واجهته أثنـاء دراسته للنصوص، والتي تجعل تعريفه أكثر دقة وصرامة. ومن أهم هذه المسائل مسألة الاسـم العلم أو ارتباط الأنا اللغوي في النص السير ذاتي بمرجعيَة خارجية تجسمها هوية واقعية مثبتـة على وجه الحقيقة لا المجاز في سجلات الحالة المدنية، وتدعمها أدبيا مؤلفات لا يمكن الطعن في نسبتها إلى الشخصية المعنية. وثاني هذه المسائل: مناطق الالتقاء والافتراق بين السيرة الذاتيـة وما شابهها من كتابات تقع في دائرة أدب الذات. [٦] وبعد هذا التنقيح ثبت تعريفه علـى النحـو التالي " حكي استعادي نثري" يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عنـدما يركـز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة[٧] وقد فصلَ فيليب لوجون هذا التعريـف إلى شروط أربعة جامعة ومانعه جديرة بالاهتمام والنظر تمثل المقومات الأساسـية فـي كتابـة

---

[1] المصدر نفسه، ١٢٤

[2] المصدر نفسه، ١١٧

[3] المصدر نفسه، ٢٢٠

[4] واليزابيث بروس وجورج قوسدورف ولن مترجمتين ولكن اشارت لهما الباحثة جليلة في كتابها مقومات السيرة الذاتية من ١٢٨-١٣٨

[5] نص التعريف مترجم عن الفرنسية " تسمى سيرة ذاتية الرواية النثرية التي يروى فيها شخص ما قصه حياته بعد مضى فترة من الزمن ، مسلطاً الضوء على حياته الشخصية وخاصة على تاريخ تكوين شخصية : ادب السيرة الذاتية في فرنسا المفاهيم والتصورات فليب لوجون ترجمة د. ضحى شيحة ، ص ٢٥.

[6] ينظر حول هذا الجزء الاول من كتاب فيليب لوجون وجليلة الطريطر ص(١٢)

[7] لوجون، فيليب ،السيرة الذاتية والتاريخ والميثاق والتاريخ الادبي ترجمة عمر حلي المركز الثقافي العربي،ط، الأولى ص ٢٢ ١٩٩٤-٢٢

السَيرة الذاتية، وتضعها في موضعها الصحيح مقابل أجناس الأدب الأخرى القريبة منها أوالبعيدة عنها .

**المستوى الأول: شكل اللغة**

أ.حكي.
ب .نثري.

**المستوى الثاني : الموضوع المطروق**

حياة فردية ، وتاريخ شخصية معينة.

**المستوى الثالث: وضعية المؤلف**

وتقوم على تطابق المؤلف ( الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد.

**المستوى الرابع: وضعية السارد.**

أ.تطابق السارد والشخصية الرئيسية .
ب .منظور استعادي للحكي. [١]

إننا نود أن نتخذ من هذا التعريف وهذه الشروط العامة منطلقاً نظرياً نتكىء عليه في دراسة المدونة السَير ذاتيَة الأندلسية مفصلين في قضاياها وأهم سماتها الأساسية، وحتى لا يؤخذ علينا مأخذ يمكن أن يطرح على شكل السؤال التالي : هل من المعقول إسقاط مفاهيم أجناسية حديثة على نصوص قديمة نشأت في أزمان وبيئات مختلفة وفق شروط خاصة بها؟ وهو ما نبه عليه جورج ماي بقوله :" يتعين علينا أن نحترز من النظر في العصور الخوالي نظرة استعادية من خلال طرائق تفكيرنا فنقع فيما أسماه جان روس " بالوهم الاسعادي"" [٢]، ومع ذلك فقد وقع هو وغيره من المنظرين الأوروبين بهذا الوهم وعلى رأسهم جورج قوسدورف الذي كان من أوائل المنبهين إلى خطورة إسقاط الأجناس والذي تراجع عنه في إنتاجه اللاحق وقال: بأن جنس السيرة الذاتية قديم قدم العوامل الدينية، التي أسهمت في بروزه[٣].

[1] المصدر نفسه، ٢٢-٢٣
[2] ماي، جورج ، السيرة الذاتية ص ٢٨
[3] ينظر طريطر، جليلة، ١١٣ وقد أشرنا إلى هذه القضية عند حديثنا عن قدم هذا الجنس

ولقناعتنا أن هذا الجنس قديم حديث فأنني سأتخذ المقولات الجديدة فضاء نظرياً أنطلق منه إلى دراسة الثوابت العامة في هذا الجنس كما أشار إلى ذلك جورج ماي.

**السيرة سليلة الثقافة العربية**

السيرة في اللغة :

الطريقة: يقال سايرهم سيرة حسنة.

والسنة : والهيئة .[١]

فهذا المعنى اللغوي يحيل على الطريقة التي يتبعها الإنسان في حياته او السنة التي يجري عليها فيقال سار الحاكم في الناس سَيرة حسنة أي طريقة حسنة.

كما وتدل هذه اللفظة على الحديث سَير سيرة أي حدث أحاديث الأوائل.[٢]

فهذه الدلالة الأخيرة تومىء إلى أمرين .

" الأول: تضمن اللفظ معنى الخبر او الحكاية

الثاني : الإشارة إلى قدم مرويات السيرة بدلالة ربطها بأحاديث الاوائل ".[٣]

فمن هذا المعنى اللغوي لكلمة سيرة جاء المعنى الاصطلاحي لها، فقد عرفت في التراث العربي والإسلامي بمعنى حياة الرسول الكريم" صلى الله عليه وسلم " وما كتب عنها ، يقول ابن هشام في كتابه عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم :" هذا كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم " [٤] أصبحت سيرة الرسول الكريم الأصل الموجة فقد اعتبرت السيرة النبوية أوسع ما في التراجم الإسلامية وأقدمها ظهوراً"[٥].

ومن الأمور التي كانت وراء ظهور هذا الفن في الإسلام ظهور بعض العلوم التي تميزت بها الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم من مثل علوم الحديث الشريف "فقد ظهرت عناية خاصة بتدوينه بعد وفاة الرسول خشية أن يختلط شيء منه بالقرآن الكريم ... وقد اتجه العلماء من أجل غرض تدوين الحديث، إلى الحديث عن رواة الحديث الشريف ورجاله فترجموا لهؤلاء تراجم كان القصد منها بيان قيمة المحدث ومكانته من الإسناد ، الأمر الذي دفع كثيراً

---

[1] اللسان مادة ( شطر) (سير) والفيروز أبادي القاموس المحيط والصحاح.

[2] اللسان مادة (سير)

[3] عبد الله ابراهيم : السردية العربية بحث في البيئة السردية للحدوث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط ٢ ٢٠٠٠م ص ١٤٣.

[4] ابن هشام: السيرة النبوية.

[5] العمد، هاني،دراسات في كتب الترجم والسير. ، عمان ،١٩٨١ ط١ ـص١١٤

من العلماء وضع كتب في نقد الرجال المحدثين ووزنهم بموازين دقيقة تجعلهم جديرين بحمل أمانه الرواية فوضعوا كتباً في الجرح والتعديل .[١]

وهناك عامل ثالث كان له دور كبير أيضاً ظهور الفرق الإسلامية التي أخذت كل واحدة منها تهتم بتدوين حياة رجالها وصفاتهم وآرائهم ومعتقداتهم..."[٢].

ونتيجة لهذه الظروف تطور المفهوم واتسع وأخذت تنطوي تحته أشكالٌ عديدة كالسيرة الغيريَة والذاتية والشَعبية " فمع توالي العصور كثرت أنواع التراجم والسير وتضخم عددها حتى بلغت في التراث العربي من الكثرة حداً لم تبلغه أية أمة أخرى""[٣].

وفي ضوء هذا المعنى الاصطلاحي استعملت كلمة ترجمة وقد رأى يحيى إبراهيم عبد الدايم أن لفضتَيْ سيرة وترجمة كلتيها تدوران على معنى تاريخ الحياة )[٤] ورغم أن كلمة " سيرة في التراث العربي أقدم في الاستعمال من كلمة ترجمة من حيث مدلولها في تتبع حياة شخص من الأشخاص "[٥]. ويقول عبد الدايم أن كلمة ترجمة دخلت إلى العربية عن طريق الآرامية " ولم يكن الاصطلاح قد جرى على استعمالها في ما يبدو إلا في أوائل القرن السابع الهجري حين استخدمها ياقوت في معجمه بمعنى حياة الشخص، ويرجح هذا الظن أن أبا الفرج في كتاب الأغاني لم يستعمل لفظه ترجمة عند كلامه على حيوات الشعراء وغيرهم وكان يسبق كلامه بمثل قوله : خبر أبي قطيفة ونسبه... [٦].

والمعاجم العربية القديمة تغفل استعمال كلمة ترجمة للدلالة على التاريخ الحياة كالجمهرة لابن دريد، ولسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي ، وأما المعاجم المعاصرة فقد وردت فيها بهذا المعنى.

وبقيت كلمة ترجمة تستعمل المعنى الاصطلاحي نفسه لكلمة سيرة على مر العصور ولكن الفرق بينهما كان في الاستخدام، فالسيرة في بادئ الأمر تحيل على المرويات التي عنيت بحياة الرسول الكريم، ومن ثم تطورت لتدل على التاريخ المسهب للحياة.[٧].

وأما كلمة (ترجمة) فقد جرى لاصطلاح على استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجزة للفرد كأعلام الحديث والفقه والأدب واللغة والطب والحكمة .[١]

---

(1) العمد هاني : ص ١٤
(2) بنظر المصدر نفسه ص ٥١
(3) المصدر نفسه ص١٤
(4) عبد الدايم ، ص ٣٠
(5) فهمي ،ماهر حسن ، السيرة تاريخ وفن ، دار القلم ،الكويت ، ص ٢
(6) يحيى، ابراهيم عبد الدايم: مرجع سابق ص(٣١)
(7) ينظر ابراهيم عبد الله (ص١٤٣)

(1) ينظر ابراهيم ، عبد الله ١٤٣

# الفصل الأوّل

# سمات النص السيرذاتي

# وتجلياتها في السِّيَرْ الذاتية الأندلسية



## سمات النص السِّيَرْ ذاتي وتجلياتها في السِّيَرْ الذاتية الأندلسية

### مدخل نظري:

السيرة الذاتية جنس أدبي معقد كثيرُ التنوع شديد التداخل مع غيره من الأشكال الأدبية ذات العائلة الأجناسية الواحدة، لذا فإنه يصعب التمييز الدقيق والفصل النهائي بين هذه الأشكال والسيرة الذاتية، ومع ذلك فقد وضع فليب لوجون تعريفه الصارم للسيرة الذاتية في محاولة أقرب إلى العلمية ليحدد من خلال هذا التعريف السمات السردية و الأدبية ولاسيَّما الرواية بشكل عام ورواية السيرة بشكل خاص.

والأنواع الأدبية التي تقع في الدائرة الأجناسية الواحدة كالمذكرات واليوميات والاعترافات ... الخ ولا يسع الباحث وهو يتناول مثل هذا الجنس الأدبي بالدرس والتحليل إلا أن يتخذ من

أهم التصورات والنظريات النقدية التي تناولت هذا الجنس واختصت به أساساً علمياً ونظرياً ننطلق منه ونتكئ عليه في دراستنا لنصوص السيرة الذاتية في الأندلس وذلك لاستجلاء خوصيات هذا الجنس وإبراز أهم القضايا الجوهرية التي تعكس خوصيات السيرة الذاتية في الأندلس .

وقد يحتاج الأمر منا إلى إجراءين:

أولاً: إحداث تغيرات في طريقة تناولنا لبعض النظريات المعتمدة دون الخروج عن الإطار الأساسي لها ، أو الإخلال بها وذلك وفق ما تفرضه علينا نصوص السيرة الذاتية الأندلسية التي تنقلنا من سياق الكتابات السير ذاتية في العصر الحديث التي (أقيمت هذه النظريات على أساسها) ، إلى سياق الكتابات السير ذاتية في العصر القديم ولا سيما في الأندلس.

ثانياً : مراجعة الخلفيات المنهجية التي تستند لها هذه المفاهيم والنظريات في ظل التطور الزمني للنصوص ، والتلاحق الأجناسي ، وغياب الحدود الفاصلة بين الأجناس الأدبية في أزمان مختلفة والتي كرسها غياب تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية .

وأول هذه النظريات التي ارتأينا أن تكون لنا فضاء نظرياً نتكئ عليه في دراستنا لنصوص السيرة الذاتية في الأندلس نظرية الباحث الفرنسي فيليب لوجون التعاقدية .

وأول ما يتم تناوله بالدرس في هذا النص فكرة التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية المركزية في النص السير الذاتي الأندلسي وكيف تجلت به، وذلك على الأساس النظري الذي قدمه فليب لوجون في نظريته، وذلك إما عن طريق الضمير أو الاسم العلم، لكي تكون هناك سيرة ذاتية.

وأما القسم الثاني من هذا الفصل فإنه سوف يتطرق إلى الميثاق السير الذاتي في النصوص السير الذاتية الأندلسية معتمدين على ما قدمه لوجون في نظريته هذه ولكن آخذين بعين الاعتبار خصوصية هذه النصوص .

### تطابق المؤلّف والسَّارد والشخصيَّة المركزية

يؤكد فيليب لوجون وجوبَ تحققِ شرطينِ أساسيَّينِ في السِّيرةِ الذَّاتيةِ لا يمكنُ الإخلالَ بهما أو حتَّى بأحَدِهما إذ ما حاولنا التَّمييزَ الدقيقَ بينها وبين غيرها من الأنواع الأدبيةِ

كالرِّوايةِ ، وروايةِ السِّيرةِ الشخصيَّةِ إذْ يقولُ : " هناكَ شرطان يتعلّقُ بهما كلُّ شيء ،هما طبعاً الشرطان اللّذانِ يعارضان السِّيرة الذّاتية ، (وباقي أشكال الأدب الشخصيّ في الوقتِ نفسهِ ) مَعَ السِّيرةِ وَمَعَ الّروايةِ الشخصيَّةِ :إنهما الشرطان (٣ و ٤ أ )[١]فلا وجودَ هنا لتتبادل ولا لحرية معينة ، فالتطابق إمّا أن يكون أو لا يكون لا وجود لدرجة ممكنة ، وكل شك يقود إلى نتيجة سلبية فلكي تكون هناك سيرة ذاتيةٌ " أو أدب شخصي بصفة عامَّة يجب أن يكون هناك تطابق بين المؤلّف والسَّارد والشخصيَّة ".[٢]

**أنواع الأنا** :

١ -أنا المؤلّف الحقيقي : وهو الذي يقف وراء عملِهِ بحكمِ وصفِ السِّيرة الذاتية .

٢ - أنا السَّارد : وهو المنبثق من الحاضر .

٣ -أنا الكائن السِّيَر ذاتي: وهو الذي يعود إلى الكائن السِّيَرِيّ .[٣]

ولكن هذا التطابق بين هذه الأركان الثّلاثة يثير بعض المشكلات، من أهمّها : كيف يتم هذا التطابق في المتلفظ السِّيَر ذاتي سواء على المستوى النظري " كأن يعتقد البعض أنَّ التأكيدَ على ضرورة تَحقيَق التطابق يُسهِّلُ إمكانية منح قاعدةٍ نصِّيَةٍ عامّةٍ للسيرة الذاتية، أو على مستوى التطبيق الذي يدور حول شكل الضمير النحوي المُوظف داخل النص السِّيَر ذاتي ". [٤]

ولتجنب هذا الإشكال "علينا أن نُميز داخل مفهوم التطابق هذا بين مقياسين مختلفين هما : مقياس الضمير النحوي الذي يعود على الشخص ، ومقياس تطابق الأشخاص الذي يدُلّنا عليهم الضمير النحوي". [٥]

---

( 1) أي وضعية المؤلف: تطابق الذي يحيل اسمه إلى شخصيَّة واقعيَّة ،والسَّارد. وأمَّا ٤أ وضعية السَّارد : أ تطابق السَّارد و الشخصيَّة الرَّئيسية. فيليب لوجون ص ٢٢-٢٣.

( 2) فيليب لوجون، مرجع سابق،ص٢٤

( 3) الصكر، حاتم مرايا: نرسيس الأنماط النوعية والتَّشكُّلات البنائية لقصيدة السرد الحديث ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١٩٩٩م. ص١٤٦.

( 4 ) هيَّاس ، خليل شكري ، سيرة جبر الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات ص ٧ وقد عاد إلى مفهوم السِّيرة الذاتية ص ٢٨ .

( 5) بحراوي ، حسن : أنساق الميثاق الأطوبيوغرافي السِّيرة الذاتية بالمغرب نموذجاً مجلة آفاق ، المغرب ، العدد. ٣-٤ . ١٩٨٤ م ص ٤١ .

وللتفريق بين هذين المقياسين عَمِدَ الدَّارسون إلى البحث في محـــورين أساســـيين هما:

١ - وحدة السَّارد والشخصيَّة المركزية في السِّيرة .

٢ - وحدة المؤلّف والسَّارد والشخصية المركزية في السِّيرة .[١]

ولأنّ السِّيرة الذاتية نصٌّ حِكائيّ سرديّ فإنها لا تختلف عن أي نص أدبي آخر فـــي استعمالها للضمائر النحوية في المحكيِّ " فهيَ إمّا أنَّ تُروى بضمير المـــتكلم المفـــرد وإمّـــا أنَّ الرَّواي يتوجه بالخطاب إلى ضمير المخاطب المفرد ، وإمّا أنْ يتحـــدَّث عـــن البطـــل متوسِّـــلاً بضمير الغائب المفرد "[٢] .

يشكلُ الحكي بضمير المتكلم المفرد الظاهرة الأسلوبية الأكثر تواتراً في الـــسِّيرة الذاتية ، وذلك لأنَّ هذا الأسلوبَ يحيل على الـــذّاتِ مباشـــرة ، ويقلـــلُ المـــسافة بـــين الـــسَّارد والشخصية المركزية بحكم أنه هو من يعيش الحدوث ويرويه ، ويسمح للسَّارد من النَّوع الـــسِّير ذاتي أن يتحدث باسمه الخاص أكثر ممّا يسمح للمحكيّ بضمير الغائب وذلـــك بـــسبب تمـــاهي السَّارد مع البطل[٣] .

يُورد عبد الملك مُرتاض جملة من الخصائص لهذا الضمير في الـــنّص الـــسّردي يراهـــا بعض الباحثين تتلاءم مَعَ طبيعة النص السِّير ذاتي[٤] :

١ - إنَّ هذا الضمير يجعل الحكاية المسرودة مندمجة في رُوح المؤلف ، فيذوب ذلـــك الحاجز الزمني الموجود بين زمن السرد وزمن السَّارد ظاهريًّا على الأقل، وذلك لدى استعمال ضمير الغائب ، فيصبح الزمن السَّردي وحيداً مندمجاً بحكم أنَّ المُؤلّف يغيب فـــي الشخـــصيّة التي تسرد عمله.[٥]

---

([1]) يُنّظر هياس ، خليل شكري السابق ص ٨ .
([2]) المخوت ، شكري : سيرة الغائب سيرة الآتي ص ١٢.

([3]) ) جنيت ، جيرار ،خطاب الحكاية بحث في المنهج ترجمة محمد معتصم وآحرون ط٢ ١٩٩٧ م. ويُنظر نظرية السَّرد من وجهة النظر إلى التَّبيئر ، مجموعة مُؤلفين ترجمة ناجي مـــصطفى ص٦٧ ويُنظـــر أيـــضاً هيَّاس، خليل شكري ، ص٨.

([4]) يُنظر هيَّاس ، خليل شكري ، سيرة جبرا الذَّاتية ،ص٨.
([5]) يُنظرمُرتاض ،عبد الملك ،في نظرية الرِّواية ، بحث في تقنيَّات السرد ،عالم المعرفة ، كانون الأول ١٩٩٨م ص١٨٤.

٢- إنَّ هذا الضمير يجعل المُتلقي أكثر التصاقاً وتعلُّقاً بالعمل السَّردي ،موهِمـاً إيَّـاه أنَّ المؤلِّف هو إحدى الشخصيّات التي ينهض عليها النص الحكائيّ فعلاً[١].

ويؤكد محمد الخَيْوّ هذا الرأي عندما ذهَبَ إلى أنَّ هذا النوع مِنَ الكتابة التي تتوسل بضمير الأنا يُلغي الوسائط الموجودة بين القارئ " وبين ما يُنقل إليه من أحداث ومشاهد وأقوال، وهو ما يُمَتِّنُ العلاقة بين الشخصية و القارئ باعتبار أنَّ السَّرد في صيغة الضمير المتكلم المفرد (أنا) وسيلة لتخييل صوت الكاتب ، تدعم احتمال وقوع الحكاية المَسْرودة ".[٢]

٣- إنَّ هذا الضمير يُحيلُ على الذات بينما ضمير الغياب يحيل على الموضوع و((الأنا)) مرجعية جوَّانية ، على حين أنَّ ((الهو)) مرجعية بَرَّانية . ولا سواء ضمير يسرد ذاته ، وضـمير آخر يحكي سواه ضمير منطلق من الدَّاخل ، نحو الدَّاخل طوراً ومن الدَّاخل نحو الخارج طـوراً آخر ، وضمير آخر مُنْطَلَقهُ من الخارج نحو الخارج أطواراً ومن الخارج نحو الدَّاخل طوراً.[٣]

٤- إنَّ ضمير المتكلم يتحكم في مجاهل النفس وغيابات الروح على عكس ضمير الغائب، وهو ضمير السَّرد المُناجاتي، إذ يستطيع التوغل إلى أعماق النفس البشريّة، فيُعرِّيهـا بـصدق، ويكشف عن نواياها بحق، ويُقدِّمها إلى القارئ كما هي ، لا كما يجب أن تكون .[٤]

ويمثل ضمير الغائب المرتبة الثَّانية في السرد السِّيَر ذاتي وذلك لطبيعة الوظيفة التـي ينهض بها هذا الضمير في النصّ الحِكائيّ التي توحي ظاهريّاً أنّ مَنْ يروي هو شـخصٌ آخـر مُختلف عن الشخص المُتحدَّث عنه . مِمَّا يَخلُقُ مسافة فاصلة بين السَّارد والبطل، وهذا يعني أنَّ التطابق المُفْتَرَض حصوله في السِّيرة الذَّاتية المَرْويَّة بضمير الغائب لا يتم بطريقة مُباشِرة وإنما عن طريق المعادلة المُزدوَجة التَّالية :

المُؤلّف = السَّارد

المُؤلّف =هو (الشخصية)

السَّارد =هو [١]

---

([1]) يُنظر: المرجع السابق ، ص ١٨٤

([2]) الخيْوّ، محمد ، بعض ملامح الأنا الرِّواية والمروية في الخِطاب الرِّوائيّ المعاصر إدوارد الخرَّاط نموذجاً ، فصول م ١٦ ،ع ٤ ،ربيع ١٩٩٨م،ص ٢١٢.

([3]) مُرْتاض ،عبد الملك ، نظريَّة الرِّواية ،ص١٨٥.

([4]) مُرْتاض ،عبد الملك ، نظريَّة الرِّواية ،ص١٨٥.

فالسَّارد الذي يسرد الأحداث ، والذي يبدو أنَّه شخصٌ مختلف عن الشخص المُتحَدَّث عنه في ظاهر الأمر ، ما هو إلاّ شخصٌ واحد في باطنه ويقوم بوظيفتين : فهو يعيش الحدث فيكـــون شخصيّة قَصَصيَّة وهو يروي ما عاشه فيضطلع بوظيفة القصّ ، فالتطابق في هـــذا البـــاب يـــتم بطريقة غير مباشرة .(٢)

وذلك نتيجة لما يضطلعُ به هذا الضميرُ من وظائف داخـــل العمـــل الـــسردي، والتـــي أوردها عبد الملك مرتاض على النحو التالي :

1- إنه وسيلةٌ صالحةٌ لأن يتوارى وَرَاءه السَّارد فيُمرِّر ما يشاء من أفكار وأيـــديولوجيات وتعليمات وتوجيهات وآراء دون أن يبدو تدخله صارخاً ومباشراً ،فيصبح الـــسَّارد غريبـــاً عـــن العمل السَّرديّ .(٣)

٢-إنَّ هذا الضمير يجنب السَّارد الوقوع في فخ (الأنا) الذي يقع به السَّارد بضمير المتكلّم كما ويجنبه إثم الكذب ،إذ يجعله مجرد حاكٍ يحكي ، أي أنَّه وسيط أدبيّ ينقل للقارئ ما سَمِعَه أو عَلِمَهُ من سِواه وهو بهذا إنَّما يوحي بنوع من الانفصال بين النصّ وناصّه.(٤)

٣- إنَّ اصطناع هذا الضمير يفصل زمن الحكاية عن زمن الحكي من الوجهةِ الظـــاهرة على الأقل ... فهذا الزمن يظلُّ في ظاهره وكأنَّه فعلٌ مفصولٌ عن الكاتب سابقاً عليه، مـــع أنـــه مجردَ خدعةٍ سَرديةٍ تحمل المتلقي على التصديق بدون حدوث ما يجري، وأنَّه أُدخل في التاريخ والواقع من حيث هو نسيج لُغوي، وهو في الوقت نفسه تقنيَّة روائية للتعامل مع الزمن الذي هـــو زمن الكاتب وحده قبل كل شيء .(٥)

٤- إنَّ استعمال ضمير الغائب يتيح للكاتب أنْ يعرفَ عـــن شخـــصياته وأحـــداث عملـــه السردي كُلَّ شيء ، ... فيكونَ وضْعُهُ السرديَّ قائماً على اتخاذ موقـــع خلـــف الأحـــداث التـــي يسردها ، وهذا الوضع السردي ما أطلق عليه جون بيون الرؤية من الخلف ورمزَ لها تودروف

---

(1) يُنْظَر المبخوت ، شكري ،سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص ١٢-١٣. وهيَّاس ، خليل شكري ،سيرة جبرا الذّاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات ، ص ٩.

(2) يُنظَر المبخوت ،شكري ،سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص ١٢.

(3) يُنظر مُرتاض ،عبد الملك ، ص ١٧٧.

(4) المصدر نفسه ، ص ١٧٨.

(5) المصدر نفسه ، ص ١٧٨

بـــ (السارد > الشخصية الروائية) أي أنَّ الـــسَّارد أكثـــر معرفـــة مـــن الشخـــصية الرئيـــسية والشخصيات الأخرى فهو يقف خلف الجدران يرى ما يجري في دماغ بطله.[١]

إنَّ هذا الوضع السردي لا يتلاءم مع النصّ السِّير ذاتي و لا يعلم به الكاتب أكثر ممَّا تعلمه الشخصيَّات الأخرى، أي أنَّ الرؤية المُسيْطرة على هذا النوع من الأدب هي الرؤية المصاحِبة التي تصبح " كل معلومة أو كل سِر من أسرار الشريط السردي متصاحبة مع الأنا السَّارد ، مع الأنا المتخيل إلى مجرد شخصية من شخصيات هذا الشريط السردي الذي يزدجيه ، باحتراف فني متألق ، من الدَّاخل ... فالأنا يجعله فاقداً لوضع المؤلف ومكتسِباً لوضع الممثل (الشخصية)" .[٢]

أمَّا الضمير الثَّالث فهو ضمير المخاطب، وهو يَخلِقُ نوعاً من الهوَّة بين صاحب اللفظ وصاحب الملفوظ الذي يتم التعامل معه باعتباره مُتَلَقِّظاً للحكي .[٣]

فمؤلف السيرة الذاتية يجردُ من نفسه شخصاً آخر يخاطبه ويسميه (أنت) ، فالتطابق المفترض حصوله في النص السِّير ذاتي الذي يصطنع ضمير المخاطب لا يتم بطريقة مباشرة، وإنَّما عن طريق معادلة مزدوجة على النحو التالي :

المؤلّف = السَّارد .

المؤلّف = أنت الشخصية .

السَّارد = أنت .[٤]

وَعَزَا حسن بحراوي الاعتقاد الَّذي كان سائداً إلى وقت قريب من " أنَّ السيرة الذاتية هي الرِّواية القائمة على الصوت المنفرد أي تلك التي تستعمل ضمير المتكلم في السرد إلى

---

(1) تودروف، تزفتان، مقولات السَّرد الأدبي ، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا ، ضمن كتاب طرائق تحليـــل السّرد الأدبي ، اتّحاد كُتّاب المغرب ط١ ،١٩٩٢م ،ص .

(2) مرتاض ، حسن ، عبد الملك ، ص ١٨٥-١٨٦.

(3) بحراوي ، حسن ، أنساق الميثاق الاطوبيوغرافي السيرة الذاتية بالمغرب نموذجاً ، ص٤١.

(4) يُنظر البخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص ١٢.

خصائص هذه الضمائر من جهة، واستخدام ضمير المتكلم في معظم النصوص الأتوبوغرافية في عملية الحكي بشكل متواتر وشبه قارّ " .(١)

ويرى حسن بحراوي أنَّ أصحاب هذا الرأي قد أخطأوا مَرَّتين : مَرَة حين اعتبروا الضمير النحوي بمثابة مفهوم يمكنه أنْ يُحدد الطبيعة النَحْويِّة لجنس أدبي ما ، ومَرَّة ثانية عندما أقاموا فروقات شكلية وتراتُبِّية بين الضمائر النحوية.(٢)

فالتطابق الذي يُفتَرَضْ حدوثه يمكن حصوله مع ضمير المتكلم بطريقة مباشرة، وأمَّا مع الضمائر الأخرى فإنَّه يتم بطريقة غير مباشرة كما أوضحنا سابقاً ، ولكن التطابق المفترض حصوله في السرد بضمير المتكلم لا يخلو من الإشكال أيضاً، إذ ليس هناك تطابق تام بين السارد والشخصية الرئيسية في النص السِّير ذاتي .

قال لسان الدين بن الخطيب : "ولدتُ في قرطبة سنة " فإن ذلك أمراً لا يخلو من تداخل معطيات عديدة ، فلسان الدين الذي عاش حدثَ الولادة ولسان الدين المُتَحَدْثُ عنه شخصان مختلفان زمنياً أحدهما وليد لا يتكلم في المهد ، وثانيهما شابٌ تعلم القراءة والكتابة وصار سياسياً أديباً ، ولكنَّ الصيغة النحوية توهِمُ بتطابقهما فالضمير النحوي يجمع الشخص المُتكلِّم والمتكلِّم عنه في الخطاب .(٣)

وبعد كل هذا نخلُصُ إلى أنَّ قضية التطابق لا يمكن طرحها من جهة اللغة لأنَّ الضمير النَّحوي حسب قول بنفست سواء أكان متكلِّماً أم مخاطباً أم غائباً ليس له من مفهوم خارج وظيفته الإحالية ، وإنّه بالنتيجة لا يمكنه أن يقوم بوصفهِ معياراً خِلافياً للتمييز بين مبنى أدبي وآخر .(٤)

لقد لاحظ بنفست ولوجون عدم قابلية الضمير على تحقق التطابق والحسم في إنتماء نص ما إلى فن السِّيرة الذَّاتية كون الشخص الذي يدلُّ عليه الضمير لا يوجد إلاَّ داخل الخطاب. وأشار بنفست إلى وظيفة هذه الضمائر وهي الوظيفة الإحالية إلى اسم أو إلى ذات قابلة لأن

---

(1) يُنظر بحراوي ، حسن ، أنساق الميثاق الاطوبيوغرافي السيرة الذاتية بالمغرب نموذجاً ، ص٤١.

(2) يُنظر بحراوي ، حسن ، أنساق الميثاق الاطوبيوغرافي السيرة الذاتية بالمغرب نموذجاً ، ص٤١.

(3) المبخوت ، شكري ، السابق ، ص ١٣. فكرة المثال مستوحاة منه أيضاً ومن لوجون السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ ٣٠ .

(4) بحراوي ، حسن ، أنساق الميثاق الاطوبيوغرافي السيرة الذاتية بالمغرب (نموذجاً ، ص ٤١.

يُشارَ لها باسم ؛ [١] شخص واقعي يرتبط مع الشخص النحوي باسم علم هو:" الاسم الوحيد الذي يتم إعلانه من أجل تحقيق ذات المؤلف وإثباتها، وبذلك لا يحل إشكال تطابق المؤلف مع الشخصية الرئيسية إلا عبر توظيف هذا العنصر ، أي عبر التوقيع وإثبات الاسم الذي اعتاد المؤلف وضعه فوق غلاف الكتاب مؤشّراً على حضورهِ التام، فهي العلاقة الوحيدة الأولى فوق العنوان أو تحته ... فهو العلاقة الوحيدة على وجود كائن اجتماعي يمتهن الكتابة ويضطلع بمسؤولية ما يُقال أدبياً وقانونياً . "[٢]

ويقيم فيليب لوجون ترتيباً لأهم الحالات الممكنة للتطابق اعتماداً على مقياس العلاقة الاسمية بين الؤلف والبطل :

١- اسم الشخصية لا تساوي اسم المؤلف: وهي الحالة التي لا يحمل البطل فيها اسمَ المؤلف فلا وجود لتطابق المؤلف والسارد والشخصية مما يبعدُ النص عن مجال السيرة الذاتية ويدفع بها إلى مجال التخيل الرِّوائي . [٣]

٢- اسم الشخصية تساوي صفرا : " وهي الحالة الأكثر تعقيداً لأنها غير محدَّدة فكل شيء يرتبط عندئذٍ بالميثاق المنجز من طرف المؤلف " [٤] مع القارئ هل هو روائي أم سِير ذاتي أم عدم وجود ميثاق .

٣- اسم الشخصية تساوي اسم المؤلِّف : يكفي هذا التطابق لنفي إمكانية التخييل وضمها إلى الحقل السِّير ذاتي .[٥]

تكمن أهمية الضمير النحوي في النص بأنه " يُحيل بمقتضى كونه سيرة ذاتية على خارج النص بقدر إحالته على الشخص النحوي في الكتاب .[٠٦]

---

([1]) يُنظر لوجون ، فيليب السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ، ص ٣٢ .

([2]) يُنظر لوجون ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ، ص ٤٢..

([3]) يُتظر بحراوي أنساق الميثاق الأطوبيوغرافي ، ص ٤٢.

([4]) لوغون ، فيليب ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ، ص ٤٢.

([5]) المصدر نفسه ، ص ٤٤.

([6]) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص ٧٧.

وفي مذكرات الأمير عبد الله يتخذ المؤلّف من ضمير المتكلم (الأنا المفرد والجمعي ) صوتاً سردياً ناطقاً يُجَسدُ آلآمه وهمومه وأحلامه وذكرياته وتطلعاته ، فعلى طول المسار السردي نجد السارد يستعين بهذا الضمير النحوي منطلقاً من الزمن الحاضر ليعود مسترجعاً الزمن الماضي، راسماً لنا خَطَّ حياته السياسية منذُ طفولته حتى تولّيه وعزله عن الحكم ونفيه إلى أغمات . من البديهي أن تكون الشخصية الرئيسية في مذكرات الأمير عبدالله هي التي يحيل عليها ضمير المتكلم " فهي مَرجع الكلام وموضوع السرد ".[١]

يقول مستعيناً بهذا الضمير : " وأول ما ينبغي تقديمه ذِكْرُ دخولنا الأندلس وكيفية ولايتنا إيَّاها إلى هَلَمَّ جرا " .[٢]

فضمير المتكلم الجمعي يطالعنا في معظم النص فهو يستعين به عندما يتحدَّث عن أعماله السياسية ، لأنه حين ذاك يتحدث بصفته ممثلاً للأندلسيين لأنه زعيمهم ، أو حين يتحدث عن أسرته بني زيري، وذلك لما لهذا الضمير الجمعي من صبغة رسمية تمنح المستعين به سمة العظمة والكبرياء، فهو أمير من أسرة عرفها التاريخ فهو لم ينتزع الحكم من أحد بل كان شرعياً وَرِثَهُ عن جده باديس مُوضِّحاً ذلك من الخط الذي رَسمه لنا منذ أن دَخَلَ أجداده الأندلس حتى توليه الحكم . فقد جاء ضمير المتكلم الجمعي في مذكرات الأمير عبدالله لِيَخلِقَ نوعاً من التطابق بين السارد والشخصية المركزية .

فهاهو السارد يروي لنا عن بطله كل ما مَرَّ به من أحداث ويدخل إلى أعماق ذاته كاشفاً لنا عن مناجاته لنفسه وما يدور بخَلده من أفكار، يقول: " قلت في نفسي : هذا رجلٌ قد اعتاد الأمرَ والنَّهي ورأى من يقظتنا للدولة ما لم يكن يريده ، وليس فعله هذا بهواه ، وكلَّ شيءٍ يضطر فيه الإنسان فإليه لا يؤمنُ خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرَّة ، أكن نُبِّه على أمرٍ وحذَّر منه نفسه ، ثُم أوبق نفسه إلى المضرَّات . وإن أغضبنا هذه المرَّة وعاد إلى ما كان ، ثُم نَرَى منه خلافاً ، لم نقدر عليه بشيء ، أن يكون نَظَرُه لنفسه أجود من هذا النظر ، فإنَّ هذا الأمر منَّا

---

([1]) المبخوت ، شكري ، سيرة الغائب سيرة الآتي ، ص ٧٧.
([2]) بُلقّين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (٤٦٩ – ٤٨٣) المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، ص ١٣.

جاءه فجأةً لم يحتسبه ولا ظَنَّ به ، والفرص تمرّ مرَّ السحاب ! فما دمنا نمن بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا !" (١)

فقارئ هذا النص يشعر أنَّ السَّارد والشخصية هما شخصٌ واحد فقد أصبح من الضمير على المتلقي الفصل بينهما، إذ إنَّ الحدود الفاصلة قد أذابها ضمير المتكلم الذي يحيل على الذات ، فالأنا تنبع من الدَّاخل إلى الخارج . فهو الذي يستطيع التوغلَ إلى أعماق النفس البشريةِ، فيعرِّيها بصدق ويكشف عن نواياها بحق، ويقدمها إلى القارئ كما هي لا كما يجب أن تكون .

فهذه المهمة التي يضطلع بها ضمير المتكلم هي التي تخلق نوعاً من الحميمية بين المتلقي والعمل السردي أو الحكاية المسرودة، فيشعر المتلقي بنوع من التعاطف والصدق تجاه البطل، وهو ما عَوَّلَ عليه صاحب هذه المذكرات لينفي عن نفسه تهمة الضعف والخِذلان والتآمر مَعَ العدو ، منصفاً من خلال سيرته نفسه من ظلم التَّاريخ، فمن خلال ضمير المتكلم استطاع أنْ يُسمِعَ القارئ صوته مباشرةً دون وسيطٍ (( الرَّواي بضمير الغائب )) فهو شاهدٌ على نفسه لا أحد غيره . ومع أنَّ هذا الضمير يُعدُّ من أكثر الضمائر ملاءمةً واستعمالاً في النص السير الذاتي إلا أنَّه لا يستطيع خَلق التطابق التام بين السارد عبد الله و بين البطل الشخصية المركزية ذلك الطفل الصغير ابن الكُتَّاب الذي لا يعرف من أُمور السياسة شيئاً . يقول: " ولمَّا كان المظفّر جَدّنا – رضي الله عنه – قد أُوتيَ من الدهاءِ والتمييز لأحوال الزمان ما لا خفاءَ به ، وأنّه من آكد ما يجب له النظر فيه ترشيحُ أحد بَنِيه للولاية بَعْدَه ، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلاّ بتمرينه وإعماله في جميع خِدمته ، كَي يتدرب ولا يخفى عليه من أُمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه ، كنت ممّن وفقه الله لِبِرِّه والانصياع لوصيَّته. فأمر بإخراجي من المكتب إلى التصرُّف بين يديه ، وقال لي – نَضَّرَ الله وجهه - : " مَعَكَ من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك ! وهذا أولى ما تتعلّم ! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مِنّي وما ينقضي في دولتي أيام هذه الفِتن ؛ فإنّ الزمان أشرُّ والأيّام أقصر من أن تُدركُ تعلُّمَ كلَّ شيءٍ يُعنى به الملوك لأبنائهم ! فامتثلتُ حَدَّه ". (٢)

جاءَ هذا النص في مَعرِض الحديث عن التكوين السياسي للبطل على لسان السارد، إنَّ الذي يمر بهذا الحَدَث هو ذلك الطفل ابن الكُتَّاب، فقد جلبه جدُّه من الكُتَّاب بَعدَ أن عَرَف الحدَّ المطلوب من أُمور الكتابة والقراءة والقرآن، ليضعه في مدرسة السياسة، حتى يَخبُرَ منها ما

---

(1) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبدالله ، ص ٨٦.

(2) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١- ١٢.

يعنيه على حمل المسؤولية، وليصبح جديراً بما يُسند إليه من مهام الحكم في المستقبل . إنَّ الذي يَروي هذا الحدث هو عبدالله الأمير الشاب الذي عاش الحدثَ في الماضي، وظلَّ قابعاً في ذاكرته، فالتطابق بين الضمير الشخصي البطل الطفل والسَّارد الأمير النّاضج الذي يروي هذه القصة بعد مضي عدة سنين يعرف كل أبعاد هذا الحدث، ويتضح ذلك من خلال التعليقات الواردة في النص، فهي لا يمكن أن تصدر عن هذا الطفل الصغير وإنما جاءت من إدراك السارد الذي يعرف أكثر من البطل حتى ولو كان هو البطل . (١) ولم يكن منها نهارٌ إلاّ وأستفيد فيه فائدةً من تجربة وحُنكة .

يقول:" وما كنت أجهله من الأشياء ، أجدُ له أعواناً من الوزراء ، يعلمونني بالصواب فيه، لقلة خلافي عليهم، برِّي بهم . كلُّ ذلك (من) الأسباب التي أذِنَ الله من أجلها ولايتي من بعده . وقد كان من أهل بيت المملكة من يصلح لها قبلي ، ومعي من أخٍ كبير وعَمٍّ وقرابة أتَوَقَّعُ استهدافهم إلي وتغلّبَهم علَّيَّ ، ما لو أنفقتُ مِلء الأرض على كفاية شرَّه ، ما استطعت له . فكفاني الله تعالى ما كنت أتوقَّع ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنت فيه أكرهه . فنحنُ جُدَراء بتعداد نِعَم الله والإنصاف في شُكره ، كما حَضَّ عليه في قوله لنبيه – عليه السلام – "وأمّا بنعمة ربك فحدّث" .(٢)

إنّ المتأمل في هذا النص الذي جاء بعد الحادثة التي رواها لنا السّارد عن البطل يَجِدُ أنّه نصٌ لا يمكن أن يصدر عن بطل شاب خَبِرَ الحياة السياسية ، فالسّارد هُنا يعلم دقائق سرده، ويتضحُ ذلك جليّاً في إيراده جملة من الاستباقات التي لا يمكن أن تنبو إلاّ عن سارد يعلم أكثر مما تعلمه الشخصيه الرئيسية يقول: " وقد كان أبونا سيف الدولة – رحمه الله – مُرشحاً للمملكة ، يحبه أبوه كثيراً ، وجمعه الأموال من أجله ، وتدريبه عليه بكل وجه، وكان - رضي الله عنه -وكان من العقل والكرم وحَسن الخُلُق والحلم ما شُهرَ به في البلاد ، واجتمع عليه محبّة العباد . ولم يكن للمُظفر جَدِنا غيره ، فتوفي – رحمه الله – ابن خمسةٍ وعشرين عاماً . وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يرد بعد هذا إن شاء الله " (٣)

---

( 1) يُنظر جينيت ، جيرار ، خطاب الحكاية ، ص ٢٠٥.

( 2) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبدالله ، ص ١٢-١٣.

( 3) المصدر نفسه ، ص ١٣. وهناك مواضع كثيرة لاستباقات ورد ذكرها وسنذكرها عند تناولنا إياها في الفصل الأخير

فالاستباقات من وجهة نظر جنيت لا تصدر إلا عن سّارد تفوق معرفته معرفة البطل " فهذا الإشعار (الاستباقات ) لا يمكن أن يكون صادراً عن البطل بل من السّارد بالضبط وذلك في أغلب الأحيان ككل أشكال الاستباق التي تتجاوز دائماً قُدرات البطل المعرفية ." [١]

ويخص جيرار جينت الاستباقات بالسّارد السِّير ذاتي دون السارد الرِّوائي العالم بكل شيء " وليس من الصائب أن تُنسب مثل هذه التدخلات إلى (الرواي العليم ) فهي لا تمثل إلاّ نصيب السّارد السِّير ذاتي في عرض وقائع ما زال البطل يجهلها .... فبين خبر البطل وعلم الرواية العليم يوجد خبر السّارد الذي يتصرف به هُنا كما يريد، ولا يحتفظ به لنفسه إلا عندما يرى سبباً محدداً لذلك، ويمكن للناقد أن يعترض على ملاءمة متمّمات الخبر هذه، ولكن ليس على شرعيّتها أو مشابهتها الواقع في حكاية ذات شكل سِير ذاتي " . [٢]

ولمّا لم يكن للضمير النّحوي مطلق القدرة على إتمام عملية التطابق بين السّارد والشخصية موضوع الحديث والمؤلّف الذي يشهد اسمه على الغلاف فقد حرص معظم كُتّاب السيرة الذاتية على منح البطل نفس الاسم وذلك لإتمام عملية التطابق . وفي مذكرات الأمير عبد الله نَجِدُ أنّ المؤلّف لم يذكر اسمه الأول عبد الله ولكنه ذكر اسم جَدّه ولقبه [٣] واسم والده ولقبه في عدة مواضع [٤].

فعلى طول المسار السردي كان يتحدث عن نفسه مستعيناً بضمير المتكلم الجمعي، ولكن كل ما ذكره من أحداث عن نفسه ذات مرجعية تاريخية يمكن أن نتأكد من صحتها عَبرَ كتب التاريخ والتراجم، فهو أمير من أُمراء الطوائف حَكَمَ غرناطة لفترة من الزمن، ثُم وقع في أسر المرابطين ونهبت أمواله، ثم نُفي إلى أغمات في المغرب الأقصى، فهو بهذه الأحداث التي

---

([1]) جنيت ، خطاب الحكاية ، ص٢١٤.
([2]) المصدر نفسه ، ص ١١-١٢ .
([3]) وكان بَاديس بن حبوس جَدّنا – رحمه الله – كبير النفس ، عالي الهمّة ، حاد المزاج، لا يستطع أحدٌ (أن) يمخرق عليه في أمرٍ من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بني عمّه ، ص ٢٧. في هذا النص يذكر صراحة أن باديس ابن حبوس هو جَدّه . " ووُلي الأمر من بعده جَدّنا باديس ، ص ٣٠" . " وقَرَّ مُلك باديس جَدّنا قراوة وطار الذكر ، ص ٣٥. وكان يذكره بلقبه في مواضع كثيرة من النص( المُظفر بالله )

([4]) ولم يكن للمُظفر جَدّنا غير بُلقّين أبينا –رحمهم الله – وكان رفيقاً به ، مشفقاً عليه ، حَذِراً من أعدائه وبني عمّه أن يبلغوه من بعده بما يولغ هوله بعد وفاة أبيه ، فكان لا يحس من أحدٍ داخلةً ولا نفاقاً إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخمالٍ أو نفيٍ أو أخذِ مالٍ ، لئلا يبقى لابنه من يُناوئه ويُذِله ، ص ٣٦. أمّا لقبه فقد كان يلقب بسيف الدولة " وقد كان أبونا سيف الدولة " ، ص ١٣.

وقعت فعلاً وعرفها التاريخ معروف ضمنياً، حتى لم يذكر اسم الأول صراحة، وهي ذات الأحداث التي رواها ضمير المتكلم في هذه السيرة.

وأمَّا ابن حزم في كتاب الطوق فنجد من ضمير المتكلم (أنا) صوتاً سَرْديًّاً ناطقاً باعترافاتِه وآرائهِ ومُحَدِّثاً بِمَا شاهده وما أُخْبِرَ به من بعض الثِّقات من أهلِ زمانه، يقول: " والذي كلفتني لا بُدَّ فيه مِنْ ذكر ما شَاهدتهُ حضرتي ، وأدرَكَتهُ عِنايتي ، وحَدَّثني به الثِّقات من أهل زماني ".(١) وأول اعتراف يُسنَدُ إلى ضمير المتكلم في هذه الرِّسالة على حَدٍّ قوله أنّه سيوردُ أشعاراً نَظَمَهَا هو، أي ابن حزم، في ما شاهدهُ، ولكنه يُنَوِّه في ذات الوقت أنَّ هذه الأشعار ليست كلَّها من باب حاكي الحديثَ عَن نفسه وإنما سيذكر ما قد عَرَضَ له من هذه الأحوال، وسوف ينسبها إلى نفسه، يقول : "وسأوردُ في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنتَ ومن رآها على أني سالك فيها مَسلكَ حاكي الحديثِ عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشِّمونني القول فيما يعرضُ لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أني ذاكر لك ما عُرضَ لي مما يشكل ما نحوت وناسبه إليّ " .

وقد جاء ضمير المتكلم في معظم الرِّسالة مُسنَداً إلى أفعال تحملُ معنى المعرفة واليقين، أي أنه عَالِم بدقائق وأحداث مَن يروي عنهم، يقول: " ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أنَّ المحبة ضُروب، فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل ، إمّا لاجتهاد في العمل ، وإمّا لاتفاق في أصل النِّحلة والمذهب ، وإمّا لفضل عِلم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة و البِّر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللَّذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التي لا علة لها إلاَّ ما ذكرنا من اتصال النفوس ".(٢)

---

(1) ابن حزم ، أبو محمد بن أحمد بن سعيد ، طوق الحمامة في الإلفة والألاف ، تحقيق الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، ط ٢ ، ص ٥.

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١١.

فهـذه الفِقـرةُ تَنـسِبُ المعرفـة إلـى المتحـدثِ عـن طريـقِ ضـمير المـتكلم بالفعـل (عَلِـمَ) ، فمـن خـلال هـذه الأفعـال المسنَد إليهـا ضـميرُ المـتكلّم تتضحُ لنا مـصادرُ معرفتِـه، فهـي إمَّـا الـسَّماع مـن خـلال قولـه سَـمِعْتُ أوحـدَّثني ، وإمّـا المـشاهدة حـين يقـول : رأيـتُ ، عاينـتُ ، شـاهدتُ ، فهـذه الأفعـال الثلاثـةُ الأخيـرةُ تحمـل معنـى المـشاركة فـي مـستوياتٍ عـدة ، فَرُبَّمـا تكـون علـى شـكل حَـدَث أو قـصة شـاهدها ثـمَّ رواهـا لنـا دون أن يكـون لـه فيهـا أدنـى حـدًّ مـن المشاركة ، وهذا كثيرٌ في الكتاب .

وقـد يـروي لنـا قـصّة عـن بعـض مَـنْ يَعـرِفُهم كأصـحابه مـثلاً فتكـون مـشاركتُهُ بهـا حَـدَّ التعليـق، أو تقـديم النـصيحة، أو قـول الـشعر الـذي ينـسبه إلـى نفسه من خلال قولـه : وأقـول فـي ذلـك شِـعراً منـه ... الـخ . " وذلـك أنَّـي دخلـتُ يوماً على أبـي الـسّرى عمّـار بـن زيـاد صـاحبنا ، مـولى المؤيّـد ، فوجدتُـه مفكّـراً مهتماً ، فسألته عمّا بـه ، فتمنَّـع سـاعة ثـم قـال لـي : أعجوبـة ، مـا سُـمِعت قـط . قلـت : ومـا ذاك ؟ قـال : " رأيـت فـي نـومي الليلـة جاريـةً فاسـتيقظتُ وقـد ذهـب قلبي فيها ، وهمـت بهـا ، وإنـي لفـي أصـعب حـال مـن حُبِّهـا ". ولقـد بقـي أيَّامـاً كثيرة تزيـد علـى الـشهر مـضموماً مهمومـاً لا يهنَئُـه شـيء وَجْـداً ، إلـى أنْ عزلتُـهُ وقلـت لـه : مـن الخطـأ العظـيم أن تـشغل نفـسك بغيـر حقيقـة ، وتعلّـقَ وَهمَـكَ بمعدومٍ لا يوجـد ، هـل تعلـم مَـن هـي ؟ قـال : لا والله .قلـت : إنـك لقليـل الـرأي ، مُصاب البصيرة ، إذ تحـب مَـن لـم تـره قـط ، ولا خُلِـق ولا هـو فـي الـدنيا ، ولـو عشقت صورة مـن صـور الحمّـام لكنـتَ عنـدي أعـذر ، فمـا زلـتُ بـه حتـى سـلا وما كـان . وهـذا عنـدي مـن حـديث الـنفس وأضـغاثها ، وداخـل فـي بـاب التمنّـي وتخيل الفكر . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

يااليت شعريَ هل كانت وكيف سَرَتْ

أطَلْعَةُ الشمس كانت أم هي القمرُ

أظنّها العقلُ أبداه تدبُّره

أو صورةُ الروح أبدتها ليَ الفِكَرُ

أو صورةٌ مُثّلت في النفس مِن أمَلي

فـــقد تَحـــيَّرفي إدراكها البصرُ

ألم يكن كلُّ هذا فهي حادثةٌ

أتى بها سبباً في حَتْفيَ القَدَرُ " [1]

وأمّـــا إذا أرادَ أن يتحـــدَّثَ عـــن نفـــسه مباشـــرة فإنـــه يقـــول : (أنـــا) ناســـباً الفعل إلـــى نفـــسه ، يقـــول: " والبكـــاءُ مـــن علامـــات المُحـــب ولكـــن يتفاضـــلون فيـــه ، فمـــنهم غزيـــرُ الـــدَّمع. هامـــلُ الـــشؤون ، تجيبُـــهُ عينُـــهُ ، وتَحـــضُرُه عَبْرَتُـــه إذا شـــاء . ومنهم جَمود العين ، عديم الدَمع ، وأنا منهم ". [٢]

وإذا أرادَ الاعتـــراف عـــن نفـــسه بـــشيء فإنـــه يقـــول : وإليـــك عنّـــي ، واخبِـــرُكَ عنّـــي. وأمّـــا رأيـــي فهـــذه العبـــارة تحمـــل معنـــى الاعتـــراف والإفـــصاح الـــصريح والمباشـــر مـــن بـــاثٍّ إلـــى متلـــقٍّ ، مـــن مؤلـــفٍ يَثِـــقُ بقارئـــه ويخبـــره عـــن نفسه ما يريـــد مـــن خـــلال امتطائـــه ضـــمير المـــتكلم، فهـــو النَّـــاطِقُ بحالـــه ، وآرائـــه ، وأســـراره ، ومكْنُوناتـــه النفـــسية . يقـــول: " وعنّـــي أخبِـــرُكَ : أنـــي أحببـــتُ فـــي صباي جاريةً لـــي شـــقراءَ الـــشعر، فمـــا استحـــسنتُ مـــن ذلـــك الوقـــت ســـوداء الـــشعر ، ولو أنـــه علـــى الـــشمس ، أو علـــى صـــورة الحُـــسن نفـــسه ، وإنـــي لأجـــد هـــذا فـــي أصل تركيبـــي مـــن ذلـــك الوقـــت ، ولا تـــؤاتيني نفـــسي علـــى ســـواه ولا تحـــبُّ غيـــرَه البتّـــة . وهـــذا العـــارضُ بعينـــه عَـــرَضَ لأبـــي رضـــي الله عنـــه ، وعلـــى ذلـــك جـــرى إلى أن وافاه أجلُه ".[٣]

ولمّـــا كـــان الـــضميرُ النّحـــويُّ لا يَحُـــلَّ إشـــكاليّة التطـــابق بـــين الـــسّاردِ والشخصيةِ مَوضـــوعَ الحـــديث والمؤلّـــف الـــذي يـــشهدُ اســـمه الموجـــودُ علـــى الغـــلاف فقد تَعْمَدُ إلى الاســـم العلـــم لإحـــداث هـــذا التطـــابق، ولكـــن فـــي كتـــاب الطـــوق فـــإنني أجـــدُ أنّ هـــذا الـــضمير هـــو العنـــصر الأساســـيُّ الـــذي ســـأعولُ عليـــه، وذلـــك انّ صاحبَ الكتـــاب قـــد أغفـــل اســـمه مستعيـــضاً بـــضمير المـــتكلم حـــين يَـــودُّ البـــوحَ عـــن نفسه، معلناً أنّ ما يـــودُّ قولـــه فـــي هـــذا الخبـــر هـــو نفـــسه دون ســـواه بعبـــارةٍ صـــريحةٍ

---

([1]) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص٢٥-٢٦,

([2]) المصدر نفسه ، ص ٢١.

([3]) المصدر نفسه ، ص ٣٧. ومنها أيضاً قوله مبدياً مذهبه : " ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة ، وكثير المشاهدة ، ومتمادى الأنس ، وهذا الذي يوشك أن يدوم ولا يحبك فيه مُرُّ الليالي ، فما دَخَلَ عسيراً ، وهذا مذهبي . ، ص ٣٣.- تابع نفس الهامش

واضحة هي : إليك عني ، وأخبِرُكَ عني . وذلك أنّ هذه الرّسالة لم تكن سيرة ذاتية مستقلة للمؤلّف وإنّما جاءت ملامح سيرَته على شكلِ اعترافات مبثوثة في ثنايا رسالته التي كتبها عن الحب بشكلٍ عام .

فمع أنَّ هذه الاعترافات كانت متبعثرة في مواضع عدة إلاّ أنها تحمل في طيَّاتها بعض ما اتسم به ابن حزم وكونَ شخصيَّته كالوفاء ، والعفة ، والحزمِ ، ورباطةِ الجأش على المعاصي ، والثقافة الواسعة ... الخ .(١)

ولكي يتمَّ التطابقُ ما علينا إلاّ أن ننظر فيما يرويه عن نفسه من أحداث توردُها المصادر التي ترجمت لابن حزم ، فهو يورد أخباراً عن أهله وأسرته وبلده ذكرَتها لنا المصادر التي ترجمت له، فهذه المرجعيات هي الوسيلةُ التي نتكئُ عليها ونستعين بها حتى نتوصل إلى إحداث التطابق الذي أضعفه إغفال الاسم في باطن الرِّسالة .

وأمّا أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربيّ المعافريّ الإشبيليّ فإنه استعان بضمير المتكلم راوياً لنا مسيرتَهَ العلمية ورحلته إلى المشرق، طلباً للعلم مَعَ والده الذي كان له دورٌ كبير في صقل شخصية العلمية، مما هيأه له من ظروف مناسبة منذ كان صبياً ، يقول: " وكان مِنْ حُسنِ قضاء الله أنّي كنت في عُنفوُان الشَّبَاب وَرَيّان الحَدَاثة ، وعند ريعان النّشأةِ ، رتّبَ لي أبي – رحمه اللّه – مُعَلماً لكتاب اللّه ، حتّى حَذَقتُ القرآن في العام التّاسع ، ثمّ قَرنَ بي ثلاثةً من المعلّمينَ ، أحدهم يضبَطِ القرآن بأحرفهِ السّبعةِ التي جَمعَها اللّه فيه، ونبّه الصّادق صلى اللّه عليه وسلم عليها في قوله : " أنزل القرآن على سبعة أحرُف " في تفصيل فيها، والثاني لعلم العربية، والثالث للتدريب في الحُسبان . " (٢)

---

( [1]) وإني لأطيل العجب من كل مَن يدّعي أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه الاخير ضرباً من الشهوة ، وأمّا أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً في حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حُب قطُّ إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً ، وأخذي معه في كل جدّ وهزل . وكذلك أنا في السلو والتوقّى ، فبما نسيت وداً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليخصني بالطعام ويشرقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به . ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم ، ولكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ، ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادني ، ولوع همّ ما ينفك يطرقني ، ولقد نغّصَ تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه .وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو،وسوف نتحدّث عنها عند تناولنا للهوية السِّير ذاتية.

( [2]) أبو بكر ،محمد بن عبد الله بن العربيّ المعافريّ الإشبيليّ ، المتوفى في ٥٤٣هجري ، تحقيق محمد السليماني ، دار الغرب الإسلامي ، ص ٦٩-٧٠ .

ولأنَّ الضمير لا يكفي وحده لإحداث التطابق أصبح لِزاماً علينا البحث عن الاسم العلم الذي يحيل عليه الضمير النّحوي ويدور حوله الحديث فهو الاسم العلم الذي يحمل صفاته الشخصية ويمنحه الهويّة الذاتية التي تميزه عمّن سواه .ومع أننا لم نعثر على هذا الاسم داخل سيرته العلمية التي دوَّنها لنا في مقدمة كتابه "قانون التأويل" إلاّ من خلال عبارة النّاسخ التي أوردها في مُفتَتَحِ سيرتهِ يقول : " قال الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربيّ المعافريّ رحمةُ الله عليه ."[١]

فمن خلال هذه العبارة يُنسَبُ هذا الكتاب إلى ابن العربيّ بشكل واضح وجلي بما عُرِفَ عن ابن العربيّ من صفات طُبِعَ عليها .وقد أكَّدَ محقّق الكتاب نسبته إلى ابن العربيّ فيقول : " لا شك أننا بإثباتنا لعنوان الكتاب ، قد أثبتنا نسبته إلى مؤلّفه ، ونزيد هذا بياناً فنقول : " لم أجد خلافاً بين العلماء في صحة نسبة هذا الكتاب إلى ابن العربيّ ، فقد أجمعوا على نسبته إليه ، سواء بالنقل المباشر عنه أم بالإشارة والتنويه به، وتتحقق صحة هذه النسبة بعدة أمور منها :

أ- وجود اسمهِ على جميع مخطوطات الكتاب .

ب- إحالتهُ فيه على أغلب كتبه .

ج- إحالتهُ في كتبهِ المختلفة – والمتفق على ثبوتها إليه – على قانون التأويل .

د- وردت نصوصٌ كثيرةٌ في "القانون" هي عينها الموجودة بكتبه الأخرى درج المؤلّف على إثباتها – لأهميتها – في أكثر من كتاب من كتبه .

و- إنَّ الناظر في كتب ابن العربيّ –رحمه الله – والمتتبعُ لمسائله في البحث لا يجد تفاوتاً بينها وبين "قانون التأويل" من حيث الأسلوبُ وطريقةُ العرض، والاعتماد على المصادر إلاّ بمقدار ما يتطلبه الموضوع البحوث ."[٢]

أما لسان الدين بن الخطيب فتتجلى فكرة التطابق عند بشكلٍ ظاهر وجليٍّ، إذ يقدّمُ ترجمتَه الذاتية التي سطَّرها في السِّفر الثاني عشر من كتابهِ (الإحاطة في أخبار غرناطة ) ، بضمير المتكلم ، وقبل أن يبدأ بخط ترجَمَته عَمَدَ إلى ذكر اسمه ولقبه "محمد بن عبد الله بن سعيد بن

---

([1]) أبو بكر بن العربيّ ، قانون التأويل ، ص ٦٥.

([2]) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٢٤- ٢٥.

عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السليماني . قُرطبيٌّ الأصل ، ثم طُليطليَّة ، ثم لوشِيُّه .ثم غَرناطيُّه . يكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين . "[١]

عُرفاً متواضَعًا عليه في الترجمات عند العرب إلاّ أنه يمنح الترجمة الذاتية عند الخطيب قوةً تُطلُ من ورائها اعتداد ابن الخطيب بنفسه وبمكانته فهو لم ينتظر أن يُترجمَ له أحد وإنّما دَوَّنها بنفسه واضعاً إياها في مصافٍّ تلك الدرر التي أودعها كتابه الإحاطة.

---

([1]) ابن الخطيب محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة *الخانجي* القاهرة ، المجلد الرابع ، ص ٤٣٩.

## المثياق السِّير ذاتي

إنَّ أهم ما تتميز به نظريةُ لوجون في السِّيرة الذاتية أنها نظريةٌ ( تعاقدية ) تستمدُّ خاصيتَّها الأساسية من المواصفات الصريحة أو الضمنية التي تَربطُ مؤلفي السِّيرة الذاتية ومؤلفاتهم بُقرّاء هذا الجنس .

ويقول لوجون أن الميثاق السِّير ذاتي هو المقياس الثاني الذي يجد نفسه مستدرجاً نحوه ليحدّدَ به طبيعة النصّ السِّير ذاتي، إذ يرى أنَّ السِّيرة الذاتية نوعٌ من الأدب مبنيٌ على الثقةِ بين المؤلّف والقارئ، وذلك من خلال التصريح بالنوايا السِّير ذاتية التي تتّخذ أشكالاً متعددة في العنوان وفي الإهداء وفي المقدمة وفي البيان الختامي أو حتى في الأحاديث الصحفية التي تتم في وقت النشر . (١)

ويرى لوجون أنَّ السِّيرة الذاتية هي في الآن نفسهِ نمطٌ من أنماط الكتابة مثلما هي نمطٌ من أنماط القراءة، ومن هنا تأتي أهمية العقدِ في كونه عقداً يُبرمه المؤلّف مع القارئ يتم بموجبه توجيه المتلقي إلى هدف محدد أثناء القراءة ف "فيما يخصُّ الرِّواية يندفع للتَّماهي مع تجربة خيالية ولكنه في السِّيرة مدفوعٌ بفضول معرفة حقيقة ولا متكلم هائب ، فإنَّ الهيبة فرعٌ من المخافة و فرعٌ من الحذر ، ومن حذر ،فقد عَقَلَه ، ومن خاف ، تكدَّر عيشه ، ولا تصحُّ مع هذا قريحة ينطلق عنها اللسان ، ويذكى بها الجنان ، فالنفسُ إذا مُنِعَت ما تشتهى ، ترى مُختَلِطَة ، وتصير كأنَّها بطوارق الخَبَل مُختَبِطَة ." (٢)

ولكي يُتمَّمَ ميثاقه السِّيري فإنه بدأ بذكر غايته من وراء تأليف هذا الكتاب، وهي غايةٌ انفردَ بها هو، إذ يُؤكّدُ أنَّه لا يهدف إلى الإطراف أو الإغرابِ أو التأديبِ أو النفع " وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكرَ خَبَرٍ يوصف ويأتي عليه نادرة مستطرفة ، أو مستغربة ، أو معنى يؤدي إلى تأدُّب وانتفاع ." (٣)

وإنَّما كان هدفهُ من وَضْع هذا الكتاب تقديم حُجَّة وبرهان على أنَّ ما رُمِيَ به من بطلان، يقول: " فلَعلَّك – أيُّها المتأمّل كتابنا – أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة

---

([1]) يُنظر لوجون ، أدب السِّيرة الذاتية في فرنسا ، ص ٢٩. والسِّيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ، ص ٣٨-٣٩.

([2]) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١.

([3]) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢.

المشهورة تجِده منصوصاً هُنا ، فتُعجِز واضعه : فليس إلاّ كما قدّمناه . اللَّهُمَّ إلاّ أن يكون حديثاً يؤدِّي إلى القيام بحجَّة صاحبه والاعتذار عنه من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فَنَطَقَ هَذَراً ، وساعد عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا على غائبٍ أو ميِّتٍ لم يُجرِ الجواب على نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لِعَرَضه." (١)

فمن خلال هذه الدوافع يتضح العقد السِّير ذاتي الذي كان يجيء في ثنايا الحكاية السِّير ذاتية بصورة الإلماح المقتضب ، إنَّه يعود ويظهر من جديد في نهاية الحكاية حين وَجَّه حديثه إلى القُرَّاء أهل الإنصافِ وذوي الألباب تحديداً: يقول: " ثُمَّ انصرفَ وَجْهُ اهتبِالِنا إلى وَضْع هذا الكتاب ، وهو لَعَمري بمنزلة الابْن الذي يُبْقِي ذِكْرَ أبيه في العالم ، لنُبَيِّن به عن أنفُسنا ما أُشكلَ على الجاهِل من مقالةِ سوءٍ في دَوْلَةٍ ، زَعَمَ الحاسِدون أنَّ منها كان سقوطُنا . ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَها لِمَا نرجوه من ثوابنا ، وَحَسَنَاتِهِ لبُعدِنا منها ونَزَاهتنا عنها . وإنَّما وَضَعْنا هذا الكتاب لمن أشكل عليه الأمْرُ من أهل الفضل والحقِّ ، المُحِبِّين لله فينا ، الوادِّين الخَيْرَ لنا ، ولا يزيد البُغاةُ إلاَّ طغياناً وَتَقْنيتاً . فنردُّ على أهْلِ الإنصاف وذوي الألباب : " إنَّكم أنتم المخاطَبون من الله ورسوله ! فعليكم اعتِمادُنا ، وإيَّاكم خاطَبْنا ، ولكم ما تكلَّفنا ! فلا عَمِيَ بكم عن المعرفة تحيُّدُكم عن المِنْهاج ؛ ولا شَنَآن لِتِرَةٍ سَلَفَت تحرِّفكم إلى نفثات الحاقدين ! والله يجعلنا في الجنَّة إخواناً ، كما جَعَلَنا على الخَيْر أعواناً ! "(٢) .إنَّ هذه " العودةُ على بدء تجعلُ من هذا الميثاق ميثاقاً دائرياً يحتضن الحكاية السِّير ذاتية ويحصرها بالتأويل الموجه لِيُسَهِّل قِراءتها وتفهمها " (٣)

.

وَيُعَدُّ ميثاق الأمير عبد الله ميثاقاً ملازماً للحكاية السِّير ذاتية، عَبَّرَ به عَن تصوُّرٍ ائتلافي متأصل في مشروعه السير ذاتي تلتحم خلاله الأحداث المروية التحاما عضويا ومباشرا بالرؤى والإيديولوجيات المبسوطة في العقد، والذي احتلَّ مرتبة الصَّدارة في الجزء الأول من تأمُّلاته، على سبيل التوطئة وتوجيه القُرَّاء في طَوْرِ بدايتها علاوةً عن إثباتها لمرجعية الحكي . (٤)

يمثل هذا النوع من المواثيق طورَ رُسوخ التصور الأجناسي الذي ظَنَّ البعض أنَّهُ لم يتجلَّ ولم تكتمل صورته فيه إلاَّ في زمن متأخِّرٍ نسبياً (في العصر الحديث) وذلك أنَّ هذا النوعَ مِنَ

(1) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله، ص ٢.
(2) بُلقّين ، عبد الله: مذكرات الأمير عبدالله ، ص ٢٠٠.
(3) الطريطر ، جليلة ، مُقوِّمات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، ص ٤٧٠.
(4) الطريطر ، جليلة ، مُقوِّمات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٤٦٧.

المواثيقِ يؤَكّدُ نيَّة المؤلّف، وأنّه يَوَدَّ أن يَضَعَ سيرتَه الذاتية بين دفّتَي كتابٍ يقدمُهُ للقارئ بصورةِ نصٍّ تتجسَّدُ فيه عناصر سِيَرِّية تمنحهُ هويةً أجناسية منذُ بدايتِه إلى مُنْتهاه .

فمن خلال هذا الميثاق السِّير ذاتي المتزامن والدائري نلحِقُ هذا الكتاب في باب أدب الذّات مبعدينه عن باب الأدب التخييلي .

وأمّا ابن حَزْم في الطوق فإنَّه منذ البداية يُعْلِنُ أنَّ هذا الكتاب رسالةٌ في الحبّ ومعانيه، يقول: " وكلفتني –أعزك الله – أن أصنِّف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزيِّداً ولا مُفَنِّنا، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظي وسعةُ باعي فيما أذكره ، فبدرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته ، فهذا من اللغو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلاّ فيما نرجو به رَحب المنقلب ، وحسن المآب غدا، وإن كان القاضي حُمام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال :" أجِمُّو النفوسَ بشيءٍ من الباطل ليكون عَوناً لها على الحق" . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضي : " من لم يحسن يتفتّى لم يحسن يتقرى ". وفي بعض الأثر : " أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد " .[١]

ولكن السؤالَ الذي يطلبُ الإجابة عنه هو : ما الأسباب التي تجعلنا نضعُ هذه الرِّسالة في دائرةِ أدب الذَّاتِ طالما أنَّ صاحِبَها نفى بهذه العبارات الوارِدةِ في المقدِّمةِ أن تكون سيرة؟ . صحيحٌ أنَّ هذا النصّ لم يكن سيرة بالمعنى المتعارَفِ عليه، وإنما يَضمُ في أعطافه اعترافاتٍ كثيرة عن صاحبه ذات عناصر سيرية تجعلنا نضمَّه إلى دائرةِ أدب الذَّات، فهذه الاعترافاتُ تحملُ صِيغةً ذاتيةً تجعلنا قادرين على رَسم صورة نتلمسُ من خلالها ملامحَ ذاتية لابن حزم الفقيه العالم ذي الجاهِ والنسب، ابن الوزير الذي عَشِقَ وأحب كغيره مِنَ البشر. فهذا الطوق أسَرَهُ كما أسَرَ غيره . فهو يعتَرِفُ بذلك دُونَ خَوْفٍ أو وجل مخاطباً القارئ بصراحةٍ تامة لبناء جسرٍ من التواصل دعائمه الثقة التي منحها إيَّاهُ بقوله إنَّه سينسِبُ ما عُرِضَ له إلى نفسه يقول : "وكفاني أني ذاكِرٌ لك ما عَرَضَ لي مما يشاكل ما نحوتُ نحوه، وناسبه إليّ." [٢]

فمن خلال هذا الاعترافِ المبدئيُّ يكمن العقدُ المبدئيُّ ؛ أي أنَّه سوف يُوردُ اعترافاتٍ عن أحوال مَرَّ بها وينسبُها إلى نفسه بعباراتٍ مخصوصة توضِّحُ أنَّ هذا الحديث أو الكلام

---

([1]) ابن حزم ، الطوق ، ص ٥.

([2]) المصدر نفسه ، ص ٦.

يَخصُّه هو، أي ابن حزم، دون غيره ممن يتحدَّث عنهم كقوله : إليك أيُّها المتلقي وعني أُخْبِـرُكَ أنَّ هذا الحدث يَخُصُّني أنا تحديدا ".

وأمّا ابن العربي فإنَّ من يقرأ افتتاحية قانون التأويل عنده يَجدُ نفسهُ أمام كتـاب في علوم القرآن كما أعلن صاحِبهُ منذ السطور الأولى " هذه رِسَالَةٌ مِـن المستَبْـصِرِ بنَقْـصِهِ ، المُستَقْصِرِ لنفسهِ، المضطرِّ إلى ربِّهِ ، المستغفِرِ لذنبِهِ ، إلـى جميـع الطّـالبينَ، والـرَّاغبينَ ، والسَّالكِينَ ، سبيل المهتَدِينَ . إنَّ مَنْ صَدَقتْ إليهِ رَغبَتُهُ ، واستمرّت عليه عزيمتُهُ فـي تحريـر مجموعٍ في علومِ القرآنِ ، يكونُ مِفتاحاً للبيانِ ولَجَّ عندَ التوقُّفِ عن ذلك في العتابِ ، وَطمَسَ في وَجهِ الإعتاب ، وَأغلَقَ إلى المعذِرَةِ كل باب" . (١)

ومَعَ هذا التصريح فإنَّه يُورْدُ تصريحاً آخر، هو : أنَّه سيوردُ في مقدَّمـة كتابـه هذا سيرَته في طلب العلم بشكل مختصر بعد أنْ أورَدَها في كتابٍ له ذَكَرَ اسـمه، ولكـنّ هـذا الكتاب فُقِدَ في حياته، يقول: " إنَّ الله سبحانه – له الحمد وله الشكر ، وبيده الخَيْرَ والشَّرُّ وَمِنْـهُ النَّفْعُ و الضُرُّ – يَسَّرَ لي طلب العِلْمِ على الوَجْهِ الذي كُنَّا رَتَّبْنَا بيَانَه في كتابِ " تَرْتِيـبُ الرِّحْلَـةِ للتَّرغِيب في المِلَّة " فلمَّا شَذ في مَعْرِضِ المقادير ، و ستَلَبَثُهُ الحوادثُ بما سَبَقَ في عِلْمِ الله مِـنَ التدبير ، رأينا أنْ نُجَرِّدَ منه ما سَلِمَ في الرِّقاعِ الموجودة ، معَ ما حضَرَ فـي الـذِّكْرِ ، ليكـونَ عُنْوَاناً لما جرى ، وتنبيهاً على فَضلِ مَنْ تَأوَّب ، وسِرّاً وَحُجَّةً لِمَنْ قال : قد تَعَدَّى مَن تَمَنَّـى أنْ يَكُونَ مِثْلَ مَنْ تَعَنَّى ، وَنَقْرِنُ به مَنْ نُكَتِ المعارفِ ، ما يقُومُ به مَائِلُ العُذْرِ ، ويتضح منـه مـا استُبهَمَ لكم من الأمر ، ونشِيرُ إلى المُمْكِنِ مِنْ " قانون التأويل لعلوم التنزيل " يُرْشِدُ المبتدئَ إلـى ضالة الطّلابِ ، وَيفْتَحُ على المُنتَهي ما أُرتِج من الأبوابِ ."(٢)

وكأنَّه يَوَدُّ أ يقول إنّ هذا العلم الذي أضعه بين يديكم لم يجئ إلاّ بَعْدَ جُهدٍ وعناءٍ وصـبرٍ ومثابرةٍ منذ شبابه حتى زَمن تأليف هذا الكتاب . فمن خلال هذه المقدِّمة السِّيَر ذاتية فإننا سنَّطلِعُ على جانب واحد من حياته، وهو الجانب العلمي، أمّا الجوانب الأخرى فهي مُغْفَلَةٌ، وذلك لأنَّه لم يكن يَوَدُّ أن يكتب سيرة ذاتية شاملة في هذا الكتاب تحديداً، وربما لو أننا عثرنـا علـى كتابـه ترتيب الرِّحلة الذي أشارَ إليه لَكُنَّا قد عرفنا عنه الكثير على لسانه هو لا مِنْ خلال غيـره ممـن ترجموا له .

---

([1]) أبو بكر بن العربي ، قانون التأويل ، ص ٦٥.

([2]) المصدر نفسه ، ص ٦٧-٦٨.

وأمّا الميثاق عند لسان الدين الخطيب فقد جاء مُتَزامناً مَعَ ترجمته متصدراً الصفحة الأولى مُفْصِحاً من خلاله عن رغبته في تدوين ترجمته الذاتية أسوةً بمن تَرْجم لهم في كتابه يقول: " فإني لمَّا فَرَغْتُ من تأليفِ هذا الكتاب ، الذي حمل عليه فضل النشاط ، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط ، والتفت إليه ، فراقني منه صِوان دُرَر ، ومَطْلَع غُرر ، قد تخلّدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم ، وانتشرت مفاخرهم ، بعد انطواءِ زمانهم ، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب ، ولباس تلك الأثواب ، وقنعتُ باجتماع الشَّمل بهم ، ولو في كتاب . وحرصت على أن أنالَ منهم قُرباً ، وأخذْتُ من أعقابهم أدباً وحباً وكما قال ، ساقي القوم آخرهم شرباً . فأجريت نفسي مجراهم في التَّعريف ، وحذوت بها حذوهم ، في باب النَّسب والتَّصريف ، بقصد التشريف . والله لا يعدمني وإيَّاهم واقفاً يترحَّم ، وركاب الاستغفار بمَنْكَبيه يَزْحَم ، عندما ارتفعت وظايف الأعمال ، وانقطعت من التَّكَسُّبات حبال الآمال, ولم يبق إلاّ رحمة الله ، التي تَنْتاش النفوس وتخلِّصها ، وتعينها بمِيْسَم السَّعادة وتخصصها .جعلنا الله ممن حَسُن ذكره ، ووقف على التماس ما لديه فكره ، بمنِّه".[١]

وفي الختام يُؤكّدُ عَقْدَهُ بعباراتٍ تومئُ إلى أنَّ كُلَّ ما سبق هو عنه تحديداً ذاكراً سَنةَ مولِده من خلال كلمة مَوْلدي، فياء المتكلم تُطوِّق الترجمة بميثاقٍ دائري محكم الإغلاق، يقول: " هذا ما حَضَرني من المنثور والمنظوم ، وحظَّه عندي في الإفادة حظٌّ ضعيف ، وغرضه كما شاءَ الله سَخِيف ، لكن الله بعباده لطيف ، سبحانه لا إله إلا هو.

مولدي : في الخامس والعشرين لرجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وكم بالحيّ ممن ذكرته، ألحق بالميت ، وبالقبر قد استبدل من البيت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ."[٢]

---

([1]) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ، الجزء الرابع، ص ٤٣٨ – ٤٣٩.

([2]) المصدر نفسه ص ٦٣٤.

# الفصل الثاني

# المرافقات النصية ودلالة العتبات

# المرافقات النصية و دلالة العتبات

## مدخل نظري:

يقصد بالعتبات " المداخل التي تجعل المتلقي يمسك بالخيوط الأولية و الأساسية للعمل المعروض... وعبرها نقتحم أغوار النص و فضاءه الرمزي والدلالي" [(١)]. وهي العناصر المحيطة بالنص والتي تشكل حسب رأي جنيت العتبات[(٢)] التي تسيجه و تسميه و تحميه, وتدافع عنه , وتميزه عن غيره , وتعين موقعه في جنسه, وتحث القارئ على اقتنائه[(٣)] وتكمن أهمية النص المرافق في أنه يمتلك ما تسميه فلسفة اللغة بالقوة التأكيدية كأن ينقل معلومة ( مثل اسم المؤلف , وتاريخ النشر) , أو غاية , أو شرحا ( عن عمل التمهيد أو اقرارا مثل انتحال اسم أو عنوان ) , أوالتزاما ( يحدد به الجنس الأدبي مثل :_

السيرة الذاتية التي تفترض عقدا من المصداقية، و كأنها أي: المرافقات النصية تقوم بعملية تنظيم العلاقة بين النص و القارئ بوصفه خطابا غير تابع بصورة أساسية و مساعدا مخصصا لخدمة شيء آخر يشكل سبب وجوده الذي هو النص و تخصص هذه التبعية وظيفته بالتحديد[(٤)]

ويلحق بالنص من عنوانات أساسية وفرعية وعنوانات داخلية, و المقدمات, والاستهلالات والملحقات أو الذيول , والتنبيهات , اسم المؤلف الصور المثبتة على الأغلفة الملاحظات

---

[1]ــ حمداوي , جميل , السيميوطيقا و العنونة , مجلة عالم الفكر بالكويت , المجلد ٢٥ , العدد ٣, لسنة ١٩٩٧م, ص ١٠٢.

٢)لقد أفرد جينيت كتابا أسماه ( عتبات ) باللغة الفرنسية , ويطلق عليها أكثر من تسمية فهي: مرافقات نصية , أو موازيات نصية , أو محيط النص أو عتبات ... الخ, ينظر عتبات جيرار جنيت من النص ألى المناص , عبدالحق بالعابد , الدار العربية للعلوم ناشرون , لبنان , الطبعة الأولى , ٢٠٠٨، ص ٤١ وما بعدها . وينظر ايضا من البنيوية الى الشعرية رولان بارت, و جيرار جنيت , ترجمة غسان السيد , دار نينوى للدراسات والنشر سوريا دمشق , الطبعة الاولى _ ٢٠٠١ , ص ٩٥. وينظر ايضا جيرار جنيت نحو شعرية منفتحة , لريستسن مونتالي , ترجمة وائل بركات , دار الرحاب وزارة الاعلام , دمشق ط ١ , ٢٠٠١ , ص ١٠٩_١١١ .

[3] جنيت , جيرار , خطاب الحكاية , ص ١٠٥.

[4] مونتالي , لريست , جيرارجنيت , نحو شعرية منفتحة , ص ١١٠_١١١, لقد أجريت بعضا من التعديلات في صلب هذا النص . ينظر أيضا هياس , القصيدة السير الذاتية , ص ٩٨

الهامشية , و الحواشي, الإهداءات[١] , أي كل ما يحيط بالنص من الخارج ويسيجه و يسهم في إظهار الميزة الاساسية للعمل المعروض, وذلك لأنها تتغلغل إلى أعماق النص الأدبي و فضاءاته الرمزية المتشابكة , تبحث في العلاقة بين العمل نفسه وشكل ظهوره إلى المتلقي بكل تمظهراته وعلاقاته المختلفة [٢] فهي عبارة عن منجم من الأسئلة يحتاج إلى أجوبة [٣] تتمخض عنها " أنظمة إشارية ومعرفية لا تقلّ أهمية عن المتن الذي يحفزه أو يحيط به , كما أنها تلعب دورا مهما في نوعية القراءة وتوجيها [٤].

وأما سعيد يقطين، فإنه يعرّف المرافقات النصية بقوله :" إن المناصة هي عملية التفاعل ذاتها و طرفاها الرئيسان هو النص , المناص, وتتحدد العلاقة بينهما من خلال مجيء المناص كبنية نصية مستقلة و متكاملة بذاتها , وهي تأتي مجاوره لبنية النص الأصل كشاهد ترتبط بينهما نقطة التفسير، أو شغلها لفضاء واحد في الصفحة عن طريق التجاوز، أن تنتهي بنية النص الأصل ويكون الرجوع إلى السطر لنجد انفسنا أمام بنية نصية جديدة لا علاقة لها بالأولى إلا من خلال البحث و التأمل [٥] .

1 ينظر السيميوطيقا و العنونة , ص ١٠٥ .

2 ينظر رولان بارت و جيرار جينيت , من البنيوية الى الشعرية , ص ٧٥.

3 يقول جينيت " ان المحقية النصية _ أي العتبات هي كما نرى منجم من الأسئلة بلا أجوبة" . جينيت طروس الأدب على الأدب , ضمن كتاب آفاق التناصية المفهوم و المنظور , مجموعه بحوث , ترجمة محمد خيري البقاعي ,الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , ١٩٩٨م , ص ١٣٧ .

4 بلال , عبد الرازق , مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم تقييم إدريس نقودي , أفريقيا الشرق المغرب , ٢٠٠٠, ص ١٦ .

5 يقطين سعيد , انفتاح النص الروائي ( النص _ السياق ) , المركز الثقافي العربي ط ١ , ١٩٩٨ , ص ١١١ . يقصد بالمناص عند سعيد يقطين في النص أعلاه المرافقات النصية وذلك لأنه يسميها بالمناص , ينظر المصدر السابق

وقبل ان أختم هذا المدخل أود أن أنوه إلى قضية مهمة وهي : أن النقد القديم لم يول اهتماما للمرافقات النصية ولكن مع تطور المناهج النقدية وطرق البحث الأدبي بدأت الدراسات النقدية الحديثة تركز على جوانب العمل الأدبي و علاقاته الداخلية و الخارجية وكل ما يحيط به من حقول معرفية أهمها المرافقات النصية , فمع تطور هذه المناهج و الدراسات تمتلكنا الرغبة بإعادة النظر في النصوص التراثية وفق هذه المستجدات لنضعها تحت التجربة مرة أخرى لنكتشف فيها جوانب إبداعية جديدة .

ومن الدراسات التي أولت هذه الحقول المعرفية عناية خاصة الدراسات التي تناولت النصوص التراثية بالتحقيق و النشر فقط، فالمحقق لأي نص تراثي " ملزم بالعناية الشاملة بالنص بدءا من اسم صاحبه و انتهاء بصنع الفهارس , ووضع الاستدراكات , والتذييلات , وما إلى ذلك , لكن الدراسات الحديثة وبفضل الاستفادة مما تحقق من نتائج هامة في مجال الأبحاث اللسانية والسيميائية , وتحليل الخطاب أولت العتبات عناية خاصة تجعل منها خطابا قائما بذاته له قوانينه التي تحكمه [١] .

وعلى ما تقدم فإن هذه الدراسة سوف تستعين بما قدمه محقق هذه النصوص لتناول المرافقات النصية التالية :

**١_ العنوان .**

**٢_ اسم المؤلف .**

**٣_ المقدمة**

**4_ دوافع الكتابة**

وذلك لأنها تتناسب , وطبيعة النصوص التراثية التي تتناولها ههنا دون سواه من العتبات التي يمكن أن تحفل بها النصوص الحديثة كالأغلفة و الصور مثلا ..... الخ .

---

[1] بلال, عبد الرزاق: مدخل الى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم , ص ١٦ .

## العنوان :_

يعد العنوان مكونا أساسيا من مكونات النص لذا فقد حظي باهتمام واســـع بوصـــفه عتبة نصية في الدراسات النقدية الحديثة , ولقد صار معروفا اليوم في النقد الحديث ومنذ " نـــشأة الشكلية و البنيوية وعلم النص و العلاماتية أن تحليل العنوان له أهمية بالغة لما له من حيث هـــو نص صغير من وظائف شكلية جمالية ودلالية تعد مدخلا لنص كبير , كثيرا ما يشبهونه بالجـــسد رأسه هو العنوان [١] . لقد أعطت السيميوطيقيا أهمية كبرى للعنوان فهم يعتبرونـــه علامـــة أو علامات لغوية مما يعطيه دورا علاميا مهما , و دلاليا اساسيا بنسبته إلى النص الـــذي يتـــصدره ويتوجه [٢]. وهو ما يرونه مفتاحا أساسيا يتسلح به المحلل للولوج الى أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها ويستطيع العنوان أن يقوم بتفكيك النص من أجل تركيبه , عبر استكناه بنياتـــه الدلالية والرمزية وأن يضيء لنا في بداية الأمر ما أشكل من النص وغمض . وهو مفتاح تقنـــي يجس به السيمولوجي نبض النص وتجاعيده وترسباته البنيويـــة وتضاريـــسه التركيبيـــة علـــى المستويين الدلالي والرمزي[٣].

ويعرف لوي هويك [٤] العنوان في كتابه " سمة العنوان " بأنـــه :" مجموعة العلامات اللسانية , من كلمات وجمل وحتى نصوص , قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه , وتشير لمحتواه الكلي , ولتجذب جمهوره المستهدف . "[٥] إن هذا التعريف يحدد طبيعة العنوان فهو : رسالة لغوية من حيث هو علامة لسانية , ويحدد وظائفه من حيث هو مادة كلامية وأدبية , أو نص صغير يظهر على رأس نص ما , قصد تعيينه , أو تحديد مضمونه أو جذب جمهوره المستهدف وإغرائه به . [٦] وتعد وظائف العنوان من المباحث الأكثر تعقيدا في علم العنونة, لذا فقد اتجه بعض الباحثين الى تحديدها متخذين من الوظائف اللغوية التواصلية التي قال بها رومان

---

[1] المطري , محمد الهادي , شعرية عنوان كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق , مجلة عالم الفكـــر الكويت , المجلد ٢٨, العدد ١ , لسنة ١٩٩٩, ص ٤٥٥ .

[2] المطري , محمد الهادي , مرجع سابق، ٤٥٥ .

[3] السيميوطيقا والعنونة , ص٩٦

[4] لوي هويك , من أهم مؤسسي علم العنوان الحديث .

[5] بلعابد , عبد الحق , عتبات ( جيرار جينيت من النص الى المناص ) , الدار العربية للعـــولم ناشـــرون , الجزائر, الطبعة الاولى ,٢٠٠٨ , ص ٦٧ .

[6] بتصرف المصدر نفسه , ص ٧٤ .

ياكبسون في كتابه قضايا الشعرية [١] سبيلا للمقاربة لينفتح الباب على مصراعيه أمام الباحثين للبحث فيها وتحديدها [٢]

فقد تبين للباحثين الذين اتخذوا من وظائف اللغة عند ياكبسون أن للعنوان وظيفة انفعالية , ومرجعية , وانتباهية , وجمالية وميتالغوية. وقد اتسعت دائرة التعميمات النظرية التي طالت هذه الوظائف، فها هو غريفل يحددها في:

١. **تسمية النص.** ٢. **تعيين مضمونه.** ٣. **وضعه في القسمة أو الاعتبارية.** [٣]

وأما تحديدات هويك لهذه الوظائف فقد أودعها في تعريفه السابق للعنوان الذي يضم ثلاث وظائف هي:

١. **تعيين النص.** ٢. **تحديد مضمونه الشامل.** ٣. **جذب جمهوره المستهدف.** [٤]

وأما ميتيرون فإنه أضاف إلى الوظيفة التعيينية وظيفتين هما: الوظيفة الإغرائية أوالتحريضية، والوظيفة الأيدلوجية.[٥] وأما جينيت، فقد جعل التعميم الوظيفي منطلقه في تحليل هذه الوظائف ومناقشتها، حيث يرى أن الوظائف الثلاث المحددة للعنوان: التعيين ــ تحديد المضمون، وإغراء الجمهور، لا يوجد ضرورة مُلحة لأن تكون كلها في العنوان مرة واحدة، ويرى أن الوظيفة الأولى تُعد ضرورية وواجبة الحضور في أي عنوان، وأما الوظيفتان الأخريان فهما اختياريتان.[٦]

وبعد أن فصل جنيت في وظائف العنوان تاريخيا واشتغالا وإجراءً فإنه يقترح لها نموذجا يضم وظائف أربعا أساسية وهي:

---

[1] ينظر حول وظائف اللغة او عن خطاطة جهاز الكلام الستة التي تصورها رومان جاكبسون في كتابه قضايا الشعرية ترجمة محمد الولي ومبارك حنون , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء ط ١ ,١٩٨٨ .ص ٢٤ _٣٣ .

[2] بلعابد , عبد الحق , عتبات ، ص ٧٣- ٧٤.

[3] بلعابد , عبد الحق , عتبات ، ص ٧٤

[4] بلعابد , عبد الحق , عتبات ، ص ٧٤

[5] بلعابد , عبد الحق , عتبات ، ص ٧٤.

[6] بلعابد , عبد الحق , عتبات ، ص٧٤-٧٥

**١. الوظيفة التعيينية. ٢. الوظيفة الوصفية.**

**٣. الوظيفة الإيحائية. ٤. الوظيفة الاغرائية.** [١]

وأما صلاح فصل فإنه يرى أن العنوان له أهمية بارزة في تحديد النص الأدبي " فعن طريق العنوان تتجلى جوانب أساسية أو مجموعة من الدلالات المركزية للنص الأدبي... ويصبح الشروع في تحليل العنوان أساسيا عندما يتعلق الأمر باعتباره عنصرا بنيويا يقوم بوظيفة جمالية محددة مع النص أو في مواجهته أحيانا." [٢]

وأما علاقة العنوان بالنص دلاليا فقد أوضحها صلاح فضل عندما أشار إلى أن العنوان قد يحمل دلالة ذاتية مباشرة تحيل إلى شخصية أو شخصيات محورية في النص كما نرى مثلا في ( دون كيشوت والحرافيش)، أو إلى مكان يشمل ساحة هامة محورية في فضاء النص مثل ( زقاق المدق).

أو إلى أحداث تمثل تحديد الطابع الفكري أو الأيدلوجي للنص مثل (الحرب والسلام). كما يمكن أن يقوم العنوان بدور الرمز الاستعاري المكثف لدلالات النص مثل ( شجر الليل)، أو يشير إلى أساطير موظفة في النص مثل ( عوليس).

ويرى صلاح فضل أن العنوان قد يشير إلى أمر غائب في النص، أو عليه فإن التقابل بينهما يمكن أن يصبح هو البنية المولدة للدلالة والجديرة بأولية التحليل. [٣]

بهذا الشكل من التعالق بين العنوان والنص تتخذ العلاقة بينهما صيغة التوازي النصي " فلكل منهما نصيته الخاصة وإن دخلت عناصر من إحداهما في بناء نصية الآخر، بحسب تأويلات المتلقي للاثنين...فاللغة في العمل لأدبي تمحو كل أثر للمرسل ومقاصده وتكفي

---

[1] بلعابد , عبد الحق , عتبات ، ص٧٥-٨٩

[2] فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للدراسات والنشر ط١، ١٩٩٦، ص ٣٠٣.

[3] ينظر: فضل، صلاح، مرجع سابقص ٣٠٤.

على ذاتها منتظرة منتجها الفعلي المستقبل الذي سوف تتوقف إنتاجيته الدّلالية على فاعلية تأويله "[١]

ونظرا لأهمية العنوان بوصفه نصا موازيا " فقد كان وما يزال من المواقع الحساسة التي يقف عندها المؤلفون كثيرا قبل ان يختاروا عناوين نصوصهم , إلا انه خاضع بطريقة أو بأخرى إلى معايير معينة في الاختبار "[٢].

## التبيان على الحادثة الكائنة لدولة بني زيري في غرناطة.

لقد قام محقق كتاب التبيان ليفي بروفنسال باستبدال العنوان الأصلي وهو :"التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة " لعنوان جديد هو مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة ....." ونشره تحت هذا العنوان دون أن يذكر لنا سبب هذا الاختيار ولماذا خالف الأصل وما أثبتته المصادر القديمة من هذه التسمية مع علمه بها وإشارته لها في مقدمته الموجزة التي صدّره بها .

ففي كتاب "المرقبة العليا" وهو مصنف في مراتب قضاة الأندلس لصاحبه ابن الحسن النّباهي إشارة صريحة لهذا العنوان , وذلك في معرض حديثه عن قاضي يدعى أبا الإصبع بن سهل وهو من القضاة بغرناطة أيام دولة الصّناهجة ... استقضي بغرناطة وتوفي مصروفا عن ذلك يوم الجمعة ,ودفن في يوم السبت الخامس من محرم سنة ٤٨٦ ه, ومن الكتاب المسمى بالتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة , تصنيف أميرها عبد الله بن بُلُقّين بن باديس بن حبوس , وقد تكلم في أمر المرابطين , فقال ما معناه إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لما استقر بسبتة يروم عبور البحر برسم الجهاد في الأندلس وجه إليه الأمير عبد الله المتقدم الذكر قاضيه ابن سهل رسولا في معرض الهناء له , والتلقي بالرحب والإعلام عن الأمير الذي أرسله بالمسارعة إلى ما ذهب إليه في جهاده ... إلخ" [٣]

---

[1] الجزار ,فكري: وسيميو طيقا الإتصال الأدبي ,الهيئة المصرية العامة للكتاب ,١٩٩٨ م, ص ٣١.

[2] شعرية كتاب الساق على الساق , ص٤٥٧.

[3] إن لهذا النص تكملة طويلة نسبيا لمن يرغب في الإطلاع يعود إلى كتاب أبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النّباهي المالقي الأندلسي , تاريخ قضاة الاندلس كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ,نشر ليفي بروفنسال, دار الكتاب المصري , القاهرة ١٩٤٨ م, ص٩٧.

إن هذه الفقرة تحمل في أعطافها إشارة واضحة وصريحة لعنوان الكتاب كاملا دون أي نقص أو شك يمكن أن يقع في النفس مؤكدا ذلك عن طريق نسبته إلى صاحبه الذي ألفه من جهة واعتماده عليه في أخذه المعلومات اللازمة له عمن كان يتحدث عنه من القضاة الذين عاشوا في عصر صاحب هذا الكتاب من جهة أخرى . ومما تدل عليه هذه الفقرة أيضا أن هذا الكتاب عرف في أزمان لاحقة لتأليفه وعرفه الناس وأهل التأليف حتى إنهم اتكئوا عليه وعدوه مصدرا مهما يستقون منه معلوماتهم حول بعض الشخصيات أو الأحداث , وهذا مما يزيد اليقين في النفس ويطرد الشك حول صحة العنوان ونسبته إلى صاحبه , على الرغم من وجود خرم في بداية الكتاب مقداره صفحة كاملة من المحفوظ الأصل وغياب ذكره _أي العنوان _ من كافة أجزاء الكتاب .

فهذا الخرم يمكن أن يرجح كفّة اليقين أيضا فربما أورد الأمير عبد الله عنوان هذا الكتاب في هذه الصفحة المفقودة تحديدا على عادة الكتّاب القدماء الذين كانوا يشيرون إلى عنواناتهم إما في بداية النص أو في نهايته "لأن الكتب في ذلك الوقت عبارة عن لفافات ورسائل مختومة يكون فيها العنوان عبارة عن ملصقة تلصق بهذه اللفافة مثبتة
بزر, فكان العنوان يعرف إما من بداية النص أو نهايته, حيث كانت المخطوطات قبل ظهور الطباعة لا تحمل صفحة العنوان , لهذا يبحث عن العنوان في نهاية المخطوط مع اسم الناسخ وتاريخ نسخه "[١]

إن هذا النوع من النهج يعلل لنا غياب ذكر عنوان الكتاب في داخله ويعلل لنا ايضا من أين عرف الكتّاب والمؤرخون القدماء عنوان هذا الكتاب مع وجود مسافة زمنية قد تصل إلى عدة قرون ومثل ذلك ما رأيناه عند النباهي الذي عاش في القرن الثامن وهو متأخر عن الأمير عبد الله الذي عاش في زمن سابق عليه بحوالي ثلاثة قرون ويزيد.

مع هذه المعطيات وعدم ذكر العنوان في نهاية الكتاب يرجح قولنا السابق أن الأمير عبد الله قد أورد عنوان كتابه في بدايته وتحديدا هذه الورقة المفقودة .

ولنعد الآن إلى سؤالنا الذي سألنا به أنفسنا في بداية حديثنا وهو:

---

[1] مفقودة.

ما هو السبب الذي دفع ليفي بروفنسال إلى استبدال عنوان الكتاب بعنوان آخر ؟ إن هذا السؤال يفتح لنا باب الحديث عن علاقة هذا العنوان بموضوع الكتاب ,"وهو عنوان يصلنا وصلا مباشرا بحدث تاريخي قام به أشخاص معروفون في مكان معروف"[١]

فالقارئ لهذا العنوان حتما سيضعه ضمن المؤلفات التاريخية في ظل غياب الذات المتمثل بضمير المتكلم (أنا) واختفاء المؤلف ولا يتراءى لنا إلا في صورة سلطة معرفية تروم توضيح حادثة غامضة وإظهار ما خفي منها .[٢]

ولعل هذين السببين هما اللذان دفعا ليفي بروفنسال إلى تغيير العنوان الأصلي ونشره تحت مذكرات الأمير عبد الله .وهناك سبب ثالث أعتقد انه هو الأهم , وهو مادة هذا الكتاب التي تدور جلها حول وقائع تاريخية لمجموعة من الناس كان لهم تاريخ معروف في مكان وزمان معروفين , وهو ما ينطوي عليه موضوع المذكرات , إذ هو "تاريخ الفئات الاجتماعية والتاريخية التي إليها ينتمي الفرد ... الذي يسرد أحداثا كان شاهدا عليها أو فاعلا فيها "[٣]

وقد ذهب عبد الرحمن الفاسي هذا المذهب إذ رأى أنّ نشر ليفي بروفنسال كتاب التبيان سنة ١٩٤٨م باسم مذكرات الأمير عبد الله مشروحة بأنها هي كتاب التبيان يعتبر إطلاقا موفِقا , لأنه يطابق مطابقة تامة ما يعرف في الاصطلاح الحديث بالمذكرات فهو يسجل أحداثا شارك في صنعها وفي بعضها ,وهو ما زال تحت سورة تأثيرها في نفسه , كما جسد نفسه اعترافاته ببعض ما نسب إليه , وذلك من أهم ميزات المذكرات التي تفترق بها عن كتب السّيرة الذاتية كسيرة ابن خلدون وابن الخطيب وأسامة بن منقذ وغيرهم من المشارقة والمغاربة "[٤]

---

[1] القاضي , محمد, كتاب التبيان لعبد الله بن بلقين مذكرات أم سيرة ذاتية ؟, ضمن التراث الأندلسي في الثقافة العربية والإسلامية , منشورات مركز الدراسات والابحاث الإقتصادية والاجتماعية ,١٩٩١ م, ص ٣٨ .

[2] بتصرف: القاضي ,كتاب التبيان لعبد الله بن بلقين مذكرات أم سيرة ذاتية , ص٣٧.

[3] المصدر نفسه , ص٣٦ .

[4] الفاسي, عبد الرحمن , عبد الله بن بلقين الزيري صاحب غرناطة وكتابه عن دولة قومه , محاضرات الأكاديمية – المغرب سلسلة دراسات ومحاضرات ١٩٨٣_١٩٨٧ م, مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ١٩٨٨م,ص ١٦١. نقلا عن محمد القاضي السابق ,ص ٣٧.

ولكن المتأمل لهذا الكتاب يدرك خلاف ما ذهب إليه الفاسي ,ففي داخلــه إشــارات يذكرها الأمير عبد الله أنه يقصد إلى وصف الأحداث على نحو مخصوص ,اذ هو يصور الوجه الحقيقي للوقائع الباطنة فهو يقول " ليس كل الناس علم سّر الأمر الذي نصفه نحن "[١]

فإن غاية الأمير عبد الله هو كشف الحقيقة المحجوبة عن الناس عن ظروف دولتــه وأيام ولايته وما مر به على سبيل الحقيقة والصدق ,ولذا فقد نهج منهج السرد التاريخي للأحداث الذي كشف عنه من خلال حديثه عن منهجه في كتابه هذا إذ يقول :"وإذا أوتينا على ذكر جمــل من أحوال الأندلس الحادثة فيها , المشهور خبرها حسبما استفاض ,وتركنا وصف الاختلافات إذ يوجد الحق في طرف واحد ,ولم يكن منها ما طولع بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثــر مــن إشــاعة خبر, ذكرنا منه ما يقاس في العقل , وحذفنا منه الإكثار والمشتبهات . وإنه ,متى أتينا على ذكــر خبر حادث في دولتنا مما حاولناه أو شاهدناه أطنبنا في وصفه ,وقتلناه علما إلى آخره, وأخبرنــا بسره عن جهره , وبأرق الأسباب فيه . والإطناب فيما يحاول الإنسان أبلغ وأنعت مــن وصــف المشاهدة لغير ما يخصه ,كما أن وصف المشاهدة ,وإن كان لا نعنيه ,أبلغ من ذكر المــستفاض الذي لم يوقف على حقيقته ؛ فإنما يذكر منه ما يقبله العقل ,ثم يجتري وأضفه على أن يضع فيــه من عقله دون الأغلب عليه عند العامة ؛ فيصير مكذبا .

ولهذا ما اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيرا من الأخبار عنهــا , واقتــصرنا على الإطناب فيما يخصنا منها , مما حاولناه أو رأيناه عيانا . والحقيقة من الخبر عــون كبيــر على ما يروم الإنسان من صفحة في منظوم أو منثور , كالمادح أو الذام ؛ فإنه إذا وجــد إلــى المقال سبيلا , أطنب وأبلغ , وان كانت بعض زيادة , فإنها لا تمكن إلا في الأغلــب والأكثــر , ويكون في ذكر الأمرين مصدقا لمعرفة الناس به , ولأن كتابنا لم يكن مبنيا إلا علــى وصــف مملكتنا خاصة ,"والحديث ذو شجون "؛ فلا بد من ذكر جمل من غيرها عند الحاجة إلى وصــفه أو ضرب مثل به , تزيينا للكلام وإقامة للبرهان ودورانا على الحقيقة ."[٢]

[1] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله (الصفحة مفقودة).

[2] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص٨٢-٨٣

فالقصد من وراء التأليف حتّم على الأمير عبد الله منهجه وطريقته في عرض الأحداث , فهو يود كشف الحقيقة ,ولذا فقد كان عنوان كتابه "النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص"(١) .

فالتبيان مصدر يحمل معنى الكشف والإيضاح ,مع قوة الحجة والبيان ,(٢) اختاره الأمير عبد الله ليهدي به ثورة نفسه ,لما له من قوة تستطيع أن تقدم للمتلقي وللتاريخ وعدا ذاتيا بكشف الحقيقة وقول الصدق , وعقدا سيريا يتمثل في رواية حياته الشخصية , وما جرى له من أحداث ذاتية في زمن ولايته . وبما أن التبيان كتاب "غير مشكوك في نسبته إلى صاحبه ,أو في تطابق الكاتب والرّاوي والشخصية الرئيسية فيه فقد سعى صاحبه إلى إنزال كتابه منزلة البوح والاعتراف مخاطبا أصحاب العقول والألباب وأهل الإنصاف في كل زمان"(٣)

فالذات غائبة في ظاهرة العنوان , وكامنة وراءه تستهدي شعلة الحقّ لتدفع عن نفسها ضيما يكشفه البوح والتبيان .

---

[1] حمداوي, جميل: السيموطيقا والعنونة , ص١٠٩

[2] "والتبيان :مصدر , وهو شاذ للأن المصادر أنما تجيئ على التفعال , بفتح التاء مثال التّذكار والتكرار والتّوكاف ,ولم يجئ بالكسر غلا حرفان وهما التبيان والتلقاء . ومنه حديث آدم وموسى , على نبينا محمد وعليهما الصلاة والسلام :أعطالك الله التوراة فيها تبيان كل شيء أي كشفه وإيضاحه، وهو مصدر قليل لأن مصادر أمثاله بالفتح، وقوله عز وجل: وهو في الخصام غير مبين، يريد النساء أي الأنثى لا تكاد تستوفي الحجة ولا تبين، وقيل في التفسير إن المرأة لا تكاد تحتج بحجة إلا عليها، وقد قيل: إنه يعني به الأصنام، والأول أجود ". لسان العرب مادة بين، الثالث عشر، ص ٦٧.

[3] القاضي , محمد, مذكرات الأمير عبد الله مذكرات أم سيرة ذاتية, ص ٣٨.

## طوق الحمامة في الألفة والألاف :

لقد وسم ابن حزم رسالته بطوق الحمامة في الألفة والألاف, ترى لماذا اختار هذه العنونة ,وما القصد من ورائها ؟

يقول الثعالبي في كتابه ثمار القلوب :" طوق الحمامة يضرب مثلا لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم ."(١) ولكن إحسان عبّاس ينفي هذه القضية من وراء هذه التسمية معللا ذلك بقوله إن:" من درس أحوال الحب في الكتاب يجد أن معنى الدوام ليس من الأمور التي تلازم الحب , لا من حيث النظرية ولا من حيث التجربة"(٢)

ويأتي الردّ على هذا الرأي من داخل كتاب ابن حزم نفسه وذلك أن هذا القول ربما ينطبق على بعض ضروب الحب دون أخرى , مثل ذلك الحب الحقيقي الذي يستثنى من هذا القول , فهو يبقى متمكنا من النفوس إلى أن تبقى ."ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضروب : فأفضلها محبة المتحابّين في الله عز وجل , إما لاجتهاد في العمل ,وإما لاتفاق في أصل النّحلة والمذهب , وإما لفضل علم يمنحه الإنسان. ومحبة القرابة ,ومحبة الألفة والاشتراك في الطالب ,ومحبة التصاحب والمعرفة ,ومحبة البّر يضعه المرء عند أخيه , ومحبة الطمع في جاه المحبوب , ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره , ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر , ومحبة العشق التي لا ميلة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ,زائدة بزيادتها ,وناقصة بنقصانها , متأكدة بدنّوها , فاترة ببعدها ,حاشا محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السالي برغمه,وذا السّن المتناهية, إذا ذكرته تذكّر، وارتاح وصبا , واعتاده الطرب ,واهتاج له الحنين ."(٣)

إن هذا النص يشجعني على القول إن ابن حزم أراد هذا المعنى (الإستدامة والبقاء), حين اختار هذه التسمية, طوق الحمامة يضرب مثلا لدوام الحال والاستمرار عند العرب في

---

[1] الثعالبي, أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (من ٣٥٠-٤٢٩ ه),تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ,دار المعارف ,ص ٤٦٥.

[2] ابن حزم, أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي , رسائل ابن حزم ,تحقيق إحسان عباس , المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ,١٩٨٠ م, ص ٣٦.

[3] ابن حزم, أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي, مرجع سابق ص ١١

أمثالهم [١]وأشعارهم[٢]مستوحيا ذلك من قصة حمامة نوح "التي كانت دليل نوح ورائده, وهي التي استعجلت عليه الطوق الدّي في عنقها ,وعند ذلك أعطاها الله تلك الزينة, ومنحها تلك الحلية , بدعاء نوح عليه السلام ,حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها ,وفي رجليها من الطين والحمأة ما فيها"[٣]

إذن الاستدامة وعدم البراح هي سمة للطوق استعادها ابن حزم ليعبر بها عن دوام الحبّ والمحبة بشكل عام بين الناس إلى يوم القيامة .فالحب بين بني البشر كالطوق للحمامة يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم إلى يوم يبعثون . فلولا هذه المحبة لعم الخلاف وفقد الخير في الأمة وبات الناس في بغضاء وشحناء وضنك من العيش تسود به النفوس ,وتذبل إلى أن تموت بيد بعضها البعض دون غير من الأسباب ,ولكن من لطف الله فينا أن زرع الحبّ في أنفسنا إلى أن يتوفاها الله عزّ من قائل : حلو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم>[٤]

وللتعميم وعدم التخصيص أكمل ابن حزم عنوانه في الألفة والآلاف مجسدا رؤيته للعنوان في داخل نص رسالته ,فهو لم يقتصر مادّتها على الحبّ وأسبابه وأغراضه وما يقع فيه وله ,بل تجاوزه إلى الألفة التي يمكن أن تقع بين جميع البشر والألفة كاملة أعم من الحبّ وأوسع. فهذا التجاوز يعني التعميم يعني الحبّ والمودة والصداقة والرفق بين جميع الناس سواء أكانوا رجالا أو نساء صغارا أو كبارا سادة وعبيد ,أصدقاء وإخوة أقارب وجيران ... إلخ , تقع

---

1 "ومن أمثال العرب: طوّق طوق الحمامة, أي تقلدها تقليدا باقيا بقاء طوق الحمامة ,إلى يوم القيامة.",الثعالبي,ص ٤٦٦.

2"قال الفرزدق : *من بك خائفا لأذاة شعري* *فقد أمن الهجاء بنو حرام*

*هم منعوا سفيههم وخافوا* *فالئد مثل أطواق الحمام*

قال الباهلي: تهاني أن اطيل الشعر قصدي إلى المعنى وعلمي بالصواب

وأبعثهن أربعة وخمسا بألفاظ مثقفة عذاب

وهن إذا وسمت بهن قوما كأطواق الحمامة في الرقاب

وقال أبو الطيب: *أقامت في الرقاب له أياد* *هي الأطواق والناس الحمام* ، الثعالبي، ثمار القلوب، ص٤٦٦

3 الثعالبي، ثمار القلوب: ص ٤٦٥

4 الأنفال آية ٦٣.

كلها في فلك الألفة . وما يدعم هذه الفكرة من مادة هذه الرسالة التي تتحدث عن الحب والألفة والآلاف في الأندلس في بيئات وفترات زمنية مختلفة . فالحب والألفة فيهم كالطوق للحمامة دائم على مر العصور والأزمان ,يمنحهم الرّقة والمودة والجمال. وعلى سيرة الجمال فإن الطوق للحمامة زينة منحت إياه بدعاء نوح كما أسلفنا , فهذه الزينة هي منبع الجمال الذي يثير الحب والإعجاب بالحمامة ,وذلك لأنه الحلية المتميزة عن سائر لون الحمامة, فالطوق للحمامة عند ابن حزم كناية عن صفة الحب التي يستحسنها المحب في المحبوب فتكون هذه الصفة هي الزينة أو السمة التي أثارت إعجابه ودفعته لأن ينجذب نحو محبوبه دون سواه من الناس ؛"والصلة التي توقع الحب أبدا في أكثر الأمور على الصورة الحسنة, فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن , وتميل إلى التصاوير المتقنة , فهي إذا أرادت بعضها تشتت فيه, فإن ميزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية , وان لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ,وذلك هو الشهوة , وأن للصور لتوصيلا عجيبا بين أجزاء النفوس النائية ."[١]

فلكل إنسان علته التي توقعه في حبائل الحبّ وكانت علّة ابن حزم في صباه شقار الشعر "وعنّي أخبرك: أني أحببت في صباي جارية شقراء الشعر . فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر , وأنه على الشمس ,أو على صورة الحسن نفسه وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت . ولا تؤاتيني نفسى على سواه ولا تحب البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه ,وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله ."[٢]

وبما أن هذا الطوق هو حلية تحمل معنى الجمال فلا بد أن ينحني له كل من يلبسه ويصبح مطواعا ذلولا له, وهذه صفات المحبين حين يأسرهم طوق الحب .إن هذا الطوق الجميل أسر ابن حزم الفقيه والعالم والرجل الجليل , كما أسر غيره من الناس فأصبح له طيعا ذلولا لدرجة أنه يهتز ويطرب عند تذكره لهذا الحب مما جعله قويا جريئا على تقديم اعترافات عن نفسه في زمن يمكن أن تحسب عليه كفقيه لا له. إن صفة الجمال التي عرفت عن طوق الحمامة هي السمة التي أعطت عنوان ابن حزم سمة الإيجابية فلو أنه لم يضع هذه التركيبة من المضاف والمضاف إليه وعنون رسالته بالطوق في الألفة والآلاف لأخذت هذه التسمية منحى سلبيا , وذلك أن كلمة الطوق هي من الكلمات التي تحمل معنى التحديد والإحاطة ,وهذا مما يقيد الإنسان وحده , وهذا ما ينفيه ابن حزم عن نفسه وعن غيره من خلال هذه التسمية, فإنه في

---

[1] ابن حزم, أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي, مرجع سابق، ص ١٣ .

[2] ابن حزم, أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي, ص ٣٧ .

رسالته لا يحده إلا مخافة الله وخلقه الرفيع الذي منعه أو قيده من ذكر عورات الناس والفواحش من الأمور, والرذائل فجاء كتابه كطوق للحمامة بين كتب الحبّ الأخرى التي عرفهـــا التـــاريخ الأدبي والأندلسي جميلا ونقيا .

## قانون التأويل ؟

يؤكد محقق هذا الكتاب العنوان الذي أثبته على الغلاف صحيح ولا يطاله أدنى شك مستندا في ذلك إلى أمور عدة :

١ - إن مؤلف هذا الكتاب قد نص في أغلب كتبه على هذا العنوان (قانون التأويل ).

2-وردت هذه التسمية على أغلب مخطوطات الكتاب .[١]

3-اتفاق جميع من ترجم لابن العربي من العلماء على هذه التسمية مع تأكيد نسبة الكتاب إليه .[٢]

وما يزيدنا يقين تلك الإشارات الواردة عن هذا العنوان في نص الكتاب ؛ فابن العربي يوردها في مواضع مختلفة من كتابه القانون وذلك منذ الصفحات الأولى إذ يقول :"ونقرن به من نكت المعارف , ما يقوم به مائل العذر, ويتضح منه ما اشتبه لكم من الأمر , ونشير إلى الممكن من "قانون التأويل لعلوم التنزيل "يرسل المبتدى إلى ضالة الطلاب ,ويفتح على المنتهي ما أرتج من الأبواب ."[٣]

وقبل أن نخوض في معنى هذه العنونة يجدر بنا أن نمهد لفكرة تاريخية عن جهود المفكرين المسلمين (متكلمين وفلاسفة )السعاة إلى وضع قانون كلي يحكم عملية العلاقة بين العقل والنقل, فمتى وقع التفكير بجدية في هذا القانون عند مفكري الإسلام ولماذا وضع؟

إن الخوف من شيوع الفوضى في إشكالية التأويل وآثارها السلبية على العقيدة نفسها دفع بالعلماء المسلمين كل من جهته إلى الاجتهاد لوضع قانون كلي يحكم العملية التأويلية ويجنّبها الوقوع في الزلل.

ولعل أولى المحاولات عند المسلمين الأشاعرة كانت على يد الجويني (ت ٤٨٧ ه) في إرشاده فقد خصص باباً سّماه (باب القول في السّمعيات )ثم جاء من بعده الغزالي (ت ٥٠٥ ه)

---

[1] ينظر: حول هذا الموضوع مقدمة المحقق ص٢٣, و وصف المخطوطات المعتمدة في التحقيق ,ص ٣٦.

[2] كزركشي في البرهان ,١٦/١. والمقري في أزهار الرياض ,٩٤/٣. ونفح الطيب ,٣٥/٢ ط محيي الدين . وحاجي خليفة في كشف الظنون ,١٣١٠/٢.

[3] قانون التأويل , ص ٦٨ .

[١] الذي وضع رسالة في عنوان "قانون التأويل"[٢] وتعد من أولى الرسائل الكلامية المنهجية التي وضعت في الموضوع وأسست له إذ قدم فيها منهجا ثابتا للطالبين والراغبين يقول :"أسئلة أكره الخوض فيها والجواب لأسباب عدة , لكن إذا تكررت المواجهة أذكر قانونا كليا ينتفع به في هذا النمط"[٣] .

لذا فقد كانت هذه الرسالة محورا أو منطلقا لكل الأعمال التي خاضت في القانون ,وأول المنتفعين بعلمه والسائرين على هديه تلميذه أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي (ت ٥٤٣ ه) الذي حذا حذوه وألف كتابا وسمه بالاسم نفسه (قانون التأويل),فأبو بكر بن العربي تخرج بالإمام الغزالي وانتفع بعلمه كثيرا حين رحل إلى المشرق طلبا للعلم , وكان هذا التلميذ يعرف قدر الغزالي كما أشار إلى ذلك في كتابه القانون " ورد علينا دشمند ",فنزل برباط أبي سعد بإيزاء المدرسة النظامية معرضا عن الدّنيا , مقبلا على الله تعالى , فمشينا إليه , وعرضنا لمنيتنا عليه , وقلت له :أنت ضالتنا الذي كنا ننشد , وإمامنا الذي به نسترشد , فقلبنا لقاء المعرفة , وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة , وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخبر عن الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم , ولو رآه علي ابن العباس لما قال :

إذا ما مدحت امرءا غائبا　　　فلا تقل في مدحه واقصد
فإنك إن تقل الظنو　　　ن فيه إلى الامد الأبعد
فيصغر من حيث عظمته　　　لفضل المغيب على المشهد

فإنه كان رجلا إذا عاينته رأيت جمالا ظاهرا ,وإذا عالمته رأيت بحرا زاخرا , وكلما اختبرت .فقصدت رباطه , ولزمت بساطه ,واغتنمت خلوته ونشاطه ,وكأنما فرغ لي لأبلغ منه أملي , وأباح لي مكانه, فكنت ألقاه في الصباح والمساء , والظهيرة والعشاء , كما كان في بزته أو بذلته , وأنا مستقل في السؤال , عالم حيث تؤكل كتف الاستدلال ,وألفيته حفيا بي في التعليم, وفيا بعهدة التكريم ." [٤]

---

[1] ينظر ,سالم ,عبد الجليل ,العقل والنقل عند ابن رشد.

[2] لقد ذكرت هذه الرسالة بعنوان : قانون الرّسول في كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون , حاجي خليفة ١٤١٠ . وفي مقدمة كتاب المرتض

[3] الغزالي , أبو حامد محمد بن محمد الطوسي , ت٥٠١ ه , قانون التأويل , ص ٥ .

[4] ابن بشكوال، قانون التأويل , ص ١١١- ١١٢ .

ومن الذين مهد لهم الغزالي الطريق أيضا الرازي وابن تيمية (ت٧٢٨ ه) في مشروعه الذي أودعه في كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل )[١]

أما الفلاسفة فقد وضع الكندي نظريته في الموضوع نفسه في رسالته إلى المتوكل ,كما أن ابن سينا (ت ٤٢٨ ه) وضع قانونا خاصا به في رسالته (الأضحوية في أمر المعاد ).[٢] وأما ابن رشد فهو من اهم الفلاسفة الذين اهتموا بمشكلة العقل والنقل وما بينهما من اتصال مخصصا كتابه (فصل المقال فيما بينا الشريعة والحكمة من الاتصال ),لهذه المسألة وهو بذلك يعد أول فيلسوف مسلم يفرد كتابا مستقلا للإشكالية النظرية , وأما كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة) فهو التطبيق العملي للإشكالية النظرية .[٣]

فقد صدر هؤلاء جميعهم في بيان تلك العلاقة عن مبادئ هي :

١_الشريعة توجب التفسير والتأويل عند الفقهاء والمتكلمين , والتفلسف عند الفلاسفة .

٢_ الشريعة لها معان ظاهرة للعامة ,وأخرى باطنه للخاصة , لذا وجب التأويل في بعض الأحيان ولبعض الطبقات من الناس .

٣_ قصور العقل عن الإدراك في بعض الأمور دون عون من الوحي ,لذا قاموا بتحديد قدرة العقل والصّلة بينه وبين الوحي .

٤_ وضع قواعد وقوانين خاصة بتأويل النصوص ,وذلك من اجل ضبط هذه العملية وحفظها من الوقوع في الخلط والزّلل.[٤]

وبما إن كلمة التأويل تعني عموما الشرح والتفسير , وخصوصا (إظهار باطن العبارة الذي لا يظهر من اللفظ),[١] تصدى لها فئة محددة من الناس هم الذين سماهم الله جل جلاله في محكم كتابه بالرّاسخين في العلم والمؤمنين به (٣٩)

---

[1] ينظر عبد الجليل سالم , العقل والنقل عند ابن رشد , ص ٢.

[2] ينظر عبد الجايل سالم , العقل والنقل عند ابن رشد ,ص ٣.

[3] ينظر كل من عبد الجليل سالم السابق , وبدوي ,عبد الرحمن ,موسوعة الفلسفة ,المؤسسة العربية للدراسات والنشر ,ط ١ ١٩٨٤م ج١, ص٢٦. لقد أفرد ابن رشد في كتابه المذكور أعلاه فصلا كاملا .

[4] ينظر عبد الجليل سالم السّابق و ص ٦.

فالراسخون في العلم هم أهله , وهم الأحق بالتأويل من غيرهم من الناس ولأن ابن العربي يعد بعلمه ومكانته وفقهه من صفوة هؤلاء انتدب نفسه لوضع قانون خاص به يحيل إليه ويظهر علمه "فقد لجأ هذا الإمام العظيم إلى إقامة ميزان عدل صحيح كما عرفه من دينه الحنيف ,خدمة للعلم وطلابه يتحصنون به إذا حصلوه على وجهه عن الخطأ في الفهم كلما خاضوا في تفسير النصوص الشرعية ,أو تعاطوا تأويلها ".(٢) لذا فقد جاء هذا الكتاب على شكل قوانين منهجية تفتح للقارئ الطريق ليسلكه ,وتضع له القاعدة ليبني عليها , إن قانون ابن العربي في التأويل لم يظهر إلى الوجود إلا بعد رحلة علم طويلة خاضها مؤلفه وكابد فيها عناء السفر من أجل طلب العلم وذلك "ليكون عنوانا لما جرى ,وتنبيها على فضل من تأوب ,وسرا وحجة لمن قال : قد تعدى من تمنى أن يكون مثل من تعنى,ونقرن به من نكت المعارف , ما يقوم به مائل العذر ,ويتضح منه ما استبهم لكم من الأمر , ونشير إلى الممكن من (قانون في التأويل لعلوم التنزيل ) يرشد المبتدئ إلى ضالة الطلاب , ويفتح على المنتهي ما أرتج من الأبواب ."(٣)

## الإحاطة في أخبار غرناطة ــ لسان الدين بن الخطيب.

الإحاطة في أخبار غرناطة كما يسمى في مخطوط دار الكتب المصرية ومخطوط جامع الزيتونة بتونس أو الإحاطة بتاريخ غرناطة أو الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة . كلها عنوانات لكتاب واحد ضم في أعطافه كل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية من الأخبار

---

[1] ينظر مفهوم التأويل في مادة (تأويل),كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم ,التهانوي , محمد علي , مكتبة لبنان ناشرون , ج١, ص٣٧٦ ."التأويل هو مشتق من الأول وهو لفة الرجوع . وأما عند الأصوليين فقيل هو مرادف التفسير ,وقيل هو الظن بالمراد و التفسير القطع به، فاللفظ المجمل إذا لحقه البيان بدليل ظني كخبر الواحد سمي مؤولا، وإذا لحقه البيان بدليل قطعي يسمى مفسرا، وقيل هو أخص من التفسير. يرى ابن رشد أن التأويل فلسفة وعلما يختص بفئة من الناس لذا فهو يعطف قوله تعالى( والراسخون في العلم) في الآية ٧ من سورة آل عمران على الآية التي قبلها ولا يجعلها ابتداء. وتمامها : ( هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب). ويبرر ذلك بأنه إذا لم يكن أهل العلم يعلمون التأويل لم يكن عندهم مرية تصديق توجب لهم من الإيمان به ما لا يوجد عند غير أهل العلم. وقد وصفهم الله بأنهم المؤمنون به، وهذا إنما يحمل على الإيمان الذي يكون من قبل البرهان وهذا لا يكون إلا مع العلم بالتأويل فإن غير أهل العلم من المؤمنين هم أهم الإيمان به لا من قبل البرهان. فإن كان هذا الإيمان الذي وصف الله به العلماء خاصا بهم، فيجب أن يكون بالبرهان.

[2] ابن بشكوال، قانون التأويل , ص ٩

[3] ابن بشكوال، قانون التأويل , ص ٦٨ .

والأوصاف والمعالم , فهو "يتناول وصفها وجغرافيتها وخططها , ومواقعها , وما يحـيط بهـا , من المروج والجمال , ثم يتناول تاريخها مذ نزل بها العرب الأوائل , وأخبار من كـان بهـا , ومن نزل بها أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلبين ,كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية منذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف بن الأحمر حتى عـصر المؤلـف . وهذا عدا ما يورده المؤلف خلال موسوعته من تراجم فياضة لملوك الدولة النصرية المتعاقبين .

ويورد لنا ابن الخطيب في كتاب (الإحاطة ) , تراجم طائفة كبيرة من الأعلام والأكابر, الذين عاشوا في غرناطة , أو نزلوا بها ,أو وفدوا عليها من مختلف عصور التاريخ الأندلـسي , ويفيض في ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقـران , ويعنـى عنايـة خاصـة بالترجمة لأكابر العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه , سواء فـي الأنـدلس أو المغـرب , ويورد لنا كثيرا من شعرهم ونثرهم .ويضم كتاب (الإحاطة )من هذه التراجم زهاء الخمسمائة .

ويتناول ابن الخطيب من خلال هذه التراجم , تاريخ عصره وملوك عصره , سواء في الأندلس أو المغرب , بدقة وإحاطة , ويصف ما وقع فيها من الأحداث الـسياسية والعـسكرية , وصف الخبير المطلع ,ورجل الدولة الواقع على دقائق الأمور والعوامل والأسباب ."[١]

وقد أثبت محقق هذا الكتاب محمد عبد الله عنان الصيغة الأولى من هذه العنوانـات عنـد النشر دون أن يخبرنا عن سبب هذا الاختيار ولا لماذا رجحه دون غيره مـن هـذه العنوانـات وعلى ما أظن انه اختاره لان كلمة (أخبار) يمكن أن تحمل معنى الانتقاء الذي يفضي إلى السعة والشمول دون الاقتصار على جانب محدد وما يرجح هذا الرأي بمادة هذا الكتاب يعد موسـوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة .

وما يؤكد ما قد ذهبت إليه أن صاحب الكتاب لم يلتزم في كتابـه الترتيـب التـاريخي للعصور والحوادث والأشخاص, ولكنه التزم الترتيب الأبجدي لأصحاب التـراجم غيـر أنـه لا يلتزم به بصور دقيقة وهذا المنهج يمكن أن يتناسب وكلمة (اخبار) التي يمكن أن تكون (من هنا وهناك أي انتقاء ). أما كلمة (تاريخ) فإنها تحمل في دلالتها سمة التسلسل الزمني الذي لم يكـن منهجا متبعا في هذه الموسوعة , لذا فان ابن الخطيب اختار هذه العنونة لتطابق وفحـوى هـذا الكتاب فالإحاطة تعني الإلمام بشيء من سائر نواحيه .

[1] ابن بشكوال، مقدمة المحقق , ص ٤.

ولكن الإلمام عند ابن الخطيب في هذه الموسوعة كان إلماما فرديا وانتقائيا فهو لم يلـم إلا بمن لهم مكانة وتميز من كتّاب وشعراء ووزراء ورجال دولة وملوك وعظماء أمثالـه تـشرّفت بهم غرناطة سّجلوا من أعمالهم وإبداعاتهم تاريخها , وخط على جدران الزمان رسوما لن تعبث بها يد الدهر ما دام كتاب ابن الخطيب موجودا ,فضم دررا ومطلع غرر

وشموسا أضاءت نهارات غرناطة ونجوما لمعت في لياليها الداجية أودعها ابن الخطيـب موسوعته هذه مخلداً مآثرهم بعد انطواء زمانهم . فهم أناس كان لهم تاريخ تميزوا به فاسـتحقوا أن يضموا إلى درر ابن الخطيب وأما آخر درة في هذا السلك كانت أكثرهم لمعانا وأطولهم على الزمان باعا , فهو شخص تعددت مجالات البحث والإبداع عنده فكان في طليعـة الشخـصيات العلمية والأدبية في القرن الثامن الهجري التي أبدعت التراث الإسلامي والعربي , وساهمت بكل دأب وجد في إخصابه وإثرائه , إذ أجرى قلمه في تأليف ما يزيد على سبعين كتابا في مختلـف ألوان الإبداع والعلم التي ألم بها وحصلها أثناء مسيرة حياته .

## ثانيا: اسم المؤلف.

يشكل اسم المؤلف عتبة قرائية مهمة في النص السير ذاتي توجه المتلقي في كيفية تعاملـه مع النصوص, فهو علامة تحيل على شخص واقعي موجود في خارج النص وداخله ومـسئول عن تلفظ النص المكتوب برمته .[١]" فاسم المؤلف على الكتاب يعني لدى القارئ الـذي يعرفـه موقفا معينا من الكتابة ومن الحياة بصورة عامة ,فضلا انه يشكل ثقلا على تلقيه لـه, ولا احـد يجهل أن بعض الأعمال الأدبية ترجع شهرتها إلى شهرة مؤلفيها أساسا وليس إلى أدبيتها وفنيتها ".[٢]" كما أن ظهوره في النص السير ذاتي يخلق نوعا من الإثارة لدى المتلقي يدفعه إلى قـراءة الأثر مدفوعا بنوع من الفضول إلى معرفة حياة الآخر, والوقوف على مكنوناته الداخليـة ,فهـو يدرك بأن الذات المنكشفة أمامه في النص السيري هي ذات المؤلف "[٣]

---

[1] ينظر: لوجون، فيليب ,السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ,ص ٣٤

[2] مفهوم الرواية السيرية ٢٠ نقلا عن خليل شكري هياس , سيرة جبرا الذاتية في البئـر الأولـى وشـارع الأميرات ,ص ٤٠

[3] هياس ,خليل شكري: القصيدة السير ذاتية بنية النص وتشكيل الخطاب ,عالم الكتب الحديث ,إربـد الأردن ,٢٠١٠, ص ١٤٥

فمن هذه الذات هل عرفها القارئ مسبقا ,هل كان لها حضور في التاريخ ,أهي شخصية عادية ... الخ؟

يقول جورج ماي مجيبا عن هذه التساؤلات إن كاتب السيرة الذاتية يكون في اغلب الأحيان معروفا قبل أن ينشر سيرته الذاتية, فمن كتاب السيرة الذاتية من اشتهر بأعماله ,ومنهم من اشتهر بأقواله ,ومنهم من اشتهر بمؤلفاته ,ومنهم من اشتهر بأكثر من أمر واحد من هذه الأمور "[١].

وهذا ما اثر عن أصحاب السيرة الذاتية في الأندلس, فهم أشخاص تفردوا في زمانهم وعرفوا بأكثر من أمر فمنهم من كان أميرا وشاعرا, ومنهم من كان أديبا وفقيها وقاضيا, ومنهم من جمع بين الأدب والطب والتأريخ والوزارة. وفضلا عن ذلك فقد خاض هؤلاء غمار الحياة العامة في الأندلس, فعرفهم القاصي والداني وخلدتهم أثارهم من كتب ومصنفات في علوم مختلفة أثرت المكتبة العربية والإسلامية إلى زمان الناس هذا.

وبنظرة سريعة على حيواتهم وسيرهم الذاتية نستطيع أن نتعرف على مكانتهم في الساحة الأندلسية بشكل خاص والساحة الإسلامية بشكل عام , فهم شخصيات لامعة سطروا أسماءهم على قمة التاريخ الإنساني قولا وفعلا.

وإذا ما بدأنا بابن حزم الذي يعد من الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي العلمي والفقهي فإننا نجد أنفسنا أمام شخصية تقف على قدم المساواة مع أعلام المسلمين كأبي الوليد الباجي [٢] والغزالي [٣] وابن تيمية [٤] وغيرهم .

ولد أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم في قرطبة صبيحة يوم الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤ ه [٥], فكانت ولادته وحياته شاهدة على اشد ظروف الأندلس قسوة , فها

---

[1] ماي ,جورج ,السيرة الذاتية , ص ٣٨

[2] سنة الوفاة مفقودة.

[3] ت ٥٠٥ ه

[4] ت ٧٢٨ ه

[5] المقري , احمد بن محمد التلمساني ,نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب تح إحسان عباس , دار صادر بيروت, ج٢ ,ص٧٨-٧٩ . الحموي ,ياقوت , معجم الأدباء , تح عمر فاروق الطباع . المعارف للطباعة والنشر , بيروت – لبنان , مجلد ٤ ,ص ٤٧٩

هي دولة  الخلافة تزول وتغرب شمسها وتنهض على أنقاضها دويلات الطوائف فكانت "حياتــه وسط هذه الأحداث شاهدا, ومشاركته فيها مؤثرة جعلت منه قمة الفكر الإنساني في مطلع القــرن الحادي عشر في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء ,كــان سياســيا ورجل دولة شاعرا وكاتبا مؤرخا ومفكرا وفيلسوفا وفقيها جدلا لدد الخصومة عنيف الحوار "(١)

نشأ ابن حزم نشأة منعمة رغدة ,فوالده كان وزيرا في عهد المنصور بن أبي عامر ,وكان لأسرته قصر عظيم امتلأ بالجواري الحسان , فكن معلمات له في بداية حياته ,فقد تربــى وتعلم على أيديهن ,وقد ذكر ذلك الأمر في أكثر من موضع من الطوق إذ يقول: "ولقد شــاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجــورهن ,ونــشأت بــين أيديهن , ولم اعرف غيرهن ,ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب , وحين تقيــل وجهــي ,وهّن علمنني القرآن , وروينني كثيرا من الأشعار ,ودربنني الخطّ" (٢)

وهذا النص يؤكد لنا أن ابن حزم قد نشأ وتربى في بيت وزير يمتلأ بالعلم والأدب والثقافة وإنه لم يتوجه إلى حلقات السّماع والذكر إلا وهو في سن الحداثة , فكان صافي الــذهن مما دفع به إلى التفوق فيصفه الذهبي بقوله :" وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وســعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر, مع الــصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب ."(٣)

فنال من درسه وعلمه مرتبة عالية وصفها صاعد في تاريخه يقول:"كــان ابــن حــزم اجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام, وأوسعهم معرفة, مع توسعه في علم اللــسان والبلاغــة والشعر والسير والأخبار".(٤)

وبمجرد إعلان وفاة الخليفة هشام المؤيد سنة ٣٩٩ه توالت النكبات على أســرة ابــن حزم إذ يقول :"ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات ,وباعتداء أرباب دولته علينا ,وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار , وأرزمة الفتنة , وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ,ونحن في هــذه الأحــوال بعــد

---

[1] مكي, الطاهر احمد, دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة, دار المعارف ط٤ ١٩٩٣م, ص٦٣

[2] ابن حزم, أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي, مرجع سابق، ص ٦٨

[3] المقري: نفح الطيب , ص٧٨

[4] المقري: نفح الطيب ,ص ٧٨

العصر يوم السبت لليلتين بقيا من ذي القعدة عام اثنين وأربعمائة واتصلت بنا تلك الحال بعده"(١)

وقد استمرت تقلبات الدهر تعصف بابن حزم وأسرته, إذ قام جند البربر بنهب منازل ابن حزم بالجانب الغربي من قرطبة ,مما اضطره إلى مغادرتها سنة ٤٠٤ ه وأخذ يتتبع أخبارها فوصفت له بأنها قد طمست معالمها وصارت صحارى جدبة بعد العمران , وأصبحت مأوى للذئاب ملاعب للجان ,وقد عبر ابن حزم عن هذه الحال وعن نفسه خير تعبير إذ يقول لصديقه :"فأنت تعلم أن ذهني منقلب وبالي مصهر بما نحن فيه من بنو الديار والخلاء عن الأوطان ,وتغير الزمان ,ونكبات السلطان ,وتغير الإخوان ,وفساد الأحوال ,وتبدل الأيام وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد ,وانقطاع مكاسب الآباء ,والأجداد ,والغربة في البلاد ,وذهاب المال والحياة ,والفكر في صيانة الأهل والولد واليأس عن الرجوع إلى الأهل والولد, ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه "(٢)

ومع ما مر به ابن حزم من كوارث إلا أنها لم تثنه عن طلب العلم والجلوس إلى حلقات الدرس ,والتردد على مجالس العلماء والفقهاء ,فنال علما غزيرا سخره في خدمة الإسلام ,فإن ما قام به من مناظرات ومؤلفات بحقل الدراسات الإسلامية تعد من أهم ما تميز به فكره العملاق المتفرد , يقول ابنه الفضل عن كتبه وتواليفه في معجم الأدباء :"أن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة, وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله, إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري."(٣)

يمثل ابن حزم الجوانب المتعددة للثقافة الإسلامية في الأندلس ,فقد وقف في عصره موقف المجدي . وقد أثار حركة في الجدل والبحث. وأهم ما تميز به ابن حزم في جدله الجدة والعنف في رده على أعداء الإسلام من أهل الكتاب, فقد كان شديد اللهجة شديد الحجة لاذعا في

---

[1] ابن حزم: الطوق, ص ١٣٦

[2] ابن حزم: الطوق, ص ١٨٦ .

[3] الحموي، ياقوت: معجم الأدباء ,٤٨٠/٤

نقده حتى وصل إلى درجة السخرية والاستهزاء. وقد تجلت سخريته قوية واضحة في رده على مزاعمهم وعقائدهم الباطلة , وله في ذلك كتب منها الرد على ابن النغريله اليهودي, إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل, وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا يحتمل التأويل. (١)

أما الأمير عبد الله بن زيري فهو الشخصية التي قدمت لنا مذكراتها باحثة عمَّن يُنصفها من ظلم التاريخ لها في أزمنة تالية على زمانه الذي ظلمه وسلب منه هيبته، وهو:" عبد الله بن بُلقِّن بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي أمير غرناطة".(٢)

لما توفي باديس بن حبوس جده اتفق وزراءه ووجوه صنهاجة على تقديمه وأخذوا له البيعة على الناس، ولقبوه بالمظفر بالله والناصر لدين الله، وعدلوا عن تقديم عمه ماكسن بن باديس الذي كان واليا على مدينة جيان التي أعطاها إليه والده في حياته فقد كان ينهمك في شرب الخمر ويُحدث أحداثا قبيحة من القتل وتفرَّق الناس عنه وكرهوه واتفقوا على تقديم عبد الله. (٣)

كان عبد الله عند توليه الحكم صبيا صغيرا لم يقارب الحلم بعد، فتفرد بتربيته وتدبير ملكه الوزير سماحة الصنهاجي الذي استقل بشؤون الدولة والسياسة.(٤) وأما تميم شقيق عبد الله المُلقب بالمعز بالله فقد كان واليا على مدينة مالقة التي عينه عليها جده باديس في حياته.(٥)

لقد كان الخطر الأساسي الذي واجهته غرناطة بعد وفاة باديس هو محاولة بني عباد التوسع على حساب بني زيري في غرناطة مستغلا صِغر سن عبد الله فحشد من كان عنده،

---

[1] تشير دائرة المعرف الإسلامية أن هذا الكتاب هو الجزء الأول من كتاب ( الفصل في الملل والأهواء والنحل)، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندي وإبراهيم زكي خورشيد الشنتاوي، المجلد الأول ص١٤٠. لقد صنف ابن حزم ما يزيد على ٥٤ مؤلف يُنظر عنها ما كتبه الدكتور عبد الكريم خليفة في كتابه عن ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه، ص١٣٨. وفي وفيات الأعيان، ٣٢٦.

[2] المركشي، ابن عذاري، البيان المُغرب، الملحق الأول من مذكرات الأمير عبد الله،ص٢٠٥.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين السلماني، كتاب أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوفي،ص ٢٣٣.

[4] كتاب أعمال الإعلام، ص١٣٤. والبيان المغرب، ص٢٠٥.

[5] كتاب أعمال الإعلام، ص٢٣٤. والبيان المغرب، ص٢٠٥

واستكثر من الجند، وقدم إلى غرناطة، فبرز عليها وبنى بقربها حصنا على ستة فراسخ منها، وملأه بالرماة والرجالة، وترك فيه مع قائده، وأمرهم بالضرب على غرناطة وجهاتها"؟ [١]

ولما بلغ الصبي مبلغ الرجال انضوت بنفسه وعزل سماجة عنه ونفاه إلى المرية مع مال كثير فباشر أمور دولتة بنفسه. [٢]

وأما خلعه فقد جاء على يد يوسف بن تاشفين في عام ٤٨٣هـ حين توجهت دولة المرابطين الذين توجهوا لإنقاذ الأندلس من بين أيديهم، وقد كان أمير غرناطة عبد الله واحدا ممن توجهت له أصابع الاتهام حسبما ذكرت المصادر الأندلسية، فقد أوردت لنا أنه استعان بصاحب قشتالة حين أحس بالخطر بحدق به من قبل المرابطين. [٣]

لقد كان نفيه وعمره ٣٥ عاما إلى جزيرة أغمات في المغرب التي بقي فيها إلى أن مات، وكتب مذكراته فيها، قال عنه الغافقي: " وكان قد حاز حظا وافرا من البلاغة والمعرفة، شاعرا جيد الشعر، مطبوعة، حسن الخط، كانت بغرناطة ربعة مصحف بخطه في نهاية الصنعة والإتقان". [٤]

وأما أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي[٥]، فإنه لم يكن أميرا وإنما قاضيا وفقيها وأكبر متكلم عرفته الأندلس، وهو من العلماء الذين تعددت مواهبهم" وأخذوا من كل فن بسهم وافر ولم يقف بنفسه عند حد المعرفة والتعليم بل اقتحم ميدان التأليف الموفق، كان من نخبة الكُتَّاب المجيدين بل من أغزرهم مادة وأطولهم باعا، وأمضاهم سليقة، وأحضرهم بيانا، متجرا في الفقه وأصوله، بصيرا بعلم الكلام، خبيرا بمشكلاته، متصرفا في دقائقه."[٦]

وقال عنه ابن بشكوال في كتاب الصلة:" الإمام العالم الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحُفاظها. لقيته بمدينة إشبيلية حرسها الله ضحوة يوم الاثنين لليلتين خلتا

---

[1] كتاب البيان المغرب، الملحق الأول من مذكرات الأمير عبد الله، ص٢٠٦.

[2] المصدر السابق، ص ٢٠٦

[3] لقد روى الأمير عبد الله قصة خلعه وملابساتها بطريقة مؤثرة محاولا أن ينفي عن نفسه هذه التهمة، ينظر مذكرات الأمير عبد الله وأعمال الأعلام، ص ٢٣٥ و الإحاطة الملحق الثاني، ص٢٠٩. والبيان المغرب، الملحق الأول، ص٢٠٦.

[4] الجزء الثاني من مذكرات الأمير عبد الله، ص٢١٠

[5] ابن بشكوال: ( مؤلف كتاب قانون التأويل)، الصلة، القسم الثاني، ص٥٩٠.

[6] هذا ما قاله فضيلة الأستاذ الدكتور سليمان دنيا حين قدّم لكتاب قانون التأويل، ص ٨.

من جمادى الآخرة من سنة ست عشرة وخمسمائة، فأخبرني رحمه الله أنه رحل مع أبيه إلى المشرق".[١]

وكان من أهل التفنُّن في العلوم، متقدما في المعارف كلها متكلما في أنواعها حريصا على نشرها. استقضى بمدينة إشبيلية فقام بها أجمل قيام. وكان من أهل السراية في الحق والشدة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه، قال المحدث أبو القاسم خلف بن عبد الملك: قرأت عليه بإشبيلية وسألته عن مولده فقال لي: ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ٤٦٨. وتوفي –رحمه الله- بالعدوة. ودفن بمدينة فاس في ربيع الآخرة سنة ٥٤٣".[٢]

وذكره ابن الزبير في صلته وقال عنه:" رحل مع أبيه أبي محمد، عند انقراض الدولة العبادية، إلى الحج سنة ٤٨٥، وسنُّه إذ ذاك نحو سبعة عشر عاما. تلقى شيوخ مصر وعدد لنا أناسا. ثم قال: وقيّد الحديث وضبط ما روى واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن. وعاد إلى بغداد بعد دخولها وانصرف إلى مصر، فأقام بالإسكندرية، فمات أبوه بها. أول سنة ٤٩٣. ثم انصرف إلى الأندلس فسكن بلده إشبيلية، وشوور فيه وسمع، ودرس الفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة، وولي القضاة مدة، أولها رجب من سنة ٥٣٨، فنفع الله لصرامته ونفوذ أحكامه والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله ثم صرف من القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه وكان فصيحا حافظا أديبا، شاعرا، كثير الملح، مليح المجلس." [٣]

ومن تأليف هذا الإمام الحافظ: كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وكتاب أحكام القرآن، وله كتاب العواصم من القواسم، وكتاب عارضة الأحوذي في شرح الترمذي...الخ. [٤]

---

[1] ابن بشكوال، الصلة، ص ٥٩٠.

[2] تاريخ قضاة الأندلس، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. ص ١٠٥، ١٠٦

[3] تاريخ قضاة الأندلس، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص ١٠٦.

[4] ابن بشكوال، الصلة ،٥١٩،معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٤،٤٧٩

و حين عاد إلى الأندلس بعد رحلته التي أحرز بها علما وفيرا و كان سير ابن أبي بكر ما يزال واليا على اشبيلية. ولا ريب في أن ابن العربي كان موضع احترام هذا الأمير المرابطي حتى جعله احد الفقهاء المشاورين ولم يكن يؤهله لهذا المنصب جهده في سبيل المرابطين أو التوصيات التي عاد بها من المشرق فحسب بل كان علمه الغزير وحسن خلقه عاملين هامين في إحرازه المكانة التي بلغها، فقصده الطلاب من نواحي الأندلس يتلقون عنه شتى العلوم [١]

وأما آخر شخصية لدينا فهو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السلاماني. قرطبي الأصل، ثم طليطليه، ثم لوشية.ثم غرناطية،يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين، من اشهر الشخصيات الأدبية و السلمية و السياسية التي تألقت بالقرن الثاني الهجري و مرد هذه الشهرة التي حظي بها ابن الخطيب على مدى العصور إلى عدة أمور أهمها أنه : عبقرية متعدد النواحي، فهو طبيب و فيلسوف وهو كاتب و شاعر من الطراز الأول و هو مؤرخ بارع و وزير و سياسي حاذق قوي الإدراك. ولد ابن الخطيب في مدينة لوشة في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣ه ونشأ في بيت علم و جاه و أدب.

ويحدثنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه بأن بيتهم كان يعرف قديما ببني الوزير، ثم حديثا ببني الخطيب، وسبب هذه التسمية يرجع إلى عهد جده سعيد الأول، وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة. وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل.[2]

وأما والده فقد كان يعمل في خدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل،ولما توفي قتيلا في سنة ٧٢٥ه خدم عبد الله والد لسان الدين ولده السلطان أبا عبد الله محمد ثم أخاه السلطان أبا الحجاج يوسف أعظم سلاطين غرناطة،وقد ولي العرش سنة ٧٣٣ه. وقد خدم والد لسان الدين في ديوان الإنشاء مع الكاتب الشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن علي بن الجياب، وأسبغ عليه لقب الوزارة، ثم توفي قتيلا مع ولده الأكبر أخي لسان الدين بن الخطيب في موقعة طريف الشهيرة.[3]

نشأ ابن الخطيب منذ صباه في كنف الرحاب السلطانية التي عاش فيها وتأثر بها لما توفي والده دعي إلى الخدمة مكان أبيه وكان يومئذ شابا في نحو الثامنة والعشرين من عمره،

[1] عباس، إحسان، الجانب السياسي في رحلة ابن العربي إلى المشرق، الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت،١٩٦٣، ص٢٣١

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة،ج٤،ص٤٣٩.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة،ج٤،ص٦٣٤.

وفي هذه الفترة تألق نجمه، وعظمت منزلته وأغدق عليه السلطان عطفه، أثره بثقتــه، وجعلــه كاتب سرِّه، ولسانه في المكاتبات السلطانية ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمــة مركــزة فــي الوزارة يوم إذ، وما حباه به السلطان من الثقة والإيثار في قوله:" فقلدني السلطان كتابة ســرِّه، ولما يجتمع الشباب، ويستكمل السن، معززة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في الــسفارة إلى الملوك، واستنابني بني بدار ملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وانتــشى علــى صــوان ذخيرته وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه , ومن فصول منشوره : " وأطلقنــا يــده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه " . (١)

ولما توفي السلطان يوسف أبو الحاج نال ثقة ابنه الغني بالله يقول: " ولما هلــك, قدس الله روحه, ضاعف ولده, مولاي رضي الله عنه, خطــوتي, وأعلــى مجلــسي, وقــصر المشورة على نصحي "(٢).

ولكن هذه الحال من الرفاهية والرخاء و المكانة الرفيعة لم تدم لابن الخطيب فقد صــدر الأمر بكبسه وكبس دوره و مصادرة أملاكه ومتاعه وذلك على إثر الثورة التــي نــشبت فــي غرناطة في شهر رمضان سنة ٧٦٠ هــ , وفقد فيها الغني بالله ملكه على يــد أخيــه الأميــر إسماعيل ونودي به ملكا على غرناطة , ويسرد لنا ابن الخطيب تفاصيل هذه في ترجمته لنفسه فيقول :" وقبض علي , ونكث ما أبرم من أماني واعتقلت بحال ترفي"( ٣).

وبعد أن كبست المنازل و الدور , واستكثر من الحرس , وختم على الأعــلاف , وأبــرى إلى ما نأى , فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات الأمثال , في بحــر الغلة,وفراهة الحيوان, غبطة العقار ونظافة الآلات, ورفعة الثياب, واستجادة العدة, ووفور الكتب , إلى الآنية والخردى , والفرش, والمــاعون, والزجــاج ,والمحكــم ,والطيــب , والــذخيرة , والمضارب, والأقبية . واكتسحت السائمة ,وثيران الحرث ,وظهر الحمولة , وقــوام الفلاحــة , واذواد الخيل , فأخذ الجميع البيع, وتناهبتها الأسواق, وصاحبها البخس , ورزأتها الخونة, وشمل الخاصة والأقارب الطلب , واستخلصت القرى والجنات ,وأعملت الحيــل ,ودســت الإخافــة , وطوقت الذنوب , وأمد الله بالصبر , وانزل السكينة ,وانصرف اللسان إلــى ذكــر الله تعــالى ,

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة، ج٤، ص ٤٣٩-٤٤٠.

[2] موقعة طريف سنة ٧٤١هــ.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة , ج ٤ ,ص ٤٤٣

وتعلقت الآمال به , وطبقت نكبة مصحفيه , مطلوبها الذات, وسبب أفاتها المال, حسب ما قلــت عند إقالة العثرة, والخلاص من الهنوة:تخلصت منها نكبة مصحفية تطل داني المنصور مــن آل عامر"[١].

ولكن محنة ابن الخطيب لم تطل , إذ قام ملك المغرب السلطان أبو سالم بإرسال سفيره إلى الأندلس يسعى لدى حكومتها الجديدة في إجازة السلطان إسماعيل إلى الاستجابة لرغبة سلطان المغرب. ونال ابن الخطيب السلطان إسماعيل المغرب مكانة وحظوة مدة إقامته منذ أن وصله في عام ٧٦١هـــ إلى أن غادرها عائدا إلى وطنه مرة أخرى بعد أن عاد ملك السلطان الغني إليه، وجلس على العرش من جديد فسرعان ما كتب إلى وزيره في منفاه يسأله يطلب إليه العودة لقلد منصبه, فنزل ابن الخطيب عند رغبة سلطانه, وغادر مدينة سلا, وجاز إلى الأندلس ومعه أسرة السلطان وولده. ووصل إلى غرناطة في شعبان من سنة ٧٦٣هـــ وفي الثامن من شهر رمضان أصدر ( مرسوما) بإعادته إلى منصبه وقلده بنجاح الوزارتين وحلّاه بحلى الرياستين. وعاد ابن الخطيب إلى سابق مكانته في السلطة.

و مع ذلك فإن ابن الخطيب لم يعدم الاستهداف وحملات الشر من حساده يقول:"ومع ذلك فلم أعدم ، الاستهداف للشرور ، و الاستعراض للمحذور، و النظر الشرر المنبعث من خرز العيون، شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء، و رعاية سخطه أرزاق السماء ، و قتلة الأنبياء ، و عبدة الأهواء ، ممن لا يجعل لله تعالى إرادة نافذة، ولا مشيئة سابقة، ولا يقبل معذرة ،ولا يحمل في الطلب، ولا يتلبس مع الله بأدب . ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، و الحال إلى هذا العهد و هو أول عام أحد و سبعين و سبعمائة ".[2]

و كان على رأس خصومه و الساعين فيه تلميذه و معاونه في الوزارة الكاتب و الشاعر الكبير أبو عبد الله بن محمد بن يوسف المعروف بابن زمرك ، و قاض القضاة في غرناطة أبو الحسن علي بن عبدا لله النباهي ، و كان الأول يتزعم ضد ابن الخطيب الخصومة السياسية، و يتزعم الثاني حملة أشد خطورة و هي :

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج ٤، ص ٤٤٣-٤٤٤.

[2] وصف لنا ابن الخطيب سيرته في الحكم يومئذ، ينظر حول ذلك ترجمة ابن الخطيب، ج٤، ص٤٤٥، و نفح الطيب، ج٣:ص٤٢.

اتهام ابن الخطيب بالإلحاد والزندقة اعتماداً ما ورد في كتابه ، ولا سيما كتابه في التوصف الذي عنوانه (روضة التعريف بالحب الشريف) ، و عندما بلغت الأمور ذروتها و شعر ابن الخطيب بتغيير سلطانه عليه و أن الخطب قد عظم هرب من الأندلس إلى المغرب مرة أخرى و استقبله السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني في تلمسان حيث كان البلاط المغربي أجمل استقبال ، و بعد ذلك أرسل سفيره إلى غرناطة ليسعى إلى استقدام أسرة الوزير الهارب و كان ذلك في أواسط سنه ٧٧٣ ه [١]. و لكن خصوم ابن الخطيب لم يقفوا عند هذا الحد بل استمروا في تلويث سمعته و قذفوه بالتهم الباطلة ، فاتهموه بالزندقة ، و الخروج على شريعة الإسلام و نسبوا إليه في ذلك أقوالا و مقالات مما جاء في بعض كتبه و رسائله أوّلوها حسب مقاصدهم ، و زعموا أن منها ما يتضمن طعنا في النبي صلى الله عليه و سلم و القول بالحلول و مجاراة مذهب الفلاسفة و الملحدين. أن كتب ابن الخطيب التاريخية و ما اشتملت عليه من تراجم الأحياء و المعاصرين و الأموات و الأقربين ، و ما يتخللها من الطعن كثير منها هي من قبيل الغيبة المحرمة ، و كان تلميذ ابن الخطيب و خلفه في الوزارة أبو عبد الله بن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية ، و تولى صوغ الاتهام عدو ابن الخطيب الألد القاضي أبو الحسن النباهي و أفتى بوجوب حرق كتبه ، و قد تم حرقها بالفعل في حضرة غرناطة بحضور الفقهاء و ذلك في منتصف ٧٧٣ هـ.[٢]

و في عام ٧٧٦ هـ عظمت محنة ابن الخطيب على يد الأمير أحمد ابن السلطان سالم الذي ثار على الحكم و استولى عليه من ابن السلطان عبد العزيز الطفل سعيد ووزيره أبي بكر بن غازي القائم بأمر الدولة .

فبعد أن استقر له الحكم بادر إلى القبض على ابن الخطيب و قدمه إلى المحاكمة تنفيذا لوعده الذي قطعه لابن الأحمد الغني بالله الذي مدَ له العون في ثورته هذه و عزروا ابن الخطيب و عذب أمام الملأ و قتل في سجنه خنقاً و ذلك على يد بعض الأوغاد الذين أرسلهم له الوزير سليمان بن داوود ليلاً، و من ثم أحرقت جثته و دفن في فاس . و هكذا أسدل الستار على حياة هذا الرجل العبقري المبدع .

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج١ ، ص٣٣.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج١،ص٣٦

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره و شعرائه فقد بلغ في النظم و النثر مرتبة عظيمة ، و تفوق فيهما على حد سواء .و قد عرف ابن الخطيب في ضرب من النثر أبدع فيه و تميز هو النثر السلطاني أو الوزاري أو السياسي و له في هذا النوع من المكاتبات تراث ضخم و متنوع.

و له رسائل أدبية و علمية و مصنفات عديدة في التاريخ و التراجم ، و قد أشار إلى أهم كتبه في ترجمته لنفسه في كتاب الإحاطة [1] لقد أورد لنا ابن خلدون مصرع ابن الخطيب في تاريخه .

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج١،ص٣٦

## المقدمة

يعد خطاب المقدمات خطابا حديثا في الثقافة الغربية ، لكنه قديم و أصيل في الثقافية العربية يستطيع أن يشكل نوعا معرفيا و شكلاً ثقافيا قائما بذاته ، تظهر تجلياته في مقدمات المصنفات و الرسائل الأدبية و التاريخية والاجتماعية، و الفلسفية ، مثل مقدمة ابن خلدون الشهيرة لكتابه العبر على سبيل المثال لا الحصر.[١]

و قد وردت كلمة (مقدمة) مختلطة و متداخلة مع عدد من المصطلحات كالتمهيد و المدخل و التصدير و المطلع و الاستهلال ، فهناك من عدها أنوعاً للمقدمات [٢] ، و منهم من رأى أنها مصطلحات مختلفة لفن واحد و ما يرجح هذا الرأي أن معاجم اللغة و قواميسها خلت من وجود فارق حاسم يمكن أن تستعين به على وضع حدود فاصله تمكننا من تحديد كل مصطلح من هذه المصطلحات حتى نطلق عليه تمهيداً أو استهلالاً أو تصدراً ..الخ .[3]

تعد المقدمة بوصفها نصا موازيا من العتبات التي شغلت حيزا مهماً في الدراسات النقدية الحديثة و ذلك "لكونها تساعد إلى جانب نصوص موازية أخرى كعنوان للنص و اسم المؤلف و الإهداء و الغلاف و غيرها ، على التعرف على محيط النص ، والإلمام بمقاصد مؤلفه ، و كيفية تلقيه من قبل جمهور القراء عموماً " [٤] و لأهميتها فقد عدها جنيت جنساً مستقلاً شأنها شأن العنوان إذ يقول :" إن التقديم كالعنوان هو جنس "[٥]

[1] ينظر يسار ، عبد الواحد الخطاب المقدماتي ، مجلة علامات ، النادي الأدبي بجدة ،مجلد ١٢ /ج٤٧ لسنه ٢٠٠٣ م ،ص ٦٢٦.

[2] المصدر نفسه ،ص٢٢٦.

[3] هناك بعض الدراسات التي ناقشت هذا الخلط و رأت أن الاستعمالات تختص بحقل معرفي دون آخر مثل مصطلح الفاتحة الذي يختص بالدراسات القرآنية. ينظر عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، ص٣٥ .

[4] يسار ، عبد الواحد الخطاب المقدماتي ،ص٦٢٦.

[5] حمداوي ، جميل السبميوطيقا و العنونة ، ص ١٠٥ . و ينظر طروس الأدب على الأدب ضمن كتاب آفاق التناصية المفهوم و المنظور ، ص١٤٥.

وتأتي هذه الأهمية للمقدمة مما تنهض به من مهام تهم المبدع و المتلقي في نفس الوقت فهي الوعاء المعرفي و الأيديولوجي الذي يضم رؤية المؤلف و نواياه و موقفه من العالم ، فهو يعدها فضاءه الفسيح الذي يمنحه إمكانية التعبير و التعليق و الشرح . (١)

و تسعى المقدمة إلى وضع القارئ في مجال المتن وذلك عن طريق وصفه و إلى أي جنس أدبي ينتمي إليه و إخباره بأصل الكتاب و ظروفه و مراحل تأليفه و قصد مؤلفه ، و هذا ما يمكن اعتباره أو نصطلح عليه بإستراتيجية البوح و الاعتراف (٢). فهذه الإستراتيجية تهدف إلى توجيه القارئ الوجهة التي يبتغيها المؤلف ، و تنظم قراءته كما تهيئه إلى استقبال مشروع قيد التحقق سيكون مجاله متن الكتاب الذي تضمه الصفحات من أول كلمة بعد المقدمة إلى آخر كلمة في المتن (٣) .

فمع تعاظم مهام المقدمة تتقلص حرية القارئ في إمكانية تجاوزها إلى المتن مباشرة ، فهي تدشين للنص و كل تدشين يعني بالضرورة التعريف بهذا النص من حيث هو ميثاق تواصلي من نوع خاص يجري التوقيع عليه بين الكاتب و القارئ ، هذا الميثاق الضمني تحدد بنوده كيفيات تلقي النص الأدبي و التعامل معه في مستويي القراءة و التأويل فضلاً عن أنها تحمي النص من شطط التأويل و سوء التقدير . (٤)

و عليه فإن خطاب المقدمات خطاب استباقي على النص لاحق لم تجر معرفته و استقصاء عوالمه بعد ، و خطاب مساعد على اعتبار انه تعاقد قبلي ضمني أو صريح بين المؤلف و قارئه من أجل ضمانات حد أدنى من الفهم المناسب . و أما آخر ما يوصف به خطاب المقدمات أنه خطاب واصف يختزل النص و يكثفه دون أن يعني ذلك أن قراءته قد تغني عن قراءة المتن (٥).

و للمقدمة أنواع عدة من حيث الشكل : إما أن تكون نثرية أو شعرية ، و يعد الشكل النثري هو أكثر الأنواع استقراراً لدى المبدعين ، فهو الشكل الذي يمنحهم وعاء معرفياً و

---

[1] أشهيوت، عبد المالك، خطاب المقدمات في الرواية العربية ( التنوع والتشكيل والوظائف الفنية)، عالم الفكر، الكويت، مجلد ٣٣، العدد ٢ لسنة ٢٠٠٤م، ص ٩٢.

[2] بلعابد، عبد الحق: مدخل إلى عتبات النص ، ص٥١

[3] بلعابد، عبد الحق: مدخل إلى عتبات النص ، ص٥٢

[4] ينظر: بلعابد، عبد الحق: مدخل إلى عتبات النص ،ص٥٢ ينظر خطاب المقدمات ،ص٥٢.

[5] يسار ، عبد الواحد الخطاب المقدماتي ، ص٩٢-٩٣

أيديولوجيا تختزن به رؤية المؤلف و موقفه من إشكاليات عصره .[١] و هو الشكل الغالب على خطاب المقدمات في متون نصوص هذه الدراسة فكلها نثرية دون استثناء . و أما من حيث زمن الكتابة فهي : إما متزامنة مع المتن أو لاحقة عليه يقول جنيت :" إن المقدمة عنصر نصيٌ محاذ و داخلي و هي أيضاً أصلية مواكبة للطبعة الأولى أو لاحقة تصاحب الطبعة الثانية أو متأخرة عادة بنفس الوصايا النقدية في مرحلة متأخرة من عمر الكتاب "[٢].

و أما من جهة أصناف المقدمين فإن جنيت يتميز بين ثلاث منها :

الأول : المقدم الحقيقي أي هو صاحب المقدمة و المتن معاً؛ أي تقديم ذاتي يكتبه المؤلف مستعينا بضمير (الأنا ).

الثاني : مقدم آخر ؛ أي تقديم غيري يكتبه شخص آخر و تكون شخصيته ذات باع طويل في الحقل نفسه.

الثالث : المقدم المتخيل ؛ وهو التقديم الذي ينسب إلى شخصية من صنع خيال الكاتب الحقيقي . [٣]

إن للنصوص التي قيد الدراسة خصوصية تفرضها علينا المدة الزمنية التي تفصلنا عن زمن التأليف ، إذ نعلم أن هذا المتون قد ألفت القرون الماضية و لهذا السبب فإنها بحاجة إلى تحقيق يعيد هيكلتها ، و يخرجها للقارئ في قالب جديد يمكنه من الإطلاع عليها و الإفادة منها.و لكي يكون التحقيق مكتمل الجوانب لابد أن تصحبه مقدمة يخططها المحقق حول المتن المحقق و صاحبه.

و نتيجة لهذه الخصوصية فإن الكتاب المحقق يضم نوعين من المقدمات : مقدمة أصلية توجد مع متن الكتاب ولا تنفصل عنها ابتدعها المؤلف نفسه (ذاتية). و مقدمة ملحقة بالكتاب تفصلها عنه مدة زمنية طويلة نسبياً يضعها المحقق (مقدمة غيرية ) ، و قد تعتمد الثانية على الأولى بشكل كبير .

---

[1] بلعابد، عبد الحق: مدخل إلى عتبات النص ، ص ٣٤

[2] يسار ، عبد الواحد الخطاب المقدماتي ص٩٠ــ٩١

[3] يسار ، عبد الواحد الخطاب المقدماتي ، ص٩٠-٩١.

و لكي يتصف العمل بالجدية فلا بد أن تصحبه مقدمة يخططها المحقق يدور محورها حول المؤلف و نصه يضع فيها الخطوط العريضة حولهما . و تتصدر هذه المقدمات المتون الأصلية ، و تكون بلغة يغلب عليها التقرير ، فالمحقق يؤدي حقائق و معلومات قد عرفها أو عثر عليها في بطون المصادر القديمة عن النص و صاحبه ، و قد تطول هذه المقدمات أو تقصر و ذلك حسب ما لدى هذا المحقق من مادة و معلومات ، و قد تكون هذه المقدمات نصاً نقديا يضع فيها المحقق آراءه النقدية و الإستراتيجية حول النص.[1]

[1] يسار ، عبد الواحد الخطاب المقدماتي ، ص٩١ و ينظر مدخل إلى عتبات النص ، ص٤٨-٤٩.

**(مقدمة ليفي بروفنسال ):**

يستهل ليفي بروفنسال مقدمته التي صدر بها كتاب مذكرات الأمير عبد الله بتصريح يؤكد فيه أن المصنف الذي وضع بين دفتي هذا الكتاب هو كل ما عثر عليه للآن و انه قد سبق له أن نشر منه في مرتين :

أولاً : ثلاث قطع ثم قطعتين واسعتين في مجلة الأندلس الصادرة في مدريد في عام ١٩٣٥ -١٩٣٩، و في عام ١٩٤١م.

و أنه سوف يصدر ترجمة باللغة الأسبانية بعد فترة وجيزة بتوقيعه و توقيع زميله الأستاذ غرسية غومس ، المجموع الذي ألف بين أجزائه اليوم ما عدا الصفحة الأولى و فراغاً طويلاً في وسط الكتاب . و من ثم يذكر أنه سوف يصحب هذه الترجمة مقدمه مفصلة تضم بعض الملاحظات التاريخية و الجغرافية . أن هذه التصريحات تدل على أن ليفي بروفنسال له مع هذا الكتاب صحبة طويلة أعطته خبرة كافية عنه ، و على هذا فإن أي معلومة حوله لا يمكن أن تكون محل شك .

و على العموم فإن باحثا مثله لا يمكن أو يورد لنا أقوالاً و معلومات دون أن يتأكد من صحتها .

ينتقل بعد ذلك ليؤكد نسبة هذا الكتاب لصاحبه المذكور على الغلاف و ذلك عن طريق إيراده بعض الملاحظات الواردة في بطون بعض المصادر القديمة التي عثر عليها أثناء بحثه و دراسته يقول : و قد كنا نعرف ، بفضل إشارة واردة في الكتاب " الحلل الموشية " المجهول المؤلف ، من الأمير عبد الله كان قد دون تاريخاً عن الدولة التي أسستها أسرته في أسبانيا و التي كان هو آخر ممثليها .و عندما أصدرت في عام ١٩٣٤ أول طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب " أعمال الأعلام " لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية ( ص ٢٩٩ ) :

(( وقفت على ديوان بخط عبد الله بن بلقين ألفه بعد خلعه من مدينة أغمات و قرر فيه أحواله الحادثة عليه مما يستظرف من مثله ، أتحفني به خطيب المسجد بأغمات رحمه الله )) و بفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب نعرف أن ابن الخطيب قد زار أغمات و زار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ هـ (١٣٩٠ م )

فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفسه هذه النسخة ، فهو على الأقل نسخة ثانية كتبت عن الأصل و قبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : "صح ، أصل " [١] .

نلاحظ إن الفقرة الأخيرة من النص السابق قد أكد فيها المحقق على النسخة التي اعتمد عليها في تحقيقه ، فإذا لم تكن هي نفس النسخة الأصل فهي على الأقل نسخة ثانية كتبت عن الأصل وقوبلت معها، مستدلا على ذلك من العبارة المترددة "صحّ، أصل"..

و ينتقل بعد ذلك إلى إثبات عنوان الكتاب الأصلي من خلال إشارة عثر عليها في كتاب المرقبة العليا لمؤلفه ابن الحسن النباهي عند تحقيقه له يتبين من خلالها أن كتاب عبد الله كان موسوما "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة ".

يكمل بروفنسال تصديره هذا بنبذه تاريخية عن صاحب الكتاب مثبتاً فيها اسمه و لقبه و متى ولد و متى تولى الحكم و كيف عزل عنه و نفي إلى أغمات على يد المرابطين حتى يصل إلى زمن تأليف الكتاب . و ينوه إلى أهميته التاريخية و السيكولوجية .

و في ختام هذا التصدير يورد المحقق ثلاث ملاحظات مهمة :

الأولى : تتعلق بالمخطوط الذي حققه إذ قدم له وصفا من حيث عدد الأوراق و حجمها ، و الخط الذي كتبت به و أين هي الآن .

و تتعلق الثانية : بملحقين أرفقهما إلى النص الأصلي يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب " البيان المغرب " لأبن عذارى المراكشي ، و من كتاب ( الإحاطة في تاريخ غرناطة) لابن الخطيب ، يتعلق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه و بشخصيتين هامتين في دولته

الثالثة : فإنها تشير إلى اللغة التي كتب فيها هذا النص فإن صاحبها قد تأخر في بعض تعابيره باللغة العامية الأندلسية.

الرابعة : فإنها تتعلق بالعنوانات الداخلية و الفرعية الموجودة في النص و ذلك أنها من صنع المحقق و ليست موجودة في صلب النص الأصل .

---

[1] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ص ٦- ص ٧.

و هذه الإشارة الأخيرة في رأيي في غاية الأهمية للدراسيين فإنها تضعهم على خط مستقيم على الخط السليم حتى لا يذهب بهم الظن إن هذه العنوانات من صنع صاحب النص الحقيقي.

**( مقدمة محمد السليماني محقق كتاب قانون التأويل ):**

يفتتح تصديره بعبارات مدح يخبرنا من خلالها عما كان يعرف ابن العربي المتحدث الفقهية العلامة الأديب المفسر ، و هو المثقف واسع الثقافة ، و المكثر من التأليف ، فلهذا كله و لان ابن العربي لم يحظ بعناية الدراسيين أقبل على تحقيق كتابه بعد طول تردد خوفا مما سيواجهه من صعوبات أمام هذا الإمام العلامة .

و بعد ذلك قسّم تقديمه إلى عدد من العنوانات .

١. عنوان الكتاب : أثبت فيها عنوان الكتاب و ذلك عن طريق وروده على هذا النحو في معظم كتب ابن العربي الأخرى و في أغلب المخطوطات الكتاب نفسه، و عند كل من ترجم لابن العربي في القديم و الحديث.

٢.توثيق نسبة الكتاب إلى ابن العربي

٣.بواعث تأليف الكتاب :أورد فيها ما قد أفصح به المؤلف عن ذلك في مقدمة الكتاب نفسه وكتاب آخر لابن العربي اسمه (القبس)

٤.زمن تأليف الكتاب :لقد حدد المحقق زمن تأليف الكتاب من خلال إشارة أوردها ابن العربي في كتاب اخر له وأثبتها المحقق في تقديمه.

٥.موضوع الكتاب وتحليل مختصر لمضمونه

٦. مصادر الكتاب

٧. قيمة الكتاب :في رأي المحقق تكمن قيمة الكتاب في جوانب متعددة من أهمها

أولا :أنها تكشف عن جانب مهم من شخصيته ابن العربي

ثانيا:الجانب الأدبي من تعبير رفيع وأداء راق .

وثالث هذه الجوانب: الجانب الثقافي، أي أنه يعكس ثقافة القرن السادس الهجري.

وأما آخر هذه الجوانب الجانب الصوفي إذ يعكس هذا الكتاب بداية دخول التفسير الاشاري إلى مدارس التفسير في الأندلس .

٨. وصف المخطوطات المعتمدة في التحقيق .

٩. منهج المحقق في التحقيق .

## مقدمة محمد عبد الله عنان لكتاب الإحاطة

يبدأ محمد عبد الله عنان مقدمته التي تستغرق سبعين صفحة من القطع الكبيرة قصته مع تحقيق هذا المصدر الأندلسي الهام ليخلص إلى أهميته على الصعيد الأدبي و التاريخي , فهذا الكتاب هو بلا ريب أشهر كتب ابن الخطيب و أضخمها و أقيمها .

وبعد استعراضه لعنواناته المختلفة حسب ورودها في المخطوطات فأنه ينتقل إلى وصف دقيق لفحوى الكتاب و منهج مؤلفه و أما عن زمن تأليف كتاب الإحاطة فان له أراء و أقوال خاصة به اعتمد فيها على بعض الإشارات الواردة في صلب كتاب الإحاطة .

وبعد أن ينتهي من مناقشة هذه القية ينتقل إلى وصف النسخ و المخطوطات التي تعامل معها , وكان هدفه من وراء ذلك إثبات عدد الأجزاء التي وصلت إلينا من هذا الكتاب . وأما سيرة ابن الخطيب صاحب الكتاب فقد أفرد لها محمد عبد الله عنان عنوانا مستقلا اعتمد فيه على ما ترجمة ابن الخطيب عن نفسه وعلى ما ورد في المصادر التي ترجمت له .

إن هذا الوصف السريع لهذه المقدمات لا يغني عن قراءتها , فهي عتبة غنية بالمعلومات القيمة عن هذه المصنفات و أصحابها تسعف كل طالب علم يرغب في الاطلاع و البحث و الدراسة , وهي عتبة قرائية توجه المتلقي إلى الاحالات التي تمكنه من التقصي , و التأكد , والرد والمناقشة حول أي قضية تطرأ أو يشك في صحتها . وأن المتمعن في هذه المقدمات يمكن أن يرى أنها عبارة عن :

١. بحث صغير حول النص و مؤلفه .
٢. تكاد أن تكون على نهج واحد من تعيين للعنوان , وإثبات نسبة الكتاب إلى صاحبه , وذكر بواعث التأليف , و تحديد زمن التأليف ووصف فحوى الكتاب وبيان أهميته وذكر مصادره , وتقديم وصف دقيق للمخطوطات المعتمدة في التحقيق , وفي الختام يعرج على منهجه في التحقيق .
٣. أما اللغة المستعان بها على بيان ما تقدم فإنها تميل إلى التقرير , إلا في بعض المواضع التي يتصدى فيها المقدم إلى الجوانب الأخلاقية والعلمية , والأدبية للمؤلف , فان اللغة الأدبية أو الشعرية هي التي تكون حاضره .
٤. إن هذه المقدمات تشكل عتبة قرائية مهمة لما تحتوي عليه من إشارات توجه القارئ و تساعده في تحديد وجهته سواء أثناء قراءته للنص أو في أثناء بحثه عن بعض

الجوانب التي يرغب في معرفتها أو التحقيق منها مما يحمي النص الأصل من بعض الشطط في التأويل أو الوقوع في الهفوات التي تؤثر على النص الأصل سلبا .

٥. إن معظم نصوص المقدمات هي في حقيقتها دراسات وصفية تدور حول متعلقات النصوص دون أن تقدم نصا نقديا جادا للمتن نفسه .

**" مقدمة الأمير عبد الله " :**

تمتاز فاتحة الكتاب عند الأمير عبد الله بأن لها فرادة و تميزا , وذلك فإنها لم تأت على شكل خطبة كالذي عهدناه عند أهل الكتابة و التأليف , و إنما هي تأملات ذاتية و نظرات عامة وضع لها ليفي برفنسال عنونات داخلية تحمل فحوى تلك الفقرات .

و أول هذه النظرات التي باشرها في كتابه هي :

القواعد التي يتعين على المؤلف إتباعها , ثم اتبعها بحديث عن حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به , ومن ثم قصور القياس دون عون من الوحي , ثم اتبعه بضرورة التعليم و التجربة منتقلا منه إلى تكوينه السياسي , ومن ثم صعوبة الإنصاف التاريخي ويختم تأملاته هذه بالمصادفة وأثرها في التاريخ .

إن هذا التنوع في المواضيع في هذا الفصل قد يحمل البعض إلى القول أن هذه الموضوعات لا تعدوا أن تكون أشتاتا مختلطة من المعلومات و الآراء الخاصة التي تخلو من أي رابط يشد بعضها إلى أزر بعض غير أننا لا نود أن نتبع هذا الرأي دون أن نبحث في هذه العنوانات فربما نمسك في زمام الخيط الذي يجمع بين أشتات هذه التأملات

وعلى الرغم من أن النص الأصلي وجد فيه خرم و فقدت منه الصفحة الأولى فان الكاتب بدأ كتابه بقضية مهمة : القواعد التي يتعين على المؤلف إتباعها عند الكتابة وهي قضية دار حولها سجال طويل عند الكتاب منذ زمن بعيد ؟

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا لماذا بدأ الأمير عبد الله كتابه بهذا الحديث تحديدا : وحتى تتسنى لنا الإجابة على هذا السؤال فلا بد لنا من استعراض بعض الأفكار التي بثها هنا:

وأول هذه الأفكار، الشفافية و الوضوح " الذي يدركه السامع أو القارئ , بأبسط السبل فوجب لذلك تجنب "[١]، "الغريب الذي لا يعقله كثيرا من الناس فان ذلك يولد خشونة اللفظ الذي تمجه الأسماع , و الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب "[٢].

وأما الفكرة الثانية فهي من المنبع نفسه إذ يرى أن الصدق أساس الشفافية تسيِّجُهُ الجرأة التي تدفعه إلى قول الحقيقة دون خوف من الأحداث أو وجل ف" لا خير في رام رعش , ولا متكلم هائب , فان الهيبة فرع [ من ] الحذر , ومن حذر , فقد عقله , ومن خاف , تكدر عيشه , ولا تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان , ويذكى بها الجنان فالنفس إذا منعت ما تشتهي , ترى مختلطة , وتصير كأنها بطوارق الخبل مختبطة "[٣]

ومع انه يدعو إلى الصدق والجرأة في الكلام فهو يضع حدا إذ يقول أنه يجب على الكاتب ألا يتبع هواه في أمره كله " فكل مفتون ملقن حجته , ولا عليه أن يرفض ذلك فيكون بانيا على غير أصل و عاملا لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره و يفسد حال نفسه ,وهو لا يشعر , بل يصرف نفسه على فرقين : يسعى في بلوغ أمله وإدراك مراده دون أن يكون ذلك مخلا بذكره ولا غرضا لعدوه وكل بيان ما لم يكن صوابا , فهذر "[٤]

وبعد وضعه لهذا الحديث فانه يتسلل إلى غرضه من وضع هذا الكتاب فهو " يذكر أن له غاية من هذا التأليف ينفرد بها فيؤكد أنه لا يهدف إلى الأطراف والأغراب أو التأديب أو النفع"[٥] .

(( وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذكر خبر يوصف ويأتي عليه نادرة مستطرفة , أو حكاية مستغربة , أو معنى يؤدي إلى تأدب و انتفاع ))[٦]

---

[1] القاضي , محمد , كتاب التبيان لعبد الله بن بلقين من مذكرات أم سيره ذاتية , ص ٣٨.

[2] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله , ص ١ .

[3] المصدر نفسه، ص١

[4] المصدر نفسه ,ص ١_ ص ٢

[5] القاضي , محمد , السابق , ص ٤٤ .

[6] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٢ .

وإنما كان همه الذي يسيطر عليه وحثه على النطق و البوح هو ما قيل فيه من أقوال وما اتهم به من اتهامات فحديثه (( يؤدي إلى القيام بحجة صاحبه و الاعتذار عنه من أمر قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة فنطق هذرا , وساعد عليه أقواما لم يخسروا في عرض غيرهم شيئا , وطعنوا على غائب أو ميت لم يجر الجواب عن نفسه , أو دليلا لم ينتصر لعرضه )).[١]

إن الرجل يلمح من خلال هذه الفقرة إلى غايته الخاصة التي تدفعه لوضع هذا الكتاب , فهو يود الدفاع عن نفسه بتقديمه برهانه الذي يسطع بنور الحق فالناس لا يؤمنون إلا بالدليل القاطع البين .

من الملاحظ على الكاتب في هذه الفقرة تحديدا أنه يلح بشكل غير مباشر على صدق ما يرويه و عدم تغييره أو تزييفه الأحداث بتأثير الخوف ( فمن حذر فقد عقله , ومن خاف تكدر عيشه , و لا تصح مع هذا قريحة ينطق عنه اللسان )) . [٢]

فهذا الإلحاح الخفي هو العقد الذي أبرمه الكاتب مع قرائه لذا فلا بد له أن يتصدر فاتحة هذا الكتاب ويكون الخطوة الأولى التي خطاها الرجل إلى سلم الثقة الذي يود أن يصعده مع قرائه خطوة خطوة .

وحتى يكون أمره مقنعا فانه ينتقل إلى موضوعين : يبدوان في ظاهر الأمر منبتين عن الموضوع الأصل ومنفصلين عنه : الأول : حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به . وأما الثاني وهو : قصور القياس دون عون من الوحي , إن هاتين الفقرتين تحويان أفكارا تدعم الغاية من وراء تأليف هذا الكتاب فالرجل يشير إلى أربعة أفكار رئيسية هي :

١) أن الإنسان لم يخلق عبثا , وأن لكل واحد منا دورا وجد من أجله ومنوطا به " وما يصلح لنفسه لا يصلح لغيره , وأصل العلم كله معرفة الإنسان بدينه , ويقينه بمعاده , و أنه لم يخلق عبثا " [٣].

---

[1] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٢ .

[2] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ١.

[3] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٤.

٢) أن الله جعل يرسل الرسل في الناس و لا " يترك الخلق سدى مهملين , وهو قوله تعالى (( وإن من أمة إلا خلا فيها نذير )) , و قد كانت الضلالة بينة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبدهم بعضهم لبعض ما لم يكن في حكمة الله و مشيئته أن يترك المرء و دينه ولا يمهل , من يعبدوه حتى بعث محمدا _ صلى الله عليه ولم _ بالحق بشيرا ونذيرا , فصدع بالقرآن , وجاهد في الرحمن وسن السنن و أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان قد ضل أهل الكتاب و اختلفوا , ورد بعضهم على بعض بما لا يمكن أن تصح لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ... , فختم الله الرسالة بنبينا _ عليه السلام _ ليبين له ما فرضه عليهم , ويظهره على الدين كله ! وان يقولوا :( ما جاءنا من بشير و لا نذير )) و قال الله تعالى :( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ))فالحجة عليهم ظاهرة على ما بيناه فيما يعطى العقل و القياس)) (١) .

٣. قصور الإنسان عن القياس دون العون من الوحي " وقد كانت معرفة البارئ تعالى بالعقل اضطرارا لقوله (( : ولئن سألتاهم من خلقهم ليقولُنَّ الله )) . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلا مستعفين لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر , ولغلب جهالهم و عامتهم التظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه , فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهدى ورحمة، فمن عرف الله قبل بالعقل أن يتم عليه نعمته ، فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب، وأنذره بالعقاب ، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقذ إليه عامة الناس طوعا أو كرها. ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟

[٢]فكيف الآخرة التي لا يوقن .... الذين أبانوا عنها ؛ والظن أكذب الحديث و الشرع ، ومن تقلده بطل رأيه )) (١) .

٤. لكل أوانه وزمانه لا يتعدى وقته" وليس في العالم أمر يثبت وعلى هذا بنيت الدنيا، وكذلك الدول والملل: كل يأتي في أوانه، ولا يتعدى وقته، والدين صلاح العالم، ولا عدل إلا به، والملك يعضده ويحميه، وهو قوام العالم على ما رتب الباري عز وجل". (١)

---

[1] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٤ – ص ٥.

[2] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٦ .

إن هذه الأفكار ترتبط بغاية المؤلف من وراء تأليفه هذا الكتاب فكأني بالرجل يود أن يقول إن الله في عظمته عز وجل لم يترك البشر دون برهان يهتدون به، ويكون دليلهم وحجة عليهم في آن معا، ولأن عقولهم قاصرة عن القياس وإدراك الحقيقة وحتى لا يرجمون بالظن والغيب فإنه يرسل لهم المرسلين مبشرين ومنذرين، ليدركوا حقيقة دينهم ودنياهم، وحقيقة أنفسهم فلكل إنسان دور خُلِق من أجله ومنوط به دون سواه، وله زمانه وأوانه. فهذا الله في عظمته وقدرته فكيف بي أنا البشر مثلكم، أطلب منكم إنصافي دون أن أقدم لكم برهان ودليل براءتي رميتموني به .

فهاكم كتابي فانه دليل براءتي ، ومتى وصلكم وقرأتموه فهنا يكمن دوركم ويبدأ بأن إنصافي مما رميتموني به مع أني أعلم أن التاريخ لا ينصف أحدا " على أن الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا في مدتها و أيام سعادتها ولو كانت ظالمة ؛ فلا يقع فيها الذم إلا بعد ثوابها ، ولو كانت عادلة . و الناس مع من سبق إلا من نظر بعين العدل، لا بعين الهوى ؛ وقليل ما هم " [٢].

ولأن إيمانه قوي بفكرة القضاء و القدر أن لكل إنسان دور خلق من أجله فهو يتحدث عن نفسه وعن المنصور بن أبي عامر طارحا صورتين مختلفتين كان للقدر فيهما دور أساسي، فمع أنه من أبناء الأمراء وسليلهم ورُبِّي في مدرستهم ونشأ في كنف جده السياسي المحنك والتي منحته القوة والشرعية إلا أن القدر لم يكن إلى جانبه بل كان عليه حتى وصل إلى ما وصل إليه.

وأما المنصور فهو على العكس منه ومع ذلك فان الأقدار أتت معه وإليه فبمساعدتها اخذ مكانته التي عرفت عنه في التاريخ "وقد كان المنصور بن أبي عامر على دقة شانه قبل، ولأنه لم يكن من أهل البيت المملكة، فيستحقها عن الآباء ،ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظائم بدهائه و مخرقته على العامة، مع ما هيئت السعادة له ( وكان أقوى الأسباب في سلطانه) .وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم انه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره ".[٣]

ما الخيط الذي ينظم أشتات هذه الموضوعات المتفرقة؟

---

[1] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٩.

[2] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٣.

[3] بن بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله ،ص١٥

أعتقد إن الإجابة يمكن تلمسها من خلال عرضنا السابق حول هذه العنوانات ،فالغاية مـن وراء تأليف هذا الكتاب هي الخيط الرفيع والخفي الذي ينظم أشتاتها ،فإن هذه الغاية هـي التـي دفعته للبوح والاعتراف وبسط الحقيقة إلى الناس ،والكتاب كله وجد من اجل الدفاع عن الـنفس "وقد عبر عن ذلك بما يملأه حناياه من أنفة لسوء المقال ونشاط العقال على ترفيع الذكر "[١]

**"مقدمة ابن حزم "**

وكما هو عرف أهل الكتابة يبدأ ابن حزم خطبة رسالته بالحمد والثناء على الله والـصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة وعلى جميع أنبيائه عامة .

[1] القاضي ،محمد ،ص٤٤ومذكرات الأمير عبد الله ص٢

منتقلا بعد هذا إلى موضوعه بعبارة كثر ترددها بين المؤلفين القدامى وهي قوله :إما بعـد ،فإن هذه العبارة تكون وسيلتهم التي يتوسلون بها حتى يبدءوا بالإفصاح عن غرضهم الرئيسي . ونرى ابن حزم يبدءوا خطبته بالدعاء لنفسه ولصديق كتب له خطابا يطلب منه أن يصنف لـه الرسالة.(في صفة الحب ومعانيه)فجاء الرد ابن حزم

على الطلب هذا الصديق المجهول الاسم [١]

في خطبة هذه الرسالة التي خطاها على شكل رسالة جوابية مبدوءة بالدعاء لنفسه ولهـذا الصديق بالعصمة "عصمنا الله وإياك من الحيرة ،ولا حملنا ما لا طاقة لنا به ،وقيض لنـا مـن جميل عونه دليلا هاديا إلى طاعته ،ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه ،ولأوكلنـا إلـى ضعف إلى ضعف عزائمنا ،وخور قوانا ووهاء بنيتنا ،وتلدد آرائنا ،وسوء اختيارنا ،وقلة تميزنـا ،وفساد أهوائنا."[٢]

ولكي تأخذ الخطبة هذا الشكل (( رسالة جوابية )) يخبرنا ابن حازم كما يخبر صـديقه ان خطابك قد وصلني من مدينة المرية إلى حيث كنت أقيم في حضرة شاطبة .

وبعد ذلك ينتقل إلى إيراد بعض العبارات التي نستشف منها طبيعة العلاقة التي تربط ابـن حزم بهذا الصديق وما يحظى به من مكانة عنده فهو أثير لديه ذو ود صحيح لابن حـزم ،فـأن هذه المكانة هي السبب وراء نزول ابن حزم عند رغبة هذا الصديق ليصنف له هـذه الرسـالة يقول:"فإن كتابك وردني من مدينة المنوية إلى مسكني بحضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك ما يسرني ،وحمدت الله عز وجل عليه ،واستدامته لك ،واستزدته فيك. ثم لم البث إن اطلـع علـى شخصك ،وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتنئي الديار ، وشحط اللمـزار ، وطـول المـسافة وَغَوَلِ الطريق. وفي دوني هذا ما سلى المشتاق ، ونَسَّى الذاكر ، إلا من تمسك بحبل الوفـاء مثلك ، ورعى سالف الادّمة ، ووكيد المودات ، وحق النشأة ، ومحبة الصبا وكانـت مودّتـه لله تعالى .ولقد اثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون وكانت معانيك فـي كتابـك

---

[1] لم يذكر ابن حزم اسم هذا الصديق في الطوق ولكن الطاهر احمد مكي وإحسان عباس يرجحان إن هذا الصديق هو نفسه صاحب القصة التي رواها ابن حزم عن صديق له ورد عليه من مدينة المرية حيث كـان يقـيم فـي الشاطبة وما كان له إن يصل ويستقر في الشاطبة حتى تقع الكارثة وتسد في وجهه أبواب العودة إلى هوى لـه في المرية لاشتعال النار الحرب بين المجاهد وخيران العامري. إحسان عباس ،رسائل ابن حـزم الأندلـسي ج، ص٤٠.

[2] ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، ص٣ .

زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلى بإقبالك غرضك، وأطلعتني علـــى مـــذهبك ،سجية لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك وسرك وجهرك بحذوك الـــود الـــصحيح الذي أنالك على أضعافه ، لا ابتغي جزاء غير مقابلته بمثله"(١)

ومع غياب اسم هذا الصديق الأثير لدى ابن حزم وعدم الإفصاح عنه فإننا لا نـــستطيع إن نثبت ذلك الدافع أو ننفيه ،فليس هنالك ما يمنع من أن يكون الأمر كما ذكر ،أو يكـــون الـــصديق المذكور هو تعلة للإفصاح ووسيلة للبيان على عدد بعض الكتاب القدماء(٢)

وبعد أن استجاب ابن حزم لطلب صديقه وعزم على كتابة رسالة تكون دراسة مكتملة في الحب ومعانيه الموضوع المقترح.

وأسبابه وأغراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة دون تزيد أو تفنن ،اخذ في وضـــع منهجه في تناول هذا ولما كانت القاعدة التي يود أن ينطلق منها هي :قول الحقيقة من غير تزيـــد أو تفنن فانه يلتزم بإيراد التجارب الواقعية مما وقع له هو نفسه أو مما وقع لغيره ،وحدثـــه بـــه الثقات أي مما وقع تحت حسه ،وما اطمئن بوجدانه وعقله إلى روايته .

ولذلك فإن ابن حزم صفحا عن إخبار الأعراب ومتقدمين فسبيلهم وغير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم يقول :"والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي ،وأدركتـــه عنـــايتي وحدثني به الثقات من أهل زماني ....والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حـــدك ،والاقتـــصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين فـــسبيلهم غيـــر سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم"(٣)

ولما كانت أخباره واحاديثة مستمدة من الواقع الأندلسي الذي شاهده أو حدثه به الثقات من أهل زمانه فإن إيراده للأسماء قد يسيء إلى سمعة بعض الأشخاص المرموقين فانه يعتذر عـــن الاغفالة الكناية عن هذه الأسماء فهي إما عورة لا تستجيز كشفها ، وإما تحفـــظ صـــديقا ودودا ورجلا جليلا ، ولهذا اقتصر ذكر الأسماء على من لا ضرر في تـــسميتهم إمـــا لان الحادثـــة

---

[1] ابن حزم الأندلسي: الطوق ،من ص٣- ص٤

[2] عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي ،دار المعارف في مصر ،ج٢،ص٢٢٨بتصرف. ومن الخطب التي أخذت شكل الرسالة الجوابية عند القدماء مقدمة ابن وكيع لكتابه المصنف ينظر :ابن وكيع المصنف للسارق والمسروق منه تحقيق يوسف نجم دار صادر بيروت ،ص١-ص٣.

[3] ابن حزم الأندلسي: الطوق ،ص٥-ص٦

مشهورة قد تداركها الناس وعرفوا صاحبها فلم يعد ذكر اسمه زائدا في جلب الأذى لسمعته ،وإما لان المخبر عنه راض بنقل ذلك الخبر غير منكر شيئا على ناقله"فاغتفر لي الكناية عن الأسماء ، فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقا ودودا ورجلا جليلا.وبحسبي إن اسمي من لا ضرر في تسميته ،ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره ،إما لا اشتهار لا يغني عنه الطير وترك التبيين ،وإما لرضي المخبر عنه بظهور خبره ،وقلة إنكار منه لنقله "[١].

وحتى يكتمل منهجه الواقعي فان ابن حزم يود الاستشهاد في هذه الرسالة بإشعار قالها هو لا بإشعار غيره ونبهنا إلى مضمون تلك الأشعار إذ لا ينصرف الذهن دائما إليه لان أصدقائه كثير ما كانوا يكلفونه نظم الشعر في ما يقع لهم من أحداث .

"وسأورد في رسالتي هذه أشعارا قلتها فيما شاهدته ،فلا تنكر آنت من رآها على أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ،فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر،وأكثر من ذلك فان أخواني يجشمونني القول في ما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم وكفاني أني ذاكرا لك ما عرض لي مما يشكل ما نحوت نحوه وناسبه إلي"[٢] .

إن هذه الفقرة تحمل في فحواها العقدة السير ذاتي عند ابن حزم كما أوضحنا لك في الفصل الأول وبعد إن فرغ من هذا القول خلص ابن حزم إلى الإبانة عن تقسيمه لهذه الرسالة التي جاءت على ثلاثين بابا .لقد جاءت هذه الخطبة على شكل رسالة جوابية نثرية حرص فيها صاحبها على حسن الصياغة والديباجة بلغة لطيفة أخَّاذةٍ خالية من التعقيد والتصنع، ولأن صاحبها حريص على أن تكون مقدمته العتبة الأولى التي توجِّه المتلقي فإنه قدم فيها دوافعه وغرضه ومنهجه وطريقته في الطرح وأبان عن جنس مؤلفه ومن أين استقى مادته إلى أن وصل إلى تقسيماته بانيا جسرا من العلاقة مع قارئه أساسها ثقةٌ مستمدة من إستراتيجيته الواضحة في البوح والاعتراف في الخطبة، والتي تدعمها أيضا العلاقة الوثيقة بين هذه الخطبة والمتن فهي، أي المقدمة، إيضاح له ولموضوعاته ومنهجه دون الخوض في التفاصيل مما يعني أن قراءتها مهمة وحتمية ولكنها لا تُغني عن قراءة المتن والغوص فيه. وأما من هو صاحب هذه المقدمة فإن الجواب يأتي من خلال عبارة الناسخ التي تعزو له القول من خلال قوله: قال

[1] ابن حزم الأندلسي: الطوق ، ص٥

[2] ابن حزم الأندلسي: الطوق ٦.

أبو محمد عفا الله عنه. ومن تلك الذاتية التي تصطبغ بها هذه الخطبة، بَدْءاً من الشكل المختار لبنائها ((رسالة جوابيّة)) إلى المضمون الذي ينم عن رجل ذي فرادة وتميز لا يحذو حذو الآخرين، بل له مذهبه الخاص " وما مذهبي أن أُنْضِيَ مطيَّة سواي، ولا أتحلى بحليٍّ مستعار والله المستغفر والمستعان، لا رب غيره" [١]

إن هذه الذاتية هي نفسها التي توحي لنا بأن هذه الخطبة صيغت في زمن متأخر أي بعد الفراغ من صياغة المتن، وما يرفع هذا الرأي ذلك الوعي الذي يتمتع به ابن حزم والمتمثل في وضعه للمنهج وتقسيمه الواضح للرسالة، فإن هذا الوعي وهذا الوضوح لديه لا يمكن أن يتأتيا له إلا بعد أن فرغ من كتابتها والتزامه هذا المنهج والتقسيم قدر الإمكان في الرسالة هما أيضا يرجحان ذلك.

وأما مراوحتُهُ بين الألفاظ التي تحتويها بين ما يُراد قوله، وما قيل، أو ما تم إنجازه وما يُنتظر إنجازه كقوله: ( موردا، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فاغفر لي، وسأورد، والتزمت) إنما فَرَضَتْها عليه شكل هذه الخطبة التي جاءت على شكل رسالة جوابية يخبر بها ابن حزم صديقه عن ما تكلفه من أجله، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته أي لما أنجزته كما تؤكد هذه العبارة.

وفي الختام أشير إلى أن الخطبة التي تحص على ذكر الغرض أو الدافع إلى التأليف باعتباره عنصرا جوهريا يقوم بدور تحديدٍ وتوجيهٍ لبقية العناصر المكونة لخطاب المقدمة من مؤلف ومتملق وفضا ووظيفة هي من نوع المقدمات التي يطلق عليها مقدمات التأليف، فالخطبة بهذا المعنى عبارة عن تعاقد ضمني أو صريح بين المؤلف وقارئه[٢].

---

[1] ابن حزم الأندلسي: الطوق، ص ٦.

[2] ينظر: بلال، عبد الرزاق، مدخل إلى عتبات النص، ص ٣٧.

## (( مقدمة قانون التأويل))

يعلن ابن العربي منذ الكلمة الأولى أن هذا المصنف هو رسالة من المستبصر بنقصه، المستعمر لنفسه، المضطر إلى ربه، المستغفر لذنبه، إلى جميع الطالبين والراغبين والسالكين سبيل المهتدين إنّ من صدُقت إليه رغبته، واستمرت عليه عزيمته في تحرير مجموع في علوم القرآن يكون مفتاحا للبيان ولج عند التوقف عن ذلك في العتاب وطمسَ في وجه الأعتاب، وأغلق إلى المغذرة كل باب [١].

ومن هذه العبارات يخلص ابن العربي إلى الأسباب التي دفعته لوضع قانون التأويل، وذلك على شكل حوار نثريّ منقول على لسانه، يذكر فيه أن طلابه ومريديه قد عاتبوه عن إعراضه عن تأليف كتاب في علوم القرآن بثلج حرارة الصدور ويكون مورداً لكل طالب علم، ومع أنه اعتذر متعللا بنفاد العمر إلا أن عُذره لم يقبل، محتجين بما سمعوه منه في حلقات الدرس ومجالس الذكر [٢].

وأما القبول فقد أورده ابن العربي على شكل اعتذار جميل في عبارات رائعة سلسة " فقلت: معاشر المريدين، أبلعوني ريقي، تعرفوا تحقيقي، وخذوا خاتمة كلامي يتبين لكم الفصل بين مرامكم ومرامي، واجمعوا ساعةً على إسعادي، فربما ساعدتموني بعد على مرادي". [٣]

في الختام يورد ابن العربي كيف لملم أواصرَ هذا الكتاب من الرقاع المتفرقة بين أيدي الناس والتي قد أملاها عليكم في وقت مضى " رأينا أن نجرد منه ما سلم في الرقاع الموجودة، مع ما حضر في الذكر، ليكون عنوانا لما جرى وتنبيها على فضل من تأوّب، وسرا وحجة لمن قال: قد تعدى من تمنى أن يكون مثل تغنى، ونقرن به من نكت المعارف، ما يقوم به مائل العذر ويتضح منه ما استبهم لكم من الأمر "[٤].

لقد وضع ابن العربي خطبة هذه الرسالة على شكل حوار دار بينه وبين طلابه ومريديه منقولا على لسانه هو مظهراً من خلاله عدة أمور، أهمها وأبينها أهمية هذا الكتاب ومضمونه،

---

1 ابن بشكال:قانون التأويل، ص٦٥.

2 ينظر ابن بشكال: قانون التأويل، ص ٦٥ – ص ٦٦.

3 ابن بشكال: قانون التأويل ص ٦٧.

4 ابن بشكال: قانون التأويل ص ٦٨.

وقد أوردها على لسان محاوريه مرة وعلى لسانه هو مرة أخرى، يقول على لسان محاوريه " وصمموا على أن العذر لا يلوح في هذا، لأن تلك الأقوال التي كنا نسمع لو تقيدت في قراطيس، لكانت رحضا لوَضَرِ الجهالة، وحسما لداء الحسادة، وبهتا لمن أحضر عناده، ولعمت منفعتها من تقبلها وردها، ومثلها كالغيث إذا همع أصاب الأباطح والرياض، وصاب على الحدائق والغياض. فيكون منها طائفة تمر عليها كالسيل في الانحدار، وأخرى تقبلته فحفظته على من يرد مع مرور الإعصار، وثالثة صرفته وجوه التفطن والاستبصار، ورابعة جمعت فيه بين العلم به والعمل في الأذكار [١].

وأما على لسانه هو" ونقرن به من نكت المعارف، مايقوم به مائل العذر، ويتضح منه ما اسبهم لكم من الأمر، ونشير إلى الممكن من قانون في التأويل لعلوم التنزيل يرشد المبتدئ إلى ضالة الطلاب ويفتح على المنتهي ما ارتج من الأبواب[٢].

وأما عنوان الكتاب فقد جاء صراحة على لسان ابن العربي في مقدمة الخطبة وخاتمتها وصرح فيها أيضا أنه ألف كتابا آخر عن مسيرة حياته اسمه " ترتيب الرحلة " لكنه شدَّ في معرض المقادير على حد تعبيره، وربما كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا عوضا عن كتابه المفقود، وأظن أن كتابه الذي أشار إليه لو بقي لوافانا الكثير عن رحلة ابن العربي إلى المشرق ومسيرته العلمية.

---

[1] ابن بشكال: قانون التأويل، ص٦٦.

[2] ابن بشكال: قانون التأويل، ص٦٨.

وأما لسان الدين ابن الخطيب فإن خطبته بدأت بحمد الله والصلاة على نبيه محمد والحمد هنا مقترن بفراغ ابن الخطيب من إنجازه لكتاب الإماطة ولم يتبقّ له من هذا العقد الذي نظمه إلا درة نفسه ينظمها في سلك هذا المصنف الذي ضم صوان درر ومطلع غرر. "وأما بعد حمد الله الذي يغفر الخطية ويحث من النفس اللجوج المطية، فيحرك ركابها البطية، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد، ميسر سبل الخير القاصدة الوطية والرضا عن آله وصحبه، منتهى القصد ومناخ الطية. فإني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضل النشاط، مع الالتزام بمراعاة السياسة السلطانية والارتباط، والتفت إليه، ورافقني منه صوان درر، ومطلع غرر، قد تخلدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم، بعد انطواء زمانهم، نافستهم في اقتحام تلك البواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعت باجتماع الشمل بهم، ولو في الكتاب، وحرصت على أن أنال منهم قربا، وأخذت من أعقابهم أدبا وحبا، وكما يقال، ساقي القوم، آخرهم شربا.

فأجريت نفسي مجراهم في التعريف، وحذوت بها حذوهم، في باب النسب والتصريف بقصد التشريف. والله لا يعد مني وإياهم واقفا يترهم ركاب الاستغفار بمنكبيه يزحم بما ارتفعت وظايف الأعمال، وانقطعت من التكسبات حبال الأعمال، ولم يبق إلا رحمة الله، التي تنتاش النفوس وتخلصها، وتعينها بميسم السعادة، وتخصصها. جعلنا الله ممن حسن ذكره، وقف على التماس ما لديه فِكْرُه، بمنّه" [١].

فإن هذه العبارات تعبر عن دوافع ابن الخطيب في تخليده ذاته واعترافه الذي حمل العقد السير ذاتي، فهو يود أن يترجم لنفسه أسوة بمن تُرجم لهم في كتابه الإحاطة، وفي الختام أود القول إن هذه المقدمة لم تكن مقدمة كتاب الإحاطة وإنما هي مقدمة ترجمته هو، وهي خاتمة كتاب الإحاطة في آن معا يخبرنا فيها أنه أنجز هذا الكتاب وأنه يودّ الشروع في تدوين ترجمته لتكون خاتمة الترجمات في هذا الكتاب.

[1] الخطيب، لسان الدين: الإحاطة، ص ٤٣٩.

## دوافع كتابة السيرة في الأندلس

تعد دوافع كتابة السيرة الذاتية من أهم الموجهات القرائية التي تواجه القارئ إلى فتح مغاليق النص, فهي الخيط الذي ينظم أشتات الفكر لدى المؤلفين "إذ تتراكم لديه خلال مسار حياته عواطف لم يجد لها مخرجا أو متنفسا في إطار الفعل أو الحركة, تنتفخ هذه العواطف في داخله فتملأ روحه حد الانفجار, وعندها يحس بالحاجة الماسة إلى تحرير نفسه ,عندها يتدفق عمله تلقائيا[١] فيخفف عليه العبء عند نقله تجربته إلى الآخرين , ودعوتهم إلى المشاركة فيها, فهي متنفس طلق للمبدع يقص فيها قصة حياة جديدة بأن تستعار وتقرأ و توضح موقف الفرد من المجتمع, كما تمنحه الفرصة لإبراز مقدرة فنية قصصية إلى حد كبير , وتريحه نفسيا لأنها تستند إلى الاعتراف[٢] فالبوح عن طريق الكتابة وسيلته الأنجح للتعبير.

وأول الاعترافات يكون عرضا لما حدا بصاحب السيرة من بواعث تحفزه على كتابتهما لذلك "تكاد كل سيرة من السير الذاتية تحوي عرضا لما حدا بصاحبها من بواعث حين شرع في كتابتها, وتكاد كل هذه السير الذاتية تكشف أيضا لقارئها قصور هذا العرض, إذ كثيرا ما يكون الكاتب مدفوعا بقوى لا يدركها أو يحاول طمسها"[٣]

لقد قام جورج ماي(George mai) بتقسيم الدوافع التي تنشأ عنها كتابة السيرة الذاتية إلى قسمين:

الأول الدوافع العقلانية:وهي التي تضم المقاصد العقلانية والمنطقية الرصينة إلى أبعد الحدود, وقد صنفها إلى صنفين اصطلح على الأول بكلمة التبرير, والثاني بكلمة الشهادة.

وأما القسم الثاني فهو الدوافع العاطفية: وهي التي تضم دوافع أقرب إلى الأفعال و العواطف واللاعقلانية, وأبعد عن الإدراك أيضا في بعض الأحيان, وقد صنفها إلى صنفين: الأول التباري مع الزمن, والثاني عثور المرء على معنى لوجوده[٤] .

**(١) الدوافع العقلانية :**

---

[1] اندريه موروا , أوجه السيرة ص٨٩

[2] بتصرف , إحسان عباس , فن السيرة , ص٩٩ - ص١٠٠

[3] ماي, جورج , السيرة الذاتية ص٤٧

[4] بتصرف ماي, جورج, السيرة الذاتية , ص٤٨.إن هذا القسم هو تقسيم وضع لغايات الدراسة فقط وذلك لان بعض هذه الدوافع يمكن أن تجتمع معا, وهذا يتضح بشكل جلي عند تناولنا للنصوص وأنا سأعتمد عليه في دراستي هذه لسببين الأول أنه سيساعدني على تصنيف النصوص التي بين يدي والثاني أنه تصنيف يمكن أن أطبقه على هذه النصوص أيضا.

أ- التبرير:"هي حاجة المرء إلى الكتابة ليبرر على رؤوس الملأ ما كان أتاه من أفعال أو صدع به من أراء و يكون شعور المرء بهذه الحاجة أكثر إيلاما وأشد إلحاحاً على وجه الخصوص ذهب في ظنه أن الناس افتروا عليه"[١]

ب- الشهادة: يقول جورج ماي:"كلمة الشهادة تعني ما يصرح به كثير من كتاب السيرة الذاتية من شعور بضرورة العمل بوجه من الوجوه على ألا يزول بزوالهم ما كانوا عليه لسبب أو لآخر شاهدين مقررين أن هذه الضرورة في زعمهم ملحة لا سيما وأن شهادتهم يمكن أن تزداد جداولها عند الناس"[٢]

**(2)الدوافع العاطفية**

أ- التباري مع الزمن:التلذذ بالذكريات الماضية كلما مر الزمن وشعر المرء بهروبه من بين يديه, أو الجزع من المستقبل[٣].

ب- عثور المرء على معنى لوجوده :أي عثور المرء معنى الحياة المنطقية أو استعادته, ويقصد بذلك لاتجاه الحياة ودلالتها معا "[٤].

ويختم جورج ماي تصنيفه هذا بدافع ثالث يمكن ــن يختلط معهن جميعا وهو دافع الغرور[٥].

أرى أن هذا الدافع هو من أقوى الدوافع وأكثرها أصالة في السيرة الذاتية، ذلك أن أصحاب السِيَّر هم أناس تميزوا وعُرِفوا بأمور متعددة جعلت منهم أشخاصا ذوي مكانة وشأن في مجتمعاتهم.

وقبل أن نبدأ بعرض دوافع كتابة السيرة عند أصحابها يُحتَّم علينا طرح السؤال التالي: متى كَتَبَ كلٌّ منهم سيرته؟

## " دوافع كتابة السيرة عند الأمير عبد الله "

وحتى يكون سؤالنا السابق أكثر خصوصية متى كتب الأمير عبد الله سيرته هذه؟

---

[1] ماي , جورج , السيرة الذاتية,ص٤٨
[2] المصدر نفسه, ص مفقودة

[3] بتصرف, المصدر نفسه,ص٥٥-ص٥٦
[4] ماي، جورج، السيرة الذاتية، ص٤٨.
[5] ينظر السابق، ص٦٨.

تؤكد المصادر أن الأمير عبد الله دوَّن هذه الوثيقة عن نفسه، ودَولته بعد أن جرى خلعه على يد المرابطين ونفيُه إلى مدينة أغمات في جنوب المغرب الأقصى. يقول صاحب كتاب أعمال الأعلام:" وقفت على ديوان بخطهِ[1] ألفه بعد خلعه بمدينة أغمات، وقرر فيه أحواله والحادثة عليه مما يستظرف من مثله، أَتْحَفَني به خطيب المسجد بأغمات- رحمه الله"[٢].

وهناك إشارة أخرى وردت في كتاب " الحُلل الموشية " المجهول المؤلف أن الأمير عبد الله قد دوّن تاريخا عن الدولة التي أسستها أسرته في الأندلس وذلك في معرض الحديث عن الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس " كان جوازه الثالث في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة- سببه: أنه لما كان على حصن لييط نقل إليه كلام عن ملوك الأندلس، أحفظه وأوغر صدره عليهم، وهو الذي أزعجه إلى العدوة. ولما تبين لهم تغيُّره عليهم وإعراضه عنهم، نظر كل واحد منهم لنفسه بغاية عزمه، فأوّل من جهر بذلك وتظاهر به، وجد فيه المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس، واتصلت أنباؤه بيوسف بن تاشفين، فاشتد غضبه، وزاد حرجه عليه. ولما احتل بالجزيرة الخضراء، وافاه المعتمد بن عباد فتاقاه بعادته من التعظيم، واحتفل في التضييف والتكريم. وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده، فاستنزل من مالقة أخاه المستنصر تميم بن بلقين، وتوجه ِإلى غرناطة، فلقيه المظفر عبد الله بن بلقين خارج الحضرة، فسلم عليه، وترجل إليه، ودخل معه البلد، وسلم إليه الأمر، وأقام ينظر في توطيد البلد،وتمهيد الأمور، ثم احتمله هو وأخاه المستنصر تميما إلى العدوة، وأسكنهما بأغمات، وقد استوفى الكلام في هذا الأمير عبد الله بن بلقين في الكتاب الذي ألفه في دولةِ قومه" [٣].

وكما هو واضح من النص السابق فقد جاء خلعُ هذا الأمير على يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بعد أن قرر ملوك الطوائف لما وصله عنهم من أخبار تواطئهم مع عدو الإسلام الفونش السادس ملك قشالة، فكان الأمير عبد الله على رأسهم فقد أكدت المصادر أنه تواطأ مع ملك قشتالة واتفق معه، وعندما وصلت أخباره إلى يوسف بن تاشفين قرر أن يذهب إليه ويحاصره في غرناطة عام ٤٨٣ هـ فاضطر إلى أن يسلم نسه إليه فعزله يوسف بن تاشفين

---

[1] أي قصد الأمير عبد الله مؤلف هذا الكتاب.

[2] بن الخطيب، لسان الدين: تاريخ اسبانيا ( الإسلامية كتاب أعمال الأعلام فيمن بديع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بدوفنسال، دار المشرق، ص ٢٣٥.

[3] الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مجهول المؤلف، حققه الدكتور سهيل زكارو الأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص٧١.

عن ملكه ومن ثم أرسله إلى مدينة أغمات حيث أمضى فيها بقية حياته إلى أن مات، وكان عمره وقت النفي ٣٥ عاما تقريبا.

وقد أورد كتاب " البيان المغرب" هذه الحادثة على النحو التالي " فأول من شهر الخلاف في اختزان الأقوات، وألحق الرماة والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصل بعضها ببعض، وأقام عليها الديدبانات ونصب الرعادات، وملأ بيوت السلاح، وجد في ضرب السهام، وبذل في ذلك جهده، وإذا نفدت هذه، لم تغن العدة، ونقل المال والذخيرة، وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها في غاية المتعة وعلى ضفة البحر، ولم يستأصل ذلك لكثرته، وهدم حصوناً، توهم عليه القيام منها، ومن مأمنه يؤتى الحذر. وعَمَد على مال كثير، وثياب نفيسة، وتحف جليلة، وأعلاق رفيعه، فوجه بها إلى الإذفونش، وكتب إليه متطارحا عليه، مستجيرا به، وأعلمه أن البلد بلده، وأنه فيه فائدة، فاهنز لذلك إذفونش، وقبل المال والهدايا، وأقسم بجميع أيمانه ومُعتقد مِلته أن يشدَّ اليد عليه في ملكه، ولا يتركه لضيم ولا هضيمة، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جِدّه في نصره، وراجعه بمثل ذلك من قوله فقويت نفس حفيد باديس بذلك.

وفي ذلك يقول السمساري:

صاحـــب غرناطة ســـــــفيه وأعلم الناس بالأمـــــور
صانع إذفونش والنصـــــــارى فانظر إلى رأيه الدبير
وشـــار بنيانه خـــلافا لطاعة الله والأمـــــير
يبني على نفســه سفــاها كأنه دودة الـــــحرير
دعوة يبني فسوف يـــــدري إذا أتت قدرة الــــقدير

واتصلت أبناؤه بأمير المسلمين على حقيقتها، فاشتد غضبه، واستزاد جزعه" [١].

وأما لسان الدين ابن الخطيب فقد أوردها في كتابه " أعمال الأعلام" و الإحاطة" بنفس المعنى، ولكن بصياغة مختلفة[٢].

[1] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله، ص٢٠٦- ص ٢٠٧.

[2] أعمال الأعلام، ص ٢٣٥، والإحاطة، ج٣، ص ٣٨.

فمن خلال هذه النصوص الواردة في المصادر نستطيع أن نحدد أن الأمير عبد الله قد دون هذا الكتاب بعد خلعه، وأثناء إقامته الجبرية في مدينة أغمات، ولكن السؤال الأهم هنا: لما دون هذا الكتاب؟ ما هي الغاية من وراء ذلك؟ هل كان التبرير أو التلذذ بالذكريات؟ أم الغرور والاعتداد بالذات؟ أم كلها مجتمعة؟

وحتى نستطيع أن نجد هذا الدافع فعلينا أن ننظر بجد إلى ما ورد في المصادر القديمة من أخبار عنه وعن دولته، وأهم هذه الأخبار أن هذا الأمير كان من بين أمراء الطوائف الذن وُجِّهت لهم أصابع الاتهام تهمة الاتفاق والتواطؤ مع ملك قشتالة ودفع الجزية له وإرسال الأموال مقابل حمايته من جيرانه من ملوك الطوائف والمرابطين إذا قاموا بالهجوم عليه.

أظن أن هذه التهمة كانت شائعة جدا في عصره, وما يؤكد ذلك هو اتفاق جميع المصادر التي ترجمت له على ذلك دون استثناء, ولأن هذه التهمة هي وصمة عار على أمير مسلم مثله ذي نسب وجاه, فإن شعوره بالظلم اتجاه نفيه من جانب هذه التهمة المشينة من جانب آخر فقد قرر هذا الأمير أن ينصف نفسه من زمانه و أهله عن طريق تدوين هذا الكتاب الذي ظنّ أنه الوسيلة المثلى التي يمكن أن تُسمِع صوته للناس والتاريخ. فقد قدم به دفاعه عن نفسه وبرر به كل ما قد صدر عنه من تصرفات, وحاول أن يشرح للقارئ المنصف كل ما مرّ به وبمملكته من أخطار خارجية وداخلية مقترنة مع سوء في الأقدار أدت كلها إلى ضياع ملكه وسقوط دولة بني زيدي في غرناطة ومن أهم هذه الأخطار أولا: أطماع جيرانه بمملكته, وكان الخطر الأساسي الذي واجهته غرناطة هو محاولة بني عباد التوسع على حساب بني زيدي في غرناطة, فقد حاول المعتمد بكل الوسائل أن يضم غرناطة إلى مُلكه مستغلا صغر سن هذا الأمير من جهة, وخلافهِ مع الفونش من جهة أخرى فقد انتهز فرصة رفض عبد الله الانصياع إلى تهديد ملك قشتالة الفونش وعدم دفع الجزية له التي طلبها منه, وكانت عشرين ألف دينار, فسارع ابن عمار وزير المعتمد إلى عرض مبلغ خمسين ألف دينار في مقابل عقد معاهدة أخرى مع اشبيلية تتضمن تخلي الملك النصراني بموجبها عن غرناطة إلى ابن عباد وإطلاق يده فيها, وأضاف إلى أن ابن عباد سوف يتنازل إلى ملك قشتالة عن الأسلاب والغنائم التي تقع في يده عند استيلائه على مملكة غرناطة...الخ.

ولكن أطماع الفونش في الممالك الإسلامية لم تسمح لابن عباد ببسط سلطانه على الأندلس, لذلك اكتفى بالسماح له ببناء حصن على مسافة ستة فراسخ من غرناطة بقصد الضغط على المدينة, وشن غارات على أراضيها إذ وضع به حامية قوية تقوم بعمليات استفزازية ضد

ملك غرناطة الذي زحف هلى هذا الحصن اضطرته إلى الترتجع عنه, ومقابل هذه الظروف والضغوط اضطر الأمير عبد الله إلى مراجعة موقفه من عرض الفونش وقبلَ أن يدفع له الضريبة التي دفعها. (١)

كانت الضغوط المستمرة من الفونش السادس تشكل العبء الأكبر على هذه الدولة لما صاحبها من تهديد ووعيد وفرض الجزية الباهظة وذلك لإضعاف هذه الدولة حتى تسقط في يده غضة طرية ودون كبير عناء (٢).

يقول عبد الله في سياق حديث كان قد أورده عن مهادنة أجراها مع ملك قشتالة مبررا صنعه هذا " فقبلنا قوله, ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيرا من هلاك المسلمين وفساد البلاد, إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته "(٣) .

ومن الجيران الذين كانت لهم أحلام كبيرة بالجلوس على عرش غرناطة أخوة تميم "أمير مالقه الذي كان يمطع في ملك أخيه, ولم يقنع في قسمة جده له, فقد عمل على إضعاف قوة غرناطة عن طريق إرسال قطع من أسطوله لضرب المنكب وشاط, ثم أرسل قوة صغيرة من الخيالة للتوغل في الأراضي المجاورة للمدينتين, مما دفع بالأمير عبد الله أن يجهز جيشه ويزحف على مالقة ليعيد شقيقه إلى صوابه(٤).

**ثانيا: بعض الضغوط الداخلية :**

أ . **عزله وزيره سماجة:** الذي لم يعترف أن هذا الأمير قد كبر و أراد أن ينفرد بالحكم دون وصاية احد عليه بل عمل على تعزيز مكانته وذلك حتى بقي في الصدارة و الاحتفاظ بالسلطة(٥)

ب . **سجنه القاضي القليعي** : وذلك لما قام به من مناورات عند ابن تاشفين ضد ملك غرناطة أثناء حصار مدينة ليط وعلى مساعيه مع غيره من فقهاء الأندلس لإقناع يوسف بن

---

[1] ينظر: بلقين، عبد الله، مذكرات الأمير عبد الله, ص٦٨-ص ٧٦.

[2] ينظر مذكرات الأمير عبد الله, ص ٦٩_ص٧٨, من ص ١٢٢_١٢٧ص.

[3] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٧٦.

[4] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ٩٠ _ ص ٩٥ .

[5] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ٨٤ _ ص ٨٨ .

تاشفين احتلال البلاد وعزل ملوك الطوائف . ونتيجة لهذه الأفعال من قاضي مملكته شعر الأمير بالغيظ الشديد . وعند عودته من حصار مدينة ليط أمر بسجنه في إحدى غرف القصر . وبواسطة من والدة الأمير تم الإفراج عنه وعندما خرج من السجن هرب في الليل إلى قلعة يحصب ومنها اتجه إلى قرطبة ومن هذه المدينة واصل مكاتباته إلى يوسف بن تاشفين يدفعه إلى غزو الأندلس [١].

### ج . ثورة مؤمل في لوشة [٢].

إن القارئ لهذا الكتاب يدرك جليا أن دولة هذا الأمير كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الاضطرابات في الداخل, والمشاحنات المسلحة مع جيرانه من الخارج, وسوءا في الطالع كان يؤازر كل هذه الأحداث على ما يبدو وله, فقد كان يعبر عن ذلك في مواطن عديدة من كتابه .

ومع كل هذا يقول إنه لا يتواطأ مع أهل الشرك ضد مسلم وان ما قام به من دفع للجزية هو درء للخطر و حفظ للعرض وصون لأهل البلاد من حرب لا يطيقونها "[3] وتأهب ألفونش إلى الحركة وقدم رسوله بين يدي حركته, فلما صحت عندنا, أتانا منها المقيم المقعد , ولم ندر أين الخيرة : إن كان في رفض البلد وتركه ليبعث فيه, أو مداراته

بما تيسر . ووقعت من ذلك هيبة في الناس ورجة, حتى بلغ من الجزع إننا لم نصدق أن يقبل منا المال دون الملازمة لنا, طالبا لإحنة لبيط ومعاقدة المرابطين وطمعنا ان يقنع رسوله باليسير؛ فقال لي: لم آت عن ذلك كله الا ان تعطيه ما فاته عنك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفا لا ينقص منها شيء, وإلا فها هو مقبل! والذي تقدر عليه, فاصنع! فرويت الامر في نفسي, ورايت ان التعاطي حماقة لا تفيد, وقلت : ان اخذت هذه من الرعية, ضجت وشكت, ويكون مقدمتها بمروكش شاكين, يقولون : اخذ أموالنا واعطاها للنصارى! ولكن لهذا الوقت يحتاج الإنسان ما ادخر ليصون به بلده وعرضه . وانا جدير ان اعطي ذلك من بيت مالي, حيث يسلم البلد, ويبحث تشكر الرعاية بمدافعة عدوها دون تكلفها شيئا, ولا تقع الشنعة! ففعلت ذلك, وارسلت اليه الثلاثين ألفا, لم ارزأ احدا فيها درهما. ورأتيت مع ذلك ان اجدد معه عقدا ألا يعترض لي بلدا, ولا يغدرني بعدها, خوفا ان يقتلب علي؛ فأجاب

---

[1] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ١١٦ _ ص ١٢٢.

[2] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ١٣٠ _ ص ١٣٦ .

[3] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ١٣٦ _ ص ١٣٨ .

إلى العقد فقلت في نفسي إذ لا بد من دفعها, فبالعقد أولى .فإن حوجنا اليه ,وجدناه ولم يضر ,وان استغنى عنه , كان كان مكانه سمرا التقنا والبيض الرقاق, إن تداركنا الله بعسكر يدفعه؛ والحرب خدعة! وإذا لم تغلب فأخلب!

فأجاب إلى تلك المعاقدة, حرصا على أخذ المال, ونحن لا نشك أن يغدر, كالخاطر لنفسه للضرورة التي لا سبيل الا سواها .

وقال لي عند ذلك رسوله :يقول ألفونش : ان كنت تريد تخلط مع هذه المعاقدة إستعانة به على شيئ من بلادك التي عند ابن عباد , فهو يجد لك فيها في وجهته هذه . فاجبته : اني لا اعين على مسلم أحدا وان الذي دعاني إلى هذه المعاقدة المدافعة على بلدي وأهل ملتي فإن وفيتم بذلك, فهو المراد الذي اليه قصدنا. وكان من نيته أن يخلط الفتنة بيننا وبين ابن عباد ليجد بذلك السبيل إلى بلاده, ويقوى عليها بأموالنا ويتسبب إلى طلب كثير من أموالنا وإذا كانت تلك الثلاثون ألفا على وجه الدين للمسالمة فقط, وإنما أراد استئناف عمل"(١) .

يبدو أن الدافع الحقيقي وراء تأليف هذا الكتاب هو دفع الاتهام وإنصاف للنفس من ظلم التاريخ إذ أن " أن حاجة المرء إلى أن يبرئ نفسه ويعيد الحقيقة إلى نصابها ويصلح ويصوب ويكذب ما يرمى به من مزاعم زورا وبهتانا, هي حاجة لا يملك الإنسان لها رداً ولا يلام عليها غير أن هذه الحاجة قلما تكون منزهة عن الهوى لا بل أننا نجدها في أغلب الحالات مشوبة بنوازع اقل سمواً من قبيل النزوع إلى التباهي أو النزوع إلى الأخذ بالثأر"(٢).

ولا أود أن أقول إن الدافع الآخر وراء هذه السيرة هو التباهي بالذات بقدر ما هو شعوره بالكبرياء المجروح المهان, ولتخفيف العبء عن الذات المنكسرة التي عرف عنها الضعف و الخلود إلى الراحات فقد وصفه ابن الصيرفي" كان جبانا, مغمد السيف, لا يثبت على الظهر, عزهاه, لا ارب له في النساء هيابة, مفرط الجزع, يخلد إلى الراحات, ويستوزر الاغمار"(٣).

فأمام هذا الاتهام كبرياء يرفضه ويود إظهار الصورة الحقيقية لهذا الأمير الصنهاجي, فعلى الرغم من صغر سنه وما أحاط به من ظروف, ( فقد كنت سياسيا محنكا ) لذا فقد جاءت

---

[1] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ١٢٤_ص ١٢٦.

[2] ماي, جورج, ص ٤٩.

[3] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ٢٠٨ – ص ٢٠٩.

سيرته في معظمها موضحة الجوانب السياسية في حياته ابتداءً من تكوينه السياسي منذ أن كان طفلا .

وقد جاءت أيضا عرضا مطولا لمواقف سياسية اظهر فيها المؤلف براعته في اتخاذ القرارات وحنكته في درء الخطر عن بلاده واستغلاله للفرص السانحة ليحقق بعض مأربه التي تصب كلها حسب رأيه في مصلحة بلاده وحكمه.

ولأن هذا الجانب كان مغيبا عن الناس قرر أن ينصف نفسه ويخلدها بصورتها المشرقة, فإن كبرياءه ونزوعه إلى حب الذات الشامخة الآنفة التي لا تقبل الظلم والبقاء في الظل تدفعه دون الشعور منه إلى تدوين هذا الكتاب الذي يعتبر بحق وثيقة تاريخية تكشف جوانب حقيقية عن هذا الأمير وعن أمراء الأندلس بعامة.

وهو السلاح الذي أشهره في وجه العالم الذي أعاد به اعتباره ومكانته التي فقدها, وذلك من خلال إظهاره جانبا إبداعيا ومقدرة قصصية يتمتع بها مؤلف هذا الكتاب, الذي عده بمثابة الابن الذي يخلد ذكرى أبيه في التاريخ يقول موجها خطابه إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه " ثم انصرف وجه اهتبالنا إلى وضع هذا الكتاب, وهو لعمري بمنزلة الابن الذي يبقى ذكرى أبيه في العالم, لنبين به عن أنفسنا ما أشكل على الجاهل من مقاله سوء في دولة زعم الحاسدون أن منها كان سقوطنا ولن نعدم مع هذا بركتها لما نرجوه من ثوابنا, وحسناته لبعدنا منها ونزاهتنا عنها. وإنما وضعنا هذا الكتاب لمن أشكل عليه الأمر من أهل الفضل والحق, المحبين لله فينا, الوادين الخير لنا ولا يزيد البغاة إلا طغيانا وتعنيتا ."[١]

---

[1] بلقين، عبد الله: مذكرات الأمير, ص ٢٠٠

## دوافع كتابة السيرة عند ابن حزم:

ولنبدأ حديثنا بالسؤال الذي طرحناه في بداية حديثنا في هذا الفصل وهو:متى كتب ابن حزم رسالته هذه ؟

لقد كان لنشأة ابن حزم في بيت وزير ذي مال و غز وجاه عريض دور مهم في صقل شخصيته إذ تربى في قصر والده بين الجواري يحفظنه القران ويعلمنه الكتابة ويدربنه على الخط ويروينه الأشعار , فنال من العلم ما يناله أقرانه من الأولاد الأمراء والملوك .

ولكن هذه السعادة والعيش الرغد لم يدم لابن الحزم , بل دارت بأسرته الدوائر في أثناء الفتنه التي حدثت في قرطبة , مما اضطر والده إلي الانتقال من دورهم الجديدة بالجانب الشرقي (في ربض الزهراء إلي دورهم القديمة في الجهة الغربية أي بلاط مغيث ) بعد أن اعفي من مناصبه وذلك يواصل حياته هناك مع أسرته ,وقد كان عمر ابن حزم حوالي خمسة عشر عاما تقريبا ." ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة , في ربض الزهراء إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث ,في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله ,وذلك في جمادى الآخرة سنة تسعه وتسعين وثلث مائه "[١]

ولم تقف الأمور عند هذا الحد ,إذ فقد أخاه أبا بكر في الطاعون الذي اجتاح قرطبة في عام ٤٠١هـ , و في العام التالي فقد والده . وقد عبر ابن الحزم في الطوق عن هذه الحالة التي بدلت حياتهم بؤسا و شقاء بعد أن كانت نعيما و رخاء.[٢]

استمرت تقلبات الدهر و النكبات تعصف في حياة ابن الحزم و أسرته , فقد قام جند البربر بنهب منازلهم في الجانب الغربي من قرطبة ,مما اضطره إلى الرحيل عنها ليستقر في مدينة المرية , يقول في ذلك "إلى أن ألقت الفتنة جرانها و أرخت عزاليها ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة , و نزولهم فيها وكان مسكن أبي عبد الله في الجانب الشرقي ببلاط مغيث وتقلبت بي الأمور إلي الخروج عن قرطبة , و سكني مدينة المرية "[٣]

---

[1] الأندلسي، ابن حزم: الطوق, ص١٣٥ إلى ص١٣٦.

[2] الأندلسي، ابن حزم: الطوق , ١٣٦.

[3] الأندلسي، ابن حزم: الطوق, ١٤٤

ولم تطل به الإقامة في المرية بل رحل عنها بعد أن نكبه صاحبها خيران العامري هو وصديقه محمد بن إسحاق بتهمة السعي إلى استعادة الدولة الأموية فأعتقلهما أشهرا , ثم نفاهما فذهبا إلى حصن القصر , ونزلا على صاحبها عبد الله بن هذيل التجيبي , فرحب بهما , ولما سمعا بقيام المرتضى عبد الرحمن بن محمد سنة ٤٠٧ه لإحياء الدولة الأموية وركبا البحر من حصن القصر إلى لقاءه في بلشية , وسكنا معه فيها , وقد قص علينا ابن حزم ذلك في الطوق بقلمه .[١]

ويظهر أن ابن حزم قد دخل قرطبة بعد أن شارك في الحملة التي قادها عبد الرحمن المرتضى للاستيلاء على غرناطة , والتي قتل فيها المرتضي قبل أن يتم مراده في عام ٤٠٩ه, يقول :" فخرج عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر , ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة "[٢]

فكان غيابه عنها نحو ست سنين. ويبدو أن ابن حزم ضل بها إلى أن ثار أهل قرطبة على آل حمود وبويع عبد الرحمن بن هشام الناصر الذي لقب بالمستظهر عام ٤١٤ ه , فقرب له ابن الحزم وابن عمه أبى المغيرة وابن شهيب لكن هذه الخلافة لم تدم أكثر من سبع وأربعين يوما إذ بويع المستكفي فاعتقل ابن حزم وغيره وسجن, ولم تذكر المصادر متى خرج منه.

لكنها تؤكد أن ابن حزم قد انقطع عن السياسة ولم يعد للخوض فيها وإنما انصرف من بعد ذلك للدراسة والبحث والكتابة التي لم ينقطع عنها يوما, ونشر أرائه عن طريق خوض المناظرات والتي اشتهر بها والدفاع عن الإسلام بالكلام والحجة القوية .

وبعد هذه النبذة عن أوليات ابن حزم وما مر به من نكبات نور أن نجيب عن السؤال الذي قمنا بطرحه في بداية هذا الجزء الذي نحن بصدده , أين ومتى كتب ابن حزم رسالته هذه؟

يذكر ابن حزم في مقدمة هذه الرسالة انه كتبها إجابة لطلب صديق له طلب منه في رسالة أرسلها له أن يكتب له كتابا في الحب وأحواله وان هذه الرسالة وصلته إلى سكنه بمدينة شاطبة "فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكن بحضرة شاطبة "[3]. إن هذه القصة التي

[1] الأندلسي، ابن حزم: الطوق, ص ١٤٤ - ١٤٦ .

[2] الأندلسي، ابن حزم: الطوق, صفحة ١٣٦

[3] الأندلسي، ابن حزم: الطوق, ص٣.

أوردها ابن حزم في الطوق تؤكد أن هذه الرسالة كتبت بعد العام المذكور سابقا وان عمره قد تجاوز الثالث والثلاثين .

فقد أورد محمد أبو زهرة في كتابه "لبن حزم حياته وعصره"رأيا قال فيه ابن حزم كتب رسالته هذه في أواخر الشباب وابتداء الكهولة وانه كتبه بعد انم نال شهرة علميه ومقاما في الفقه والحديث[١] .ويدلل على ذلك بأمرين يستخرجها من كتاب الطوق" أولهما , أنه يقول في صدر الكتاب أن قوما من مخالفي أرائه ومناهجه أساءوا له القول , ومع ذلك ومع ذلك نقي وفيا لهم فيقول :وبالوفاء أفتخر في قصيدة لي طولية أوردتها ............ وكانت سبب قولي لها أن قوما من مخالفي شرفوا بي فأساءوا العبث في وجهي, وقذفوني بأني أعضد الباطل بحجتي ,عجزا منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله , وحسدا لي " . [١]

هذا من حيث المكان ,أما من ناحية الزمن فأن هذه الرسالة يرجح أنها كتبت بعد عام ٤١٧ ه , وذلك لأمور عدة أهمها : لقد أورد ابن حزم قصة صاحبه الذي نزل عنده ضيفا بشاطبة فلم يمض وقت قصير حتى نشبت الفتنة بين أبي الجيش مجاهد العاسي وخيرات العامري, فتقطعت الطرق بسبب هذه الحرب وكانت تلك الواقعة في ربيع الثاني سنة ٤١٧هـ وثانيهم" انه اعتذر إلى صاحبة الذي كتب إليه عن قولة في الحب والمحبين بأنه نوع من الترفيه عن النفس فهو يقول لصاحبة في صدور رسالته"[٢] فبدرت إلى مرغوب بك , ولولا الإيجاب لك لما تكلفته فهذا من اللغو, والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فما نرجو به رحب المنقلب وحسن الأب غدا.

وان كان القادي حمام بن احمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عائد بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء انه قال: اجمعوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عون لها على حق ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرض "من لا يحسن يتفتى لم يحسن يتقرى" [3] وفي بعض الأثر ( اريحو النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد).

---

[1] ينظر محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره أرائه وفقهه. ص٦٨.

[2] محمد أبو زهرة، ص ١٦٨. الأندلسي، ابن حزم: الطوق,ص١٠٢.

[3] الأندلسي، ابن حزم: الطوق,١٧

وهناك أمر أود التنويه إليه , وهو رأي يعضد رئي محمد أبو زهرة السابق, وهو : ما تحفل به هذه الرسالة من أراء فقهيه وأحاديث نبوية ووجهات نظر حول مسائل خلافية , والبت فيها مبثوثة في ثنايا الرسالة كلها حتى تشعر أنها لا يكمن أن تصدر إلا عن فقيه متمكن, عالم بدقائق الأمور أو وجل , فأن هذه الرسالة في الحب وأحواله , ولكن الشريعة الإسلامية بها هي الحكم الفصل لان مؤلفها هو رجل عرف المذاهب كلها وحفظ القران ودرس الفقه وألف فيه وتسلح بسلاح العلوم الدينية ليسرد بها على الجهلة وأعداء الإسلام[١] .

والسؤال الأهم هنا ما الذي دفع بهذا الفقية الجليل بأن يكتب الرسالة في الحب يمكن ان تحسب عليه لا له , ما يستشعره

من بنو الديار والغربة عن الأوطان على حد تعبيره في الطرق " والكلام في مثل هذا أما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب وان حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري عجبا على ما مضى , ودهمني فأنت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهصر بما نحن فيه من نبو الديار وانجلاء عن الأوطان وتغير الزمان , ونكبات السلطان, وتغير الإخوان وفساد الأحوال, وتبدل الأيام وذهاب الوخز والخروج عن الطارف والتالد, واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد والغربة في البلاد وذهاب المال والجاه ,والفكر في صيانة الأهل والولد, واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار , لا جعلنا الله من الشاكين إلى إليه, وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وان الذي ابقى لأكثر مما اخذ "[٢].

إن امرءا على هذه الحال ما الذي يدفعه إلى كتابة هذه الرسالة ؟!

أنها فتنة التلذذ بالذكريات واستحضار الماضي البعيد ,إحساس قوي وخفي "إن هذا السبب الباطن المتمثل في طوق المرء إلى التمتع بلذة التذكر, كثيرا ما يكون من القوة حيث يغدو أصلح من غيره يكشف لنا سر تلك الطاقه التي بدونها قد تظل الكتابة عزما لا يتحقق ." [٣]

إن هذه المتعة كانت الحافز وراء كتابة يمني بها نفسه ويعزيها ويشعرها بالسعادة الهاربة من حاضره " فابن حزم الذي كان في حاضره حين يفكر في صيانة الأهل والولد, وفي الحصول على الرزق له ولهم, كان يريحه أن يعود إلى الماضي لأنه لا يمثل الحب فحسب, بل

---

[1] أبو زهرة , محمد: ابن حزم حياتة وعصرة واراءه, وفقهه, ١٦٧ – ١٦٩. طوق من خمسة.

[2] الأندلسي، ابن حزم: الطوق ص ١٨٦ .

[3] ماي, جورج, السيرة الذاتية, ص ٥٥ .

يمثل المجد والجاه والغناء والراحة الحياة الرغيدة وله أيام الطلب ولهذه المحادثة مــع الإخــوان قبل أن يغير هم الزمان "[١]. " ولأن متعة التذكر من المتع التي لا تكتمل نكهتهــا إلا إذا شــارك المرء فيها غيره "[٢]. من الناس كأن يكون صديق له عاش معه نفس الظروف أو وقع له نفــس الحدث مما حدث لصديقه المذكور. في مقدمة الرسالة وطلبه منه أن يكتب له رسالة في الحب ما هي إلا تعله تعلل بها ابن حزم لكتابة . ولو فرضنا صحة قوله فإن الذكريات النائمة في الــذاكرة يشوبها حنين شجي يجذبه إلى الماضي فكان طلب هذا الصديق بمثابة " انقداح الشرارة الأولــى التي بعثت الماضي كله حيا في نفسه"[٣].

ومع إحساسه بمرور الزمن وهروبه من بين يديه يرغب ابن حزم في مباراتــه و الانتصار عليه وذلك بتخليده شعر الشباب وذكريات الطفولة وتجارب حياته الأولى مقدما صورة عن نفسه وجانبا ذاتيا غير الذي عرف عنه فاعترافاته الجريئة تنم عن هذا الــشعور الجــارف . فجاءت رسالته محملة باعترافاته التي نستطيع من خلالها الكشف عن هذه الذات العاشقة الولهة, الوفية, الجمود, المنزهة عن المعاصي إلى آخره من الأوصاف و السمات .

لقد أورد محقق كتاب " قانون التأويل " في مقدمة هذا الكتاب أن ابن العربي قد أملــى كتابه هذا في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة, معتمدا على نص وجده في كتاب عارضة الأحوذي للمؤلف نفسه يقول :" فطرق تفسيره محكمة في كتاب (( قانون التأويل )) أمليناه ســنة ثــلاث وثلاثين بجميع وجوهها, خذ ومعنى اللفظ عربية ..."[٤]

إن هذا التاريخ يدل على أن ابن العربي[٥] وغيره ممن حوله من العلماء وطلاب العلــم أن علمه هذا يجب أن يكون في سفر يخلد به ولا يزول بزواله, وهذا الدافع " وما يصرح به كثيــر من كتاب السيرة الذاتية من شعور بضرورة العمل بوجه من الوجوه على أن لا يزول بــزوالهم ما لو كانوا عليه لسبب أو لآخر شاهدين مقربين, إن هذه الضرورة في زعمهم ملحــة لا ســيما وأن شهاداتهم تزداد جدواها عند الناس, عن هذا الدافع من بين كل الدوافع التي يقربهــا كتــاب

---

[1] عباس, إحسان, رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ , ط ١, ١٩٨٠, ص ٤١.

[2] ماي, جورج, السيرة الذاتية, ص ٥٧ .

[3] عباس, إحسان, السابق, ص ٤١ .

[4] ابن بشكال: قانون التأويل, ص ٢٧.

[5] علما بأنه ولد في سنة ٤٦٨ه وتوفي ٥٤٣ه.

السيرة الذاتية أنفسهم هو بلا مراء ذلك الذي يظهر بمظهر الأكثر غيرية وترفعا, إذ هو الوحيد الذي يتخذ صورة الدافع النفعي حقا . ولذلك فإن كل كاتب سيرة ذاتية, إذ يذكر للقارئ الجانب النفعي لعمله يلمح من طرف خفي إلى أن كتابه ليس إلا شهادة, وحين يصرح بذلك فإن كتابه يصطبغ في أغلب الأحيان بلهجة وثوقية و بأسلوب علمي أو شبه علمي" [١].

وهذا شأن التصريح الذي تكفل به ابن العربي لبيان سبب تأليفه لقانون التأويل و الموجود في كتابه" القبس" . وقد كنا عوتبنا في إعراضنا عن مجموع في تفسير القران يثلج حرارة الصدور ... فاعتذرنا, فما قبل عذري وقيل لي : قد شاهدناك تملي فيه نيفا على عشرين عاما بالوسط لملء النشر, وأعجز عن تحصيله البشر فقلت: كان ذلك و الشباب بنضارته, والعمر في عنوانه, فأما الآن وقد وليا, فقد وليا معهما, وهذا أوان تفريقي, فكيف أحاول أن اجمع تحقيقي... فجردت مئة ورقة قانونا في التأويل لعموم أي التنزيل, تأخذ بصيغ الشاري وتبيد الهمم للهادي, فمن وجده فإنه لباب الألباب, وشارع عظيم إلى كل باب"[٢].

وهذا أيضا شأن التمهيد الذي وضعه ابن العربي في كتابه قانون التأويل إذ أورد به نفس الدافع ونفس الاعتذار اللطيف [٣].

وحين يكون موضوع الشهادة عند كتاب السيرة الذاتية هو تصوير وعيهم وإدراكهم بعلم من العلوم أو فلسفة من الفلسفات أو معتقد من المعتقدات أو تدوين جانب من وعيهم بمرحلة من مراحل التاريخ فإن الشهادة ربما انقلبت اعترافا من نوع مخصوص . ولعل ذلك ما دفع بابن العربي أن يضع لنا مسيرته العلمية في صدر هذا المؤلف الذي وضعه قانون في التأويل لعلوم التنزيل, ليأخذ بيدي طلاب العلم و الراغبين بالغوص في أسرار العلوم والمعارف و التمرس بأقوال العلماء .

وذلك ليقول لهم إن هذا العلم الذي وضعته بين أيديكم في هذا السفر هو خلاصة تجربة أتت على معظم سني عمري, منذ كنت فتى يافعا إلى زمن تدوين هذا الكتاب .

فإن رحلته العلمية الطويلة إلى المشرق وعودته إلى الأندلس بعلم كثير هي التي دفعته لأن يورد هذه السيرة هاهنا مفتخرا بنفسه متتبعا تكوينه الفكري ومراحل تطور

---

1 ماي, جورج, السيرة الذاتية, ص ٥٠.

2 ابن بشكال: قانون التأويل, ص٢٥_٢٦.

3 ابن بشكال: قانون التأويل, ص ٦٧.

شخصيته العلمية إلى أن وصل إلى هذه المكانة الرفيعة فهو يعجب من قوم يقادون بالحكمة [١] . إلى الحكمة وعلى العلم بالسلاسل .[٢]

ومع شعوره المتزايد بنضج تجربته العلمية و تعاظمها في نفسه أخذ هذا الجانب من حياته معظم سيرته و تضاءلت الجوانب الأخرى من حياته و بعبارة أدق اختفت . وأظن أن هناك سببا آخر كان وراء اختفاء هذه الجوانب وهو انه دونها في كتابه ترتيب الرحلة للترغيب في الملة الذي أشار له في مقدمة كتابه وأكد على أنه قد شذ في معرض المقادير .

ومن الأمور التي يؤكد عليها أصحاب هذا النوع من السيرة أن رغبته في الكتابة تأتي استجابة لطلب و إلحاح من الأصفياء القريبين لديه و المنتفعين بعلمه, وذلك لإفادتهم وتثقيفهم فهو يعمل على ذلك من خلال أمرين : الأول : ما يدونه في هذا الكتاب من مادة علمية تظل مرجع كل طالب علم على مدى الأزمان و الثاني : إذ هي مثال يحتذي تفسح عن حياة صاحبها أتيح له من خبرات روحية وفكرية وخلقية أثرت في تكوينه العلم وتطوره الفكري, وهذا ما أقر به ابن العربي منذ السطور الأولى [٣].

## دوافع الكتابة عند ابن الخطيب

يرى محقق كتاب " الإحاطة " إن صاحبه بدأ في كتابته أو جمع مواده قبل محنته الأولى في سنة ٧٦١ ه و انه استأنف الكتابة فيه عقب عودته من منفاه في المغرب إلى غرناطة في سنة ٧٦٣ه, واستمر في كتابة تراجم الإحاطة حتى أوائل سنة٧٦٩ه, وذلك حسب ما يبدو مما كتبه ابن الخطيب إلى ابن خلدون في رسالة مؤرخة في جمادى الأولى سنة ٧٦٩ه وفيها يقول له انه بحث بنسخة من الإحاطة إلى المشرق [٤] .

ويستدل محمد عبد الله عنا من أشارات أخرى على أن ابن الخطيب استمر في تدوين وتنقيح تراجم الإحاطة حتى أوائل سنة ٧٧٢ه ومن هذه الإشارات " قال ابن الخطيب في خاتمة

---

1 الحكمة : ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه .

2 ابن بشكال: قانون التأويل, ص ٦٩ .

3 ابن بشكال: قانون التأويل ، ص ٦٥-٦٧.

4 التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا, ط لجنة التأليف والترجمة و النشر ١٩٥١م, ص١٢١ .

ترجمته لنفسه في نهاية كتاب الإحاطة ( مخطوط الاسكوريال ) : (( و الحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام خمسة وستين و سبعمائة على ما ذكرته )) . ويحدثنا في نهاية ترجمة إبراهيم بن عبد الله .... بن قاسم النميري ( ابن الحاج ) عن أسر ابن الحاج ومحنته في جمادى الأولى سنة ٧٦٨ه. ويقول لنا في ترجمة احمد بن خاتمة الأنصاري شاعر المرية, (( وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة)). ويسرد ابن الخطيب تاريخ الغزوات الأندلسية في عهد مليكة الغني بالله حتى سنة ٧٦٨ه. ثم يقول لنا ان المسلمين استمروا في غزواتهم حتى وصلوا إلى احواز و اشبيلية في ربيع الأول سنة ٧٧١ه ."[١]

هذه الآراء و الإشارات تتعلق بكتاب الإحاطة بشكل عام, وأما ترجمته لنفسه التي أوردها في خاتمة هذا الكتاب فأرجح أن ابن الخطيب كتبها في عام ٧٧١ه, وذلك انه ذكر ذلك في خاتمة ترجمته حين قال انه ذكر من حياته إلى هذا العام " والحال إلى هذا العهد وهو أول عام احد وسبعين وسبعمائة على ما ذكرته"[٢].

ويتوقف عن ذكر الأحداث التي مرت به فيما بعد ولا يذكر محنته الثانية وجوازه الثاني إلى الأندلس هاربا في عام ٧٧٢ه. وما يرجح ذلك انه وقبل أن يختم الحديث عن الحوادث التي مر بها ذكر لنا انه كان يستشعر انه مستهدف ممن يضمرون له الشر, ويقول " ومع ذلك فقد عادت هيف إلى أديانها من الاستهداف للشرور و الاستعراض للجذور و النظر الشزر, المنبعث من خزر العيون, شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء, ورعاية سخطه أرزاق السماء وقتله الأنبياء وعبده الأهواء ممن لا يجعل لله إرادة نافذة ولا مشيئة سابغة, ولا يقبل معجزة ولا يجمل في الطلب. ولا يتلبس مع الله بأدب . ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ."[٣]

وقد توقف ابن الخطيب عند هذا الحد في ترجمته ولم يكمله نظرا للظروف التي كان يمر بها واشتغاله بالرد على خصمه أبي الحسن النباهي .

نلاحظ مما تقدم أن ابن الخطيب أنجز هذا الكتاب الضخم في فترة وزارته الثانية والتي تعد من أهم فترات حياته وألمعها وأكثرها استقرارا وأوفرها نضجا و أخصبها إنتاجا, ففيها وضع الكثير من كتبه ورسائله, ودبج كثيرا من النظم و النثر .

---

[1] ابن بشكال: قانون التأويل, ص٦ .

[2] ابن الخطيب، لسان الدين:الإحاطة, ص ٤٤٢ .

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة, ص٤٤٦.

وهي الفترة التي تربع فيها ابن الخطيب في سدة الحكم و الرياسة وشعر انه صاحب مكانة وهيبة هي محط أنظار الناس على مدى العصور والأزمان فجاء هذا الشعور متدفقا في ترجمته يخلد بها ذكره وينظمها في سلك الدرر التي سبقت عليه " فإني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حصل عليه فضل النشاط مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط, والتفت إليه, فراقني منه صوان درر, ومطلع غرر, قد خلت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم, وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم, نافستهم في اقتحام تلك الأبواب, ولباس تلك الأثواب, وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب. وحرصت على أن أنال منهم قربا, وأخذت من أعقابهم أدبا وحبا وكمالا قال : ساقي القوم آخرهم شربا. فأجريت نفسي مجراهم في التعريف, وحذوت بها حذوهم, في باب النسب و التصريف, بقصد التشريف. والله لا يعدمني وإياهم واقفا يترحم, وركاب الاستغفار بمنكبيه يزحم, عندما ارتفعت وظايف الأعمال وانقطعت من التكسبات حبال الآمال, ولم يبق إلا رحمة الله التي تنتاش النفوس وتخلصها, وتعينها بميسم السعادة و تخصصها . جعلنا الله ممن حسن ذكره, ووقف على التماس ما لديه فكره, وبمنه .[١]

إن هذه الكلمات تحمل اعترافا يبدو فيه جانب الصراحة للعيان وهو أن ترجم لنفسه أسوة بمن ترجم لهم وخلدهم في كتابه .

ان هذا الاعتراف يحمل في باطنه دافعا قويا غير واضح بصورة مباشرة أو جلبة هو تعاظم شعور الاعتداء بالذات مما ينشأ عنه رغبة قوية تدفع الكاتب لا يبحث عن معنى لوجوده, من هنا تنبع السيرة أو الترجمة " والتي تنشأ من رغبة الكاتب في استعادة مسار حياته ليدركه, ولهنأ باله بما ينتهي إليه من نتائج تطمئنه إلى أن رغم الحوادث الطارئة, والتناقص والنكوص على الأعقاب, والتردد والتنكر, لا يزال كما كان وان الهوية الأثيرة للانا لم يمسها سوء ."[٢]

إن حاجة ابن الخطيب إلى إيجاد نسق ينظم الفترة التي عاشها من حياته بكل ما فيها من أهداف وإبداعات فقد لجأ إلى إطلاق أسماء مختلفة على المراحل المتعاقبة في سيرته, وتقسيمها إلى عنوانات فرعية يتعرف من خلالها على أهم أحداث حياته و الحدود الفاصلة

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة, ص٣٨-٣٩

[2] ماي جورج, السيرة الذاتية، ص٦٣.

بينهما, وقد جاء ذلك على النحو التالي : المؤلف, أوليتي, ذكر بعض مـــا صــــدر لــــي مــــن التشريعات الملوكية أيام تأبش بهذا الغرور, المشيخة, التواليف, الشعر . [١]



[1] ماي جورج, السيرة الذاتية,ص ٦٤.

# الفصل الثالث

## البناء والهوية السيرة الذاتية

# البناء والهوية السيرة الذاتية

## مدخل نظري

يعرف لوجوت السيرة الذاتية على أنها:

"حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص, وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة." [١]

١_شكل اللغة:

أ- حكي. ب- نثري.

٢_الموضوع المطروق: حياه فردية, وتاريخ شخصية معينة.

٣_وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية)والسارد.

٤_ وضعية السارد:

أ- تطابق السارد والشخصية الرئيسية.

ب- منظور استعادي للحكي ."

وانطلاقاً من هذا التعريف فإن المقطع الأول منه "حكى استعادي نثري" هو القاعدة التي سوف ننطلق منها في تناولنا للبناء السير ذاتي الأندلسي الذي تشكلت في بوثقته هذه النصوص .

وأما مدار السيرة الذاتية فهو : حياة المتكلم وتاريخ شخصيته فهو الأساس الذي سوف نتكئ عليه في بحثنا عن الهوية السردية الأندلسية وكيف تشكلت عبر ثنايا السرد السير ذاتي الأندلسي.

## البناء والهوية السير ذاتية.

---

([1]) لوجون, السيرة الذاتية, ص٢٢.

يعد العقد السير ذاتي عند فيليب لوجوت الأساس الذي ربط به بين الهوية الشخصية في داخل النص وشخصية المؤلف الواقعية التي يحيل عليها الاسم العلم في الواقع الخارجي.

وتعود قيمة هذا العقد إلى كونه يحيل عليه الميثاق عن طريق الربط بين الذات المتلفظة في السرد واسم العلم مما يمنح الملفوظ السير ذاتي قيمة مرجعية تدرجه ضمن الملفوطات الواقعية، ما وعلى هذا النحو يتحقق انفتاح السيرة الذاتية على العالم الخارجي من حيث أنها فعل تلفظي أصيل, يهدف مبدئياً إلى إعادة تشكيل تجربة واقعية، كما أنها تنفصل في الوقت نفسه عن كل أشكال التلفظ التخيلية، لذلك فإن أصالة التلفظ تمثل قيمة أجناسية خلافية (١).

واما الفرضية الثانية :فإنها تتعلق بتطابق الهويات الثلاث "المؤلف_الراوي والشخصية الرئيسية". وذلك لأنها تشكل الموضوع الرئيسي للتلفظ. ويعد هذا التطابق ضرورياً في الملفوظات السير ذاتية الأجناسية (٢)

مهتيب الفرضيين تحددان صلة الملفوظ السير ذاتي بالواقع الخارجي ومشروعيته التاريخية، وتحددان أيضاً مدى قدرته على استعارة الأساليب التخيلية في بناء هذا المتلفظ الذي ينبني على فعل تخيلي أصيل لا يتناقض وواقعية السيرة الذاتية.

## الهوية السيرذاتية

وقد حدد لرجون في تعريفه الموضوع الأساسي الذي تدور حوله السيرة الذاتية، وهو الحياة الفردية وتاريخ شخصية معينة يتم تعيينها عن طريق الاسم العلم المعلن عن الغلاف .

ولأن التسمية تقف عن حد التعيين دون التعريف فإن الاسم العلم يبقى علامة على هوية مستترة تحتاج إلى من يعرف بها, ويدخلها ضمن علاقة تشاركية مع خطاب يصبح فيه الموضوع أساسيا ولا تنفصل عنه، ويسندان إلى بعضهما، كالأمير عبد الله هو اسم معين وكتاب التبيان الملفوظ السير ذاتي الذي يسند اليه ويعرف بشخصيته ( هويته).

---

([1]) بتصرف: الطريطر, مقومات السيرة الذاتية ص٢٣٦.
([2]) المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

وحتى يتم بناء الهوية السير ذاتية فإن هذا المبدأ لا بد له من مرحلتين أساسيتين متكاملتين. الأولى تسمى تعيينا، وقوامها الربط بين الضمير السير ذاتي أو الذات المتلفظة واسم العلم. والثانية تسمى تعريفا، وقوامها الربط بين الاسم العلم والملفوظ السير ذاتي. [١]

[1] ) بتصرف، مرجع سابق،ص ٢٤٠.

## مذكرات الأمير عبد الله

نوه ليفي بروفنسال إلى أن العنوانات التي أضيفت للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن موجودة في النص الأصلي، وإنما هي من صنعه هو. وقد قسمه إلى اثني عشر فصلا وجعل ضمنها عناوين فرعية للموضوعات بلغ عددها في الكتاب سبعة وتسعين عنوانا.

جاء الفصل الأول تحت عنوان نظرات عامة للمؤلف، والثاني الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري، والثالث والرابع امارة باديس بن حيوس. اما الخامس حتى الفصل العاشر فإنها تشترك في العنوان الأصلي (إمارة عبد الله بن بلقين ابن باديس مؤلف هذا الكتاب ). اما الفصل الحادي عشر ففي عزل ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك, والثاني عشر تأملات اخيرة بعد النفي.

إن هذه التقسيمات تسهل علينا دراسة هذا الكتاب، ففي القسم الأول منه أفضنا حين عددناه بديلا عن المقدمة المتعارف عليها في عرف التأليف. اما القسم الثاني الذي جاء ضمن الفصول الثلاثة التي تلي الفصل الأول والذي اهتم المؤلف فيه بالحديث عن أسلافه مركزا على جده باديس الذي عهد له بالولاية، والسؤال لماذا بدأ عبد الله سيرته بالحديث عن أسلافه مخالفا، عادة كتاب السيرة، الذين يبدأون سيرهم بالحديث عن طفولتهم مستبعدين الماضي البعيد، ما الغاية من وراء ذلك ؟؟

إن الاسلاف ليسوا شجرة نسب فحسب, بل هم قرابة وشرف رفيع. و بما أن النسب قيمة اعتبارية فإنه منطقة محرمة يحرم انتهاكها، وفيه معنى المهابة و الصيانة، فقد كان ذريعة بدأ بها الأمير عبد الله في الدفاع عن نفسه وحصانته وجاهه وأحقيته في السلطة، فهو ابن سلالة بربرية ذات حق مشروع في الحكم، فهي لم تسلب الحكم ولا البلاد من أحد، بل حصلت عليه عن طريق الجهاد والشجاعة ومحبة الناس لهم، يقول:" فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسية وشدته. وتسامع الناس بالجهاد؛ فبادر اليه من شرق العدوة من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به. وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو؛ وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء. وكان من أدهاهم رأيا وأبعدهم همة زاوي بن زيرى عمنا، وبعده حبوس بن ماكسن ابن أخيه- رضي الله عنهما- ؛ فإليهما كان الرأي والمشورة في الأمر" [١]. فهم ناس تميزوا بأخلاق الإسلام لا ينقضون الذمم

---

([1]) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله، ص١٦-ص١٧.

والعهود، فرسان شجعان يلبون النداء، ولا يخذلون الضعفاء، أغنياء بأموالهم، لا يسعون إلى الفيء، والسيء فقد قالوا لأهل إلبيرة عندما طلب منهم أهلها البقاء فيها وذلك ليدافعو عنها أمام حشود الأعداء، يقول: " لسنا نكلفكم من الأموال ما تسرعتم به، إلا أن تنفقوها فيما يخصكم من تقوية مدينتكم بحشود رجالة منكم, تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعوانا: تصرفونهم حرسا وجواسيس وما أشبه ذلك, وتحملون من تعرفون أنه يستطيع على الجندية، أو تبنون لأنفسكم سورا يتوقع بتركه ثلمة تدخل بها الداخلة عليكم.وأما سوى ذلك ما يخصنا نحن، فاعلموا أنه لم نأت الأندلس إلا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحد، بانين على الإقامة إن اضطررنا إليها؛ ولم نأتها عن فاقة ولا سعاية؛ إنما جئناها رغبة في الجهاد, وأن تكون كفايتنا التي شهرنا بها على العدو دون سائرهم، وأن نفني باقي أعمارنا في طاعة الله, إلى أن دفعتنا الأقدار إلى ما ترون. ونحن لم نطلب أحدا، ولا تعدينا على بشر! وهؤلاء باغون متطاولون. ومن { بغي عليه لينصرنه الله}؛ ومن قتل دون ماله أو أهله, فهو شهيد" [١]

فطفولته كانت بين هؤلاء الناس الخاصة أصحاب المجد الرفيع، فقد تربى في أحضانه، وترعرع في ظل رعاية جده باديس الذي كان "كبير النفس, عالي الهمة, حاد المزاج, لا يستطيع أحد [أن ] يمخرق عليه في أمر من الأمور, ولا ينكسر لأحد من بني عمه, ثقة منه بسعادته؛ وإن الانخضاع والتمريض في القول لا يعنيه ذلك ولا يزيد في أيامه. وكان ذلك كله منه في حزم وروية، لا يفسد جانبا حتى يصلح آخر, ويضرب بعضهم ببعض. فوجست أنفس البعض منه، وأشربوا هيبته ومخافته" [٢].

ففي ظل هذا الرجل نال مجدا وعظمة وسلطة جاهاً رفيعاً تحدث عنه حين عــرض لنـــا تكوينه السياسي. وقد تعاظم هذا الجاه عندما تعهد له بالولاية مقصيا عمه ماكسن عنها الذي هــو ابن باديس، وهو أحق بالحكم، ولكن أخلاقه وما عرف عنه من سوء كان وراء إقصاء أبيــه لـــه ووضع عبد الله بدلا منه، وكأنه في عرضه لإلحاق ماكسن يضع نفسه في الصورة المقابلـــة دون أن يعرضها لنا مباشرة، فقد اختاره جده وفضله للحكم على ولده لما كان عليــه مــن الأخـــلاق والفطنة والسياسة رغم صغر سنه.

---

([1] ) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله،ص٢١.

([2] ) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص٢٧.

فقد ورث من هؤلاء الأجداد كلما وصفهم به وكيف لا فهو ابن هذه السلالة من الأجداد الكرام الذين نظروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام وأهله وهو سليلهم المدلل ابن الرفاه والبذخ، ومع ذلك فإنه لم يهن يوما ولم يخضع لأحد

وحمل العبء الذي أثقل كاهله وواجهه بقوة وصبر وحنكة وثبات رغم صغر سنه.

فهو لم يرث حكما عاديا بل ورث حكما يرافقه وضعا حرجا ينوء به الكاهل وذلك نتيجة الأطماع الخارجية التي كانت تناوش غرناطة وبعض الفتن التي كانت من أيام جده باديس، إلى أن بقيت خامد ة واشتعلت في أيام دولته، وقد عبر عن ذلك في عدة مواضيع، منها قوله على سبيل المثال" وقدم إلى المظفر يقول له:" لا أدخل البلد حتى تأمر بنفي ابن أضحى أو أنصرف من مكاني هذا!" فرأى الحاجب أن نفي ابن أضحى أولى من فساد عسكره. فأمر بنفيه, بعد تغريمه وإهانته. وخرج من ذلك الوقت ساعيا على الدولة ومطالبا لها إلى زمان ولايتنا, حتى أظْفَرَنا الله به, على ما يأتي ذكره بعد هذا." [١]

فهذه البداية عن الأسلاف كان لها دور حاسم في التعريف بالذات الساردة والاعتبار بمركزها، وهي تشكل مفتتح القول، وعليه تنبي حكاية الشخصية، بل يمكن أن نجدها كرؤية وصياغة الماضي البعيد والتحكم في سردنة مشاهده، وما يود أن يرويه. ويمثل حديث عبدالله عن أجداده مرجع التاريخ الفردي والإسلامي له، وهو ما جعل عبد الله ينطلق منه ويذهب فيه إلى أبعد مدى في الحديث والتوثيق بدءا من حيوس جده الأول إلى أن وصل إلى بلقين أبيه والعنصر المؤكد في هذا التوثيق أن الوصول إلى مصدر النسب يعد تأسيسا للغاية التي يسعى المؤلف إلى تحقيقها، وهي تدوين ذاته من خلال أيام دولته، والإشادة بمقامه الفردي والعائلي الذي يضفي على اسمه الاسم العلم قدرا من الوجاهة والمعرفة والنباهة ويعطي لشخصيته النصية سندا غير منقطع يحمل إلى الاسم العلم مذكرات موضوع أتاه سياقا تاريخيا وشرعيا بغية ترسيخ أو ترميز وجوده الشخصي والاجتماعي.[٢]

وبعد أن ينهي حديثه عن أسلافه ينتقل للحديث عن دولته وأيامه، ولأن هذا الكتاب يعي جدا الهدف من وراء تأليفه لهذا الكتاب، وهو تدوين تاريخ شخصيته، فقد صرح بطريقته في

---

([1]) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٦٣

([2]) بتصرف، الشاوي، عبد القادر: ما الكتابة والوجود السيرة الذاتية المغرب العربي وافريقيا الشرق ٢٠٠٠ م ص ٤٥ .

تنظيمه لهذه الأحداث، وتأليف بعضها إلى بعض بقوله:" وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسن عرضا وأفضل نظما من تقطيعه. ولهذا نريد إيراده كالحديث (( [فالحديث] ذو شجون)), ونضرب المثل لبعضه ببعض: فيتفق إيراده دفعة واحدة, ونصه على أكمل ما يمكن".(١)

"وكأنه يومئ ههنا إلى أن حياة الأنسان كل لا يتجزأ, وأن بعض مكوناتها بسبب من بعض. لذلك وجدناه يتوخى سبيلا تسير من الاتساع إلى الضيق و من الدين إلى الدنيا, ومن الأسرة إلى الفرد. وحين يصف عبد الله ما اجتمع لأسلافه من (( سداد وصلاح وتأويل الخير)) فإن ذلك موظف – فيما أرى- لإقناع القارئ بأن شجرة العائلة زكية, ومن ثمة فإن الفرع لا بد أن يكون من قبيل الأصل. وكذا قل في الفصول الأربعة الأولى التي قد تبدو ذات صبغة تاريخية منقطعة الصلة بشخصية عبد الله. غير أن الخيط الرفيع الرابط بينهما أنها أحداث تسلم كلها إلى الفصل الخامس الذي فيه يرتقي الرجل إلى الحكم.

وفي ذلك إلماع إلى أن الأحداث جميعها دالة على أنه أفضل من يقوم بالأمر بعد أن أزيح كل من كان يمكن أن يتولى الحكم سواه. إنه غائب في مستوى الفعل, ولكنه حاضر بوصفه ملاحظا, وبوصفه شبحا مخيما, لأننا

نعرف أنه سيخلف جده. فالحديث التاريخي ههنا غير قائم على السرد الذي تحركه المفاجآت وتسلمه من واقعة إلى واقعة, وإنما هو قائم على كشف خلفيات الحدث الأكبر, تولي عبد الله الحكم. كذلك السيرة الذاتية التي لا غاية لها إلا تفسير الطريقة التي وصل بها الشخص إلى ما وصل إليه في زمن التدوين". (٢)

ولأن عبد الله مدرك إلى أن هذا الكتاب يمكن أن يصنّفه القارئ في دائرة الكتب التاريخية لما فيه من مادة تاريخية، فقد بادر إلى القول إنه كتاب يخص دولتنا تحديدا أي ذاتنا نحن " إذ كان مقصدنا وصف دولتنا خاصة. ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه ". (٣)

---

([1]) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٣

([2]) القاضي, مرجع سابق، ص ٤١.

([3]) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص١٨.

ويقول في موضع آخر " ولأن كتابنا لم يكن مبنيا إلا على وصف مملكتنا خاصة, فلا بد من ذكر جمل من غيرها عند الحاجة إلى وصفه أو ضرب مثل به, تزيينا للكلام وإقامة للبرهان ودورانا على الحقيقة". (١)

فهذا الكتاب مختص بشخص هذا الأمير وزمن حكمه تحديدا، مستغرقا خمسة فصول، يتحدث فيها عن أحداث وقعت له و في دولته على نحو مخصوص؛ فموضوع هذا الكتاب هو شخص هذا الأمير الذي دفعه للكتابة جرح ينزف وذكريات تشد إلى ماضي مجيد وعز وبذخ مسلوبين، وتهمة لا يمكن أن يتسم بها ابن هذه السلالة الطيبة الذكيّة، ولأن التبرير وسيلته في الدفاع عن نفسه ليبرئها فإنه استهل حديثه عن دولته برفضه مطالب الفونش السادس، مستعينا بضمير الأنا الجمعي الذي يخوله الحديث عن نفسه، ويشعرنا بالتطابق بين الأنوات الثلاث. فأعظم خطر كانت تواجهه غرناطة مطامع الفونش السادس، وأطماع جيرانه به وعلى رأسهم ابن عباد، اللذان تناوبا على غرناطة، وشدا عليها الإزار كل على مقدرته ومع كل هذه الظروف فكان الأمير عبد الله صلبا قويا يستعين بالله وبمن حوله من وزرائه وكبار دولته يشاورهم في أمور دولته، يقول:" فأجمع علينا أهل الرأي والمشورة، وقالوا:" ما الذي تذهب إليه؟ هذا عدو قد جاء لطلبك، ولا قدرة بك على مناواته! وسواء عليك خردت أم بقيت! فإن أنت بقيت، حلت بك الداهية العظمى، ووقعت المفاسدة، وأصاب مطالبك سبيلا إلى العمل؛ وتكون أشد من الأولى."(٢)

وأما إذا كانت المشورة في أمر من أمور الدين فإنه يحرص على مشورة الفقهاء وأهل الرأي منهم، يقول:" وشاورت كبار البلدة وفقهاءها في خبرهم؛ فخيروني في الذي حضّ الله عليه من قوله تعالى:" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا" (٣)، فرأيتهم متوجبين للصَّلْب، وأنه أدهى وأمرّ من أن ينفوا من الأرض. فإن شرهم لا يؤمن. وكثيرا ما كان المسلمون مرتقبين لما حل بهم! والله! ما صرفت وجهي لأحد خاصة وعامة من أهل بلادي إلا ووصف لي نت أفعالهم القبيحة ما وتروا بها جميع الناس. ولقد كان يوم قتلهم للناس عيدا كبيرا من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرهم." (٤)

ولكنه إذا شعر أن أهل المشورة تحكمهم الأهواء، وتتجاذبهم المصالح ضرب عنهم صفحا، و فعل ما يريد هو دون ان يشعرهم بذلك، يقول: " وكنا لا نقدم شيئا ولا نؤخره من

---

(1) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص٨٣.

(2) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٤.

(3) سورة المائدة،٣٣.

(4) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٩٨.

هذه الأمور إلا بعد رؤية وفكرة في العاقبة, وندع مشورة الناس؛ فإن بلونا منهم قلة التحقيق، والنطق على الهوى.. فإما مفتون بأمر يزينه ويحمل عليه، وإما كاره لخير أو مطالب لأحد، فيجعلنا نخير عن ما لا يطابق هواه، ( ولو اتبع الحق أهواءهم، لفسدت السماوات والأرض)[١]. فلما بلون من الناس هذه الشمائل، وأن كل أحد يحب أن تجري الأحكام على اختياره، رجعنا إلى اختيارنا، إذ كنا نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا؛ " وما حك ظهرك مثل ظفرك!".

وكنا مع هذا نصغي إلى قول الناس بالأذن، لا بالعقل، فنقيس عليه ونختبر مراده، ولا نريه الخلاف، فنحوشه، غير أني أوسع لهم صدري ويسع جهلهم حلمي، وأقضي بعد ذلك ما أريد، إذ لم أكن على أمر مجبورا ولا مقهورا، إلا ما قهرتني عليه السياسة، وما تحمد له العاقبة، كمن يتجرع الدواء لبراء الداء, ولم أكن أغتبن لأحد في الحق من جهالة ولا غفلة، إلا أن تكون مسامحة وتغافلا لأمر يراد، أو متتابعة للقول في حينه، تلطفا وقلة خلاف على قائله؛ ثم أصرفه تارات. فالجاهل عندنا من إذا أشار برأي، ثم رأى أنه صنع ضده، أن يعاود القول فيه: فإن كان فطنا، من العَيِّ لزم التكرار، وإن كان لا يعلم، فالتذكير به غفلة منه أو استنقاص لمخدومه؛ اللهم إنه لم يسمع من الأولى، فتجري عن الأخرى؛ ولعل خلاف الرئيس على الأمر قد ظهر له، وخفر عن القائل، ولم يرد اطلاعه عليه؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين، وهو يلوم على ما لا يعلم أصله ويتمادى جهالة، وينطق هذرا، وتنحرف نيته على غير معنى؛ فيكون ظالما لنفسه". [٢]

إن هذا النص حديث صريح عن الذات فهو يوضح سياسة هذا الأمير برعيته، إذ يأخذهم بالسياسة التي تصدر عن فكر عميق ومعرفة بالنقوس وحلم يساعده على التروي وأخذ القرار السليم. ولأنه كان حليما فقد مال إلى التعقل والتروي وأخذ القرار السليم في أمور كثرت فيها الخطوب وساءت بها الأحوال، فعندما شعر أنه غير قادر على حرب لا تقدر عليها بلاده، قرر أن يخرج لملاقاته بنفسه ويعرض عليه وضع بلاده، ويفسد ما أبرمه ابن عمار معه، وذلك من أجل قبول المهادنة ودفع الجزية للرومي " فالخروج إليه أيسر لأمرين: فإن كانت سلامة، شكرت أمان، وصرت حيزا في العافية! فاعزم على لقائه، وقل له قولا لينا؛ ولله أن ينفذ قضاءه فاستعددنا لذلك جهدنا، وأجمعنا حوالينا من نثق به من رجالنا، وأخذنا أهبة

---

([1]) سورة المائدة ٣٣.

([2]) بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٩٩-١٠٠.

الحال، ولقيناه على مقربة من المدينة، وبالغنا بالضرورة في إكرامه؛ فأعرض علينا وجها بسيطا وخلقا حسنا، ووعدنا أنه يُحامي عنا كما يُحامي عن بلده.

ثم وقعت المعاملة، ومشت الرسل منا إليه ومنه إلينا، يبين ما عوقد عليه وأنه سيق سوقا، ويقول:" إني قد تشبّت في الأمر، ولم نُعجل حتى نسمع ما عندكم. فإن جاملتموني ورأيتم لقصدي وجها، انصرفت عنكم على خير، وإلا، فها أنا مع من عاقدني!" وطلب خمسين ألف مثقال. فشكونا إليه قلة البلاد، وأن ذلك لا يقدر عليه، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد؛ فإنه، لو أخذ غرناطة، قوى عنصره، " ولم ينطع إليك. فخذ ما نقدر إليه، واترك رمقا لا نستأصل من أجله! وما تركت، تجده عندنا متى طلبت!" فقبل العذر بعد جهد عظيم، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين ألفا، نصف العدد؛ ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيرا، استدفاعا لشره؛ وجمعنا ذلك كله في خباء كبير، ودعوناه إليه. ولما رأى الثياب استحقرها؛ ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها ثلاثون ألفا؛ فأكملناها له لئلا ينفسد الأكثر عن الأقل. فشكر على ذلك كله، وطابت عليه نفسه. ورجع إلى ابن عمار يقول له: " كذبت لي في قولك إن غرناطة في ضعف، وإن صاحبها من صغر سنه لا يعقل! ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك". (١)

فهذه المهادنة " تدفع بها مضرته خيرا من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عونا عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا. فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة ورفاهية، لا يسمع فيها بفتنة" . (٢)

فالمداهنة مع الرومي لم تكن من باب الأنفاق على أي مسلم، وإنما كانت دفعا لشره عن بلاده وهو يؤكد ذلك في عدة مواضع من سيرته، وكان يعجب بمن كانت لهم معه عهود ضد المسلمين "ولم نقس أن أحدا يعاقده على المسلم". (٣)

فإن هذا الأمر منكر عنده؛ فهو ابن سلالة من الأمراء كان لهم تاريخ طويل في جهاد أعداء الإسلام من أجل الحفاظ عليه وصون أهله وبلاده. ولأنه وُصِم بهذه التهمة فقد حاول

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٤-٧٥.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٦.

[3] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٦٩.

جاهدا أن يدفع عن نفسه، وذلك من خلال أمرين الأول ذكر الأسباب التي دفعته للمهادنة، فقد دون طلب العون منه على أبناء مِلته.

والأمر الثاني حديثه عن انجازاته وسياسته في الحكم، فهو لم يكن يوما ظالما ولا محبا للقتل وسفك الدماء، ويميل إلى السلم," ليس كل الناس علم سرّ الأمر الذي نصفه نحن. والدليل ما قدمنا ذكره من ارتباط المعتمد إلى الخير وإيثاره للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته, لم يُر بعده فتنة فيما بيننا وبينه؛ وحقق معنا في كل أمر, كالذي فعلنا نحن معه. وجددنا القعد على ما ارتضيناه من معاوضات, سوى ما كان قديما بيده, مما خرج عنا في أيام المظفر, وأخذت الفتنة عليه حقها, ولم يوجد في طلب ذلك خير, ولا إلى غير المصالحة سبيل فقرَّت الأحوال قرارها, وتهنأ كل واحد منا بملكه، إلا ما كان من سيف بَرَّاني يعترض بلادنا من الروم؛ فكان الرُّزء فيه واحدا، والمشاركة سواء؛ وإن كنا لا نقدر على ذلك بالإمداد بعضنا لبعض لضعف الحال, فكنا نتشارك بالمداخلة وإعمال يستعين بالله وبمن حوله من وزرائه وكبار دولته يشاورهم في أمور دولته الحادثة" فاجتمع علينا أهل الرأي والمشورة, وقالوا: " ما الذي تذهب اليه؟ هذا عدو قد جاء لطلبك, ولا قدرة بك على مناواته! وسواء عليك خرجت أم بقيت! فإن أنت بقيت حلت بك الداهية العظمى, ووقعت المفاسدة, وأصاب مطالبك سبيلا إلى العمل؛ وتكون هذه أشد من الأولى ". [١]

وأما العفو فهو صفة محمودة فيه وسياسة متبعة يروض بها كل من عصا وخرج على دولته، يقول في كتابه، يقول: "وان كباب بن تميت المذكور، لما رأى ما صنع ببني تاقنوت، زاده ذلك حماقة واستيحاشا، وخاطب المعتمد على ما قدمنا ذكره. فأرسلنا إليه نعرض عليه التخلي عن المعقلين؛ فأبى ذلك، وأعد، واستعد بآلة الحرب، وصم الحراسة وأخاف السبل، وقطع الطرق وأتى بما هو مشهور من شره. فاستخرت الله على منازلته، وأمرت بضم الأجناد ، واجتماع الأنداب لقتاله؛ فكان ذلك على أتم ما يمكن. ولما أحس من نفسه بالضعف، وأنه لا ملجأ ولا مهرب إلى أحد بقلة إقبال السلاطين عليه، ترامى علينا، وسأل العفو، خوفا أن يحل به ما حل ببني تاقنوت إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة؛ فأعطيته من العفو ما سأل، ليكون ذلك قدوة لمن

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله, ص ٧٤.

سأل منا العفو بعد الإساءة، فلا ييأس من فعلها، إن دفعنا إلى مثلها بعدها؛ وكانت الأولى عظة وشفقة لمن نفر، ولم يقبل الأمان، وتمادى على الطغيان". [١]

وأما العدل ورفع المظالم فقد باشر أمر المظالم عن الناس، فهو غايته المنشودة، بعد قرار دولته، لذا فقد باشر أمرها بنفسه " وأنه، لما تهدنت لنا الأحوال وقر ملكنا قراره بمصالحة المعتمد، ومعاقدة الرومي على المهادنة، وتوطين النفس على ما نعطيه في العام، انصرف نظرنا إلى إصلاح أمر بلادنا، والفتش على رعيتنا، والكشف على العمال إن كانوا عادلين أو ظالمين. ولما شعر بذلك خدمتنا ومن كان له مذهب في نصيحتنا، انتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على ما خفي عنا زمان تلك الفتنة، فكنا لا نقبل من أحدهم على الآخر إلا بعد روية وهجوم على الحقيقة، حذرا أن يكون مقال أحدهم حسدا للآخر أو طلبا لا يتقي الله فيه". [٢]

فهو لم يسمع من أحد دون تحقق، ولم يعزل أحدا دون إدراكه لغايته، وهذا ما وقع معه سماجة الذي استأثر بأمور الدولة الداخلية نتيجة للوصاية، فعلى هذا الأمير الذي لم يبلغ الحلم بعد يشكل خطرا عليه وعلى دولته، ولأنه قادر على معرفة من هو أمامه، خاطب نفسه بعزله " قلت في نفسي:" هذا رجل قد اعتاد الأمر والنهي، ورأى من يقظتنا للدولة ما لم يكن يريده؛ وليس فعله هذا بهواه؛ وكل شيء يضطر فيه الأنسان، فإنه لا يؤمن خلافه، والرجعة عنه، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروه! فنكون أبدا نكابد منه ما لا يوافق! وإن فاتتني هذه المرة، أكن كمن نبه على أمر وحذر من نفسه، ثم أوبق نفسه إلى المضرات. وإن أغضبنا هذه المرة وعاد إلى ما كان، ثم نرى منه خلافا، لم نقدر عليه بشيء، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر، فإن هذا الأمر منا جاءه فجأة لم يحتسبه ولا ظن به؛ والفرص تمر مر السحاب! فما دمنا نحن بالخيار عليه، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا"[٣].

فبفطنته وحنكته وحسن تدبيره عزل سماجه عن الوزارة في قصة تنم عن ذكاء، سياسة حكيمة، ويجنب بلاده فتنة داخلية قام بقص أجنحته التي زرعها في البلاد من الأعوان حتى تضعف شوكته ولا تقدرعلى الحراك، وليأمن شره أبقاه في بلاطه مدة من الزمان تحت ناظريه مسلوب المهام.

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص٩٨-٩٩.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٨٤

[3] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٨٦

وأما قصته مع أخيه تميم الذي طمع في ملك أخيه فإن لها دلالات كثيرة نرى من خلالها صورا جميلة لهذا الأمير الأنسان العادل الحكيم " ثم لم نلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى جاءنا من أخينا تميم فحمة لم يحتسبها بعد أن رأى ظهورنا، وصلحنا مع سلاطين الأندلس، وما صنعناه بجهات المرية، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأولى، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفتن والشغل الشاغل. فحسب الزمان كله واحدا. ولما سكت عنه قبل، لهذه العلة على ما قدمنا ذكره من بدء أمره، تمادى على تلك الأفعال. فأرسل قطائعه إلى حرب المنكب وشاط، وخويلة في إثرها للضرب على النظر المصاقب لها. وأتاني أهل الجهات شاكين بالأمر." (١)

وصادف في ذلك الوقت اشتغال ابن عباد الذي يمكن ان يساعد اخاه عليه مشغول في حربة مع الفونش فاغتنم الفرصة " فاتفق الأمر وتهيأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فرصة. فنهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر؛ فوالله! ما سمع بنا أهل حصونه، ولم نتدارك بالخروج صبيحة ذلك اليوم، حتى ورد علينا عن حصن القصر بجهة صالحة أنه صار في ملكنا وطاعتنا رعيته؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصي لذوي الغلبة والظهور، فاستبشرنا بذلك، وصرنا إلى الحمة، نروم منها أمر ذلك النظر. فأعلمت بصخرة دومس ( ولا معنى لريه إلا بها، وهي موسطة البلد)، وقد اجتمع فيها جل عساكر مالقة مع قواد صاحبها؛ فلو انتزعت تلك الشوكة، كان أمر غيرها

يسيرا هينا. فاستعددنا لقتالها، و بناهم ضار في أول النزوع عليها. فجزع من فيها من الجند، وأرسلوا إلينا تلك الليلة يطلبون الأمان، ويخرجون بخيلهم سالمين في مهجهم. فأجبتهم إلى ذلك، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي؛ وأخلوا الصخرة، وصار فيها جندنا. "(٢)

فإن حنكته وسياسته تظهر في هذه الحال فهو يستميل الناس اليه ويخضعهم إلى السلم عن طريق منحهم الامان وحفظهم من سوء العاقبة على ما فعلوه.

ولما رأى أخوه أن الأمر إليه أرسل إلى عبد الله يسأل العفو وإقالة العثرة فما كان من هذا الامير إلا الجاه والإكرام له ومنحه بعض من النواحي واحصون بعد أن حصن أهلها بالأمان من أخيه وقطع لهم إيماناً مغلظة، ولأنه حريص على أسرته وأهل بيته وعلى أخيه حاول احتواءه ووضعه تحت جناحي كرما لأمه التي على قيد الحياة.

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٩٠.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٩١.

" تم لم نر وجها في الإلحاح عليه؛ فربما أخرق، وصيرها إلى سوانا، كالذي صنع ماكسن عمنا بجيان؛ فتكون مصيبة للبلدة، وعارا عظيما، من توليج أخينا وشقيقنا إلى غيرنا، وتغريبه في البلاد، وأمه في قيد الحياة؛ ولو لم تكن ، فأبقينا عليه، وقد أدبناه بما يكفي، ووسعنا عليه في النظر مما لم تبق فيه من الرعية، وكان مهما عليه؛ وأخلينا له ريينة وجطرون؛ فإن رعيتها نصارى، وهم بين النظرين، لا يقدرون على نفاق مع أحد؛ وأعطيناه قرى يتسع فيها لمرافقته. وبقيت بيد حصون الغربية مثل قرطمة، وميشش، وحمارش؛ وأعطيناه قامرة، بلد الزرع، ليتسع فيها الحرث. وحرمناه غيرها، التي يتوقع من أهلها ومنه: إن استأسد بها، لم يؤمن شره."[١]

فهذا الإنسان حريص على أن يلحقه العار من وراء ظلمه لأخيه فكيف يظلم نفسه ويدفع بها إلى المهانة ويعقد معاهدة مع الرومي تلحق به العار إلى يوم يبعثون.

لقد كان تركيز الأمير عبد الله في الفصلين الخامس والسادس على أحداث وأمور تتعلق بمملكته من الخارج والداخل يطرق إلى أحداث أخرى إلا عند توضيحه أمران يروم من ورائه تبريرا لموقف وقفه أو فعل قام به مع إظهاره لجانب غير بسيط من شخصيته السياسية الحكيمة المحنكة الرافضة الذل وقبول المهانة، فهو يتمتع بأخلاق الإسلام التي ورثها عن أجداده كما ورث منهم ملكا مثقل الأعباء والأطماع ومع ذلك ظل يسير بهذه المملكة إلى أن قر قرارها "وبقيت أحوالها على أفضل ما يمكن وبلغنا من آمالنا غايتها " فكانت هذه العبارات مفتتح الفصل السابع وهو الجزء الذي يتحدث فيه المؤلف عن أحداث وقعت في الأندلس بشكل عام شارك فيها وشهد عليها، وإن ذكره لهذه الوقائع التاريخية هو السبب الذي دفع البعض إلى وضع هذا الكتاب في دائرة المذكرات إذ هي قصة مكتوبة تروى فيها الأحداث الواقعة في حياة شخص ما كان شاهدا عليها أو فاعلا فيها، وهذا ما ينتفي عن هذا الكتاب، وذلك أن صاحبه لم يذكر هذه الوقائع التاريخية مجانا دون وعي منهم، بل جاء ذكره لها من اجل ابراز ذاته أمام كل الذي يحدث من جهة وتسلسله في الأحداث التي كانت وراء سقوط دولته ومهدت إلى سوء المال، كل من جهة اخرى، فهو رجل يلبي دعوة الجهاد التي دعى لها المرابطون دون ان يكون لها مصلحة شخصية عندهم معبرا عن ذلك في عبارات، ثم عن حسن النية في نفسه فهو لا يضمر الا الخير والحب لهم.

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٩٤.

"وأرسل أمير المسلمين عند حلوله بإشبيلية، عن جميع الرؤساء؛ فأما ابن صُمادح، فأبى عليه [وبقي] متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم؛ واعتذر بكبر السن مع الضعف، وأرسل ابنه معتذرا. وبادرنا نحن إلى الخروج، وسررنا بذلك، وأعددنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا؛ وقدمنا الهدية إلى أمير المسلمين، وأمرنا بضرب الطبل وما يستعد به للفرح، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة. وظننا أن إقباله إلى الأندلس منة من الله عظمت لدينا، لا سيما خاصة من أجل القرابة، وللذي شاع من خيرهم، وإقبالهم على طلب الآخرة، وحكمهم بالحق؛ فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام: فمن عاش منا كان عزيزا، تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيدا. والعجب في تلك السفرة من حسن النيات، وإخلاص الضمائر، وكان القلوب إنما جمعت على ذلك". (١)

ولكن الأمر لم يأت على مرامه، بل كانت الاحداث تسير على غير ما يرتضي ذلك، من سوء الأحوال التي كان عليها ملوك الطوائف، واستعانتهم بالروم على بعض، وتفرق كلمتهم، مما أعطى المرابطين وأخذوا على عاتقهم محاربة هؤلاء، الملوك لما شهدوه من احوالهم حين جازوا الأندلس برسم الجهاد للمرة الاولى، وكأني بالرجل يود أن يقول: على الرغم اني لم اكن يوما خائنا ولا غادرا ولا انا مثل هؤلاء الملوك إلا أن الأقدار هي التي ترسم لنا خطانا.

واستمر في الفصل الثامن في سرده للاحداث لكي يصل بنا إلى منتهاها في الصليبين الاحصين ومع سرده لما كان يعرض لنا ذاته المضطربة الخائفة من القادم، فكل شيء ينبئ عن السوء، وهو مع كل هذه الاحداث يصر على تقديم التسويغ للقارئ، وكأنه في محكمة يترافع بها عن نفسه، فهو على تلك الحال طول هذه الصفحات تتنازعه الأفكار مرة إلى التفاؤل ومرة إلى الشتاؤم، يقول: "ولما وصلت وادي آش، وقد ظهر إليّ قبل في لبيط من جفاء قرور وتخويفه لي، وتهديدي على لسان الأمير, والأمير عند ذلك غافل, غير أنني حسبت ذلك من قبله لما رأيت من مكانته عنده. فأدركني من ذلك رعب شديد.وعاينت مع هذا ما حل بابن رشيق, وسمعت وعيد القليعى لي، وجفاءه علي، وإزالة رقبتي عنه، ما زادني ذلك جزعا، لا سيما أن الجزع والسوداء متمكنة من نفسي، وأجدها في طباعي؛ كدت أن أموت غما". (٢)

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠٤.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٤.

وظهر الاضطراب في كل افعاله واقواله "وقلت: " ليس من الممكن أن يتعرض أمير المسلمين أحدا من سلاطين الأندلس إلا بعد إبرامه لأمر الرومي! ولا بد عند مناظرتهم من فرج: إن غلب المرابط، لم يفتنا الدخول في طاعته، ولا أسدينا إليه ما تذم عاقبته أكثر من الاحتياط على بلادنا والمداراة عليها؛ " فلا الحمار سقط، ولا الزق انخرق!" نحن مدركون: لا ينبغي تقديم يد سيئة إليهم. وإن غلب الرومي، كنا منه على حذر، وقد نفعنا ما أبرمناه من هذا البنيان والتشديد، واتخاذ العدد؛ فسيكون بذلك للمسلمين حماية وانجرار إلى غد، إذ البنيان من المرابط لا ينفع!" .

ولذلك أعددنا المنكب: إن تغلب الرومي، فأكون على البحر متصلا بالمسلمين، ندافع منها جهدنا، إلى أن نضطر إلى الجواز طلب السلامة بحُشاشة أنفسنا ونتف من أموالنا. فشيدتها لذلك، كالذي شهر عنا.

والجاهل لا يدري ما أول هذا ولا آخره، ويخبط [خبط] عشواء: فكل يتكلم على شهوته. ولم نعتقد في أمر المرابطين - يعلم الله ذلك - صدهم عن جهاد، ولا تظافرا مع أحد عليهم، ولا أردت بهم شيئا من مساءة نسبت إلينا، أكثر من أني جرعت الجزع الشديد مما تقدم ذكره من تلك المعاني التي أبصرتها، وما جرى على ابن رشيق، مع هلعي لذلك، وتمكن السوداء مني، وسوء الظن مع معاينة اليقين. فقلت: " ما دام تتلقى الفئتان، نخشى حملة السيل على هذه المدينة: فتحصينها أولى، ولن يضر ذلك " فمتى دعاني أمير المسلمين إلى إعطاء عسكر أو مال أو ما أشبه ذلك مما يجب مشاركته وإنجاده، لم نتأخر عنه، فتقيم على نفسي الحجة؛ وتجلب إلي المضرة إن فعلت غيره؛ غير أنني، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسي، نعتذر وندافع ذلك جهدي. فعسى أن يتركني ويقبل عذري؛ ومتى لم يقبل لي عذرا، تعلم أنه يريد إخراج أمري إلى حدود الفعل، فهو إذا علي متعسف لكلام الأعداء والكذب؛ فلا بد لي عند ذلك من الاحتياط على مهجتي والتحصين على نفسي، ونجعله إذ ذاك كسائر من يريد إخراجي من السلاطين؛ ولي معه الله، إذا لم أنو به سوءا، ولا واسيت عليه أحدا، ولا صددته عن جهاده. فبأي شيء يتسبب إليّ إلا إن شاء التذنيب مع القدرة؟ فلا طاقة لي بذلك، كالذي صنع إنسان دخل على بعض الملوك، وقد أعد لكلامه جوابا؛ فلما خرج إلى الثقاف، سئل عن إعداده الجواب وزعمه أن ذلك نافع له؛ فقال:" لكل كلمة وجدت جوابا إلا لقوله: " خذوه!" فلم أدر ما أقول فيها؛ فوكلت الأمر إلى الأقدار!".

وكنت، أيامي تلك، بين الرجاء والخوف، إلا أني واثق بكل من معي من رجالي وخدمتي أنهم لا يغدروني. فقويت نفسي لذلك بعض القوة، مع ما كنت أعددته".[١]

ومع كل هذا الاضطراب والخوف فقد اسلم نفسه للقدر، فهو رغم كل ما قدمه من تسويغات يدفع عنه إلا أن الغدر كان على وعد معه، اذ وصله تهديد يوسف بن تاشفين، ومع ذلك قدمه لنا مع نوع من التبرير أيضا، وفسر لنا مسكه فهو لم ولن يكون من المتعامدين مع الرومي، وكيف يكون ذلك واول سيف شهر في وجهه كان منهم "والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبة، ولا يسألني الله عن كلمة طعنت فيها على مسلم. فاتفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب؛ ولو أني أريد ذلك، والأنحياش إلى النصارى، كالذي قيل، لم يصل المرابطون إلى سبته إلا ومدينة غرناطة مملوّة منهم؛ وكنت أستطيع على ذلك, وكانت لي في المدة برهة وفسحة طويلة, إلا أن الأعمال بالنيات, وتلك القالة إنما كانت سببا للذي قدر؛ ولو أن قضيتي تستوضح، لوجد فيها ما لا مطعن فيه، ولا مقال بينة، ولا إسرار في مبيل على مسلم، ولا إدخال داخلة. وكيف يصح هذا قبلنا، وأول سيف سل على الروم إنما كان قبلنا، وهي الوقيعة المشهورة بالنبيل، من طاعتنا، في حين تطرق النصارى إليها على حين غفلة؛ ووافق ذلك أول ظهور المرابطين ووصولهم سبتة؛ ووردنا إذ ذاك رسول الفونش معتذرا من الأمر؛ فصرفناه عن الطريق، قطعا له، وايثارا لأمير المسلمين.

وعند الله تجتمع الخصوم.[٢]

وأما الفصل التاسع فإنه استمرار لفرض ما مضى من أحداث، واسترجاع لها على لسان مؤلفها، وهي أحداث أضعفت دولته، وسارت بها إلى حافة الهاوية، وذلك لأنها من الداخل أي من الصميم، وهو مع كل هذه الأحداث متماسك يتطلع إلى المستقبل الذي تكتنفه المخاوف من المرابطين، لدرجة أنه زوج أخته من الرعية ما هم دونه حتى لا تشره نفس أحدهم الحكم، ولم يزوجها من أبناء عمومته حتى لا يدافعوه على السلطة...

وأما آخر فصل في حديثه عن ذاته فإنه عرض مسرحي تعددت مشاهده وعلت فيه الأصوات وأخذت تتحدث إليها من خلاله مفسحا لها المجال، عن طريق سيدة ألفاظ القرو، قال ما يقول "فرابني ذلك، وهو موضع الانقباض، لما تقدم من الطلب، وأن بمحضرة جميع أعدائنا،

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ١٢٠-١٢٢.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٢٨_١٢٩.

وإلحاحه علينا في الوصول. واعتذرت إليه بتوجيه رسل: أحدهما ولد حجاج, والآخر ابن ما شاء الله. فساعة وصولهما، قرعهما بكل ما نقل إليه، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام؛ وقال لهما: " بالله! إني غزوته كما نغزو الفونش! والذي يقدر عليه، فليصنع!" وأتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوأ حالة، مضروبين ملهوفين، أطلقهم قرور ليعلموني بالقصة، ويقول: "بالله! أن أطلقهما الأمير حتى ينطلق مؤمل وأصحابه!" فدهمني من هذا الأمر ما لا مرفع فيه ولا حيلة. ولا ظننته أن يجري على هذه الرتبة." (١)

وأما صوته هو فقد تواري وراء مناجاة داخلية يحدث بها عن نفسه, ويحاورها فيما يصنع أمام هذه المصيبة التي حلت به لا محالة، أيهرب من قدر إلى قدر آخر يلحقه العار منه ويغضب الله فيه أم يقنع بأقداره، إلى أين مفر؟؟؟

" فلم ندر ما نصنع، " واتسع الخرق على الراقع"؛ وقلت: " لا طاقة لي بجميع أهل البلاد، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة! فبمن نمسك الحضرة؟ ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقل. " ولا يتمكن للخباء أن يقف دون أوتاد!" ولا في الأمر من مداراة ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا! ولا ثم غيره يسند إليه، فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى! ولا في الممكن أن نوجه إلى الرومي، فيكون ذلك فسادا في الدين واستعجالا في المكروه؟ وإن شعر بذلك أهل حضرتنا، كانوا أول من يقاتلنا قبل المرابطين! ما دام الستر بيننا وبينهم، فيكشفون لنا القناع على بصيرة!" فما عهدنا أياما وليالي كانت أفجع لقلوبنا، وأدهى لنفوسنا من تلك الأيام". (٢)

وهناك نص آخر تظهر به نجواه إلى ذاته وكيف تتلاطم في نفسه أمواج الفكر أيستجير من الرمضاء بالنار أم يقنع بقدره يسلم نفسه..لم أورد هذا النص على جماله وذلك لطوله وضيق المقام هنا (٣).

وكأنه بهذه النجوى يبطئ الزمن ويشعر القارئ انه طويل جدا، فهو لا يود الوصول إلى هذه اللحظة الحاسمة التي يرفعها من داخله، فهي التي بدلت زمانه وقلبته رأسا على عقب..ولكن هذه اللحظة وصلت رغما عنه، وجاء زمن التسليم الذي استغرق مشهدا طويلا من هذه القصة

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٧-١٤٨.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٤٨-١٤٩.

[3] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٥١-١٥٤ (٢).

المحزنة، فقد جاء تصوير القمة الطرح الذي ختمت به حياته السياسية وأسدل عليها الستار.فكان مشهدا دراميا عنيفا تعالت به الأصوات واحتفل بالحزن وخيبة الأمل وقسوة الزمان وتبدل الأحوال، وأثر كل ذلك في نفس هذا الأمير الأسير الذي عني بتصوير هذه الأبعاد العاطفية والاجتماعية إلى جناب تصويره الأبعاد الشخصيات الأخرى حتى في زمن التدوين وذلك ليصور لنا أثرها في نفسه، فهو لم ولن يستطيع أن ينسبها، فهي قيود شجونه وأحزانه " ورجعت إلى الوالدة, أعظها، وأقول لها:" أسألك بالله! إلا ما أشفقت علي؟ فربما قد أخرجت شيئا لا أعلمه؛ فيظهر بعدي, ويكون فيه هلاكي وهلاكك! والدنيا أقل من هذا كله!

والقوم كما ترين, متعلقون بشعرة, يطلقون معنى أرقّ سبب! فإياك أن تشمتي بي! و'ذا تبرأنا له، لا يمكن له تضييعنا. وليس يدخر المال إلا لثلاث: سلطان يجور أو فتنة تدوم أو عمر يطول ونحن في نفر يسير!" .

فلما سمعت بذلك، بكت وقالت: " نخشى أن نبقى فقراء! والموت أهون من الفقر!" فسهلت عليها الأمر؛ وقالت:" إن الله لا يضيع من خلقه!" فكتبت تسمية بما أودعت من متاعها، تلك الليلة التي حان خروجي في غدها: ذكرت أن لها عند (لذة) خادم أبن أبي خيثمة كاتبنا سبييات لبعض جواريها، ولها عند ابن الزيتوني القروي أربعة آلاف مثقال، وحليا أرسلت فيه على المقام: نحو خمسة عشر عقدا؛ فأما الحلى فأتاها وأعطته لقرور، ولم تؤخر به ساعة؛ وأما الذهب، فإنها لما جلبته من ابن الزيتوني بادر به إلى السلطان وتحمله لنفسه. وكذلك فعلت خادم ابن أبي خيثمة، وأتت إلى قرور بتلك الأسباب؛ فوقع إلينا الخبر، وزادنا ذلك هما أن بدروا به للشرط الذي اشترط علينا؛ فأخذت على المقام تلك التسمية، فأرسلتها إلى قرور، قبل أن يبدأ بنا؛ فقال:" قد أخرجوه لنا. فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم!" فاستفهمت والدتي ثانية، وبكيت لها؛ فقالت:" ما لي شيء عند أحد أكثر!" فأخذنا المصاحف، وحلفنا فيها لقرور أنه ما لنا شيء أكثر، لا مودع ولا مرفوع" فأعلن السلطان بما أقسمنا به، وجعل مع هذا يبحث ويستقصي. فما وجد لنا أكثر كما قالت الوالدة". (١)

تحيرت جدا من هذه المشهد دون عرضه كله وذلك لطوله. ((وأما القسم الأخير ففيه حديث عما وقع لملوك الطوائف بعد سجن عبد الله, اردفه المؤلف بتأملات بعد النفي.ورغم ما دل عليه الجانب الأول في الظاهر فان همه ليس التاريخ للأندلس بقدر ما هو تقديم البرهان

---

[1] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٨-١٥٩.

القاطع على أن ما رمي به إن هو إلا تهمه باطلة يؤكد ما أن المرابطين واصلوا احتلالهم للممالك الأندلسية بعد استسلامه ونفيه إلى اغمات.

وأما الجانب الثاني فهو من الدائرة ذاتها، وذلك أن الرجل يصور ما آل إليه في منفاه وآراءه في الشعور والتنجيم والطب والأغذية والنبيذ.

والحق أن هذا القسم الأخير يتكامل والقسم الأول من حيث أن الكاتب أبان في البداية عن الوضع الذي ورثه ,وفي النهاية عما بقى له من تلك المغامرات التي زجّ به فيه. [١]

من خلال عرضنا السابق لكتاب التبيان تتصح لنا أن صاحبه صدر به عن رؤية وحدت بين أجزائه، إذ جعل محوره الأساس ذاته إلى الهدف وتاريخ شخصيته السياسية، وذلك وصولا إلى الهدف المنشود من وراء هذا التأليف.

وإذ نظرنا إلى متن هذا الكتاب بدءا من العنوان ووصولا به إلى منته، تطالعنا به الأحداث التاريخية التي جعلت البعض يرى انه من قبيل المذكرات، وعلى رأسهم ليفي بروفسنال. إن هذه التضارب في الآراء يدفع بي إلى وضع هذا الكتاب في نصابه الصحيح مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا النص ألفه صاحبه قبل اعتبار السيرة الذاتية جنسا قائما بذاته حتى في الأدب الغربي...

ولم يكن له تقاليد راسخة لذا فاننا سوف ننظر له نظره خاصة نبدأها من نية التأليف والتي تعدها جليلة الطريطر الأساس الأول لكي تكون هناك سيرة ذاتية[٢] .

وقد تجلت هذه النية عند الأمير عبد الله في عقده السير ذاتي فهو يود أن يكتب سيرته على نحو مخصوص ولأنه ليس ممن كانت له قدم راسخه في الكتابة، ولم يكن له باع بها، فإننا رأيناه حريصا على إعلام القارئ بأن كتابه هذا ليس كغيره من المؤلفات، فهو لم يجعله في ذكر الاخبار الواقعة بالأندلس((اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيرا من الأخبار عنها واقتصرنا على الإطناب فما يحصنا منها )) .

إذا فإن هذا الكتاب يتحدث عن الذات متلمسا إياها وعارضا لها، ولكن ما يتعلق بها وهو الشرط الثاني الذي اشرطته جليلة الطريطر ووسمته بالهوية السير الذاتي، وهو عنصر أساسي عند لوجود في تعريفه، إذ إن موضوع السيرة هو تاريخ شخصية بعينها..وقد رأينا ذلك جليا في

---

[1] القاضي، ص٤٠.

[2] بلقين الله: مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٣٤١.

هذه السيرة فصاحبها عرض لنفسه، وعرفنا بها وبأبعادها، وعرفنا من هو هذا الأمير ابن السلالة الطيبة صاحب الملك، وبيده الأمر والنهي وهو الرجل المنكوب في ملكه وماله ومتهم في دينه، أسير.فهو كل هذا معا متزوجا بذلك الاسم العلم عبد الله وموضحا صورته على حقيقتها التي خفيت على الناس، ولأن غايته كانت التسويغ وتبرئة...

الذات معا إزاء ما وصمت به. جاءت أحداث هذه السيرة حضرته بوقائع تاريخية وقعت له، فحديد وفي مملكته، مما دفع السيف إلى إدراجها في دائرة المذكرات، ولكن الشرط الأخير الذي أوضحناه آنفا وهو مبدأ الهوية" والتعريف بالشخصية" وأسلوبه الأدبي الذي أعتمد فيه على استرجاع الأولويات الماضية واستشرافة المستقبل عن طريق الشيء والاستباقات التي لا يصدر إلا عن راو سير ذاتي. وأسلوب الحوار الدرامي وتطابق الأنوات الثلاث كلها تحثنا على القول بأن هذا الكتاب هو في نظرنا سيرة ذاتية أدبية لها خصوصية، عصرها الذي لم يعرف به هذا الجسد على صورته في العصر الحديث، فهو كما يقول لوجون " حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة".

فإذن هو سير ذاتية أدبية إذا ما أخضعنا العناصر الموجودة في هذا التعريف كما عرضناها سابقا.

## طوق الحمامة

لا نكاد نمضي مع ابن حزم في كتابه طوق الحمامة حتى نجد أنفسنا أمام دفق هائل من الاعترافات التي يروي فيها مواقف عن نفسه وعن أصدقائه وشخصيات معروفة في الأندلس وغير معروفة، جلهم من العشّاق الذين ذاقوا لوعة الحب ومرارة الهوى . ومع أن هذه الاعترافات والذكريات جاءت ضمن كتاب عن الحب والمحبين ولم تكن مشتملة في كتاب خصصه من أجلها إلا أنها اعترافات صادقة تتسم بجرأة وصدق ليس لهما نظير في أدبنا العربي، وذلك كونها تمس منطقة لها قدسية عند المسلمين , فما اعترف به ابن حزم عن الحب ومعاناته مع الهجر من قبيل الاعتراف وذلك لمكانة ابن حزم، فهو علم جليل وفقيه مسلم، وهذا مما كان يستهجن على الفقهاء والقضاة وأهل العلم بالعلوم الشرعية والدينية , ولو كان من غيرهم كشعراء الغزل والمجون لما عددناه من قبيل الاعتراف والحديث الحار والملتهب الذي يمكن أن يثير السخط العام عليهم .

وحتى لا يثير هذا السخط فإن ابن حزم قدم اعترافاته وذكرياته بصورة جميلة لا يشوبها الابتذال ولا الانكشاف المهين، لذا فقد بدأها معتذرا واختتمها بباب قبح المعصية الذي يعد أطول باب في هذه الرسالة، وباب فضائل التعفف وذلك كي يبرئ ساحته من الظن السيئ به .

ومع أن ابن حزم لم يقعد إلى كتابة سيرة حياته كاملة كما أوضحنا ذلك عند حديثنا عن القد عنده، وإنما عرض إلى جوانب فيها، إلا أننا نستطيع أن نلملم أطراف هذه الاعترافات والذكريات، ونتعرف على جوانب هامة عن شخصيته وأسرته وبعض ما مر به من حوادث قام بذكرها وأوردتها لنا المصادر، وهذا يثبت مصداقيته، وخير شاهد على ذلك تاريخ حياته الذي حدث به عن نفسه .

### ابن حزم وأسرته من خلال الطوق:

تُظهر لنا ذكريات ابن حزم واعترافاته انه كان من بيت عزّ وجاه، فهو ابن وزير، فإذا تحدث عن أبيه ذكر "أيام وزارة أبي, أو إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله وأيام دولتنا وامتداد ظلنا ".(١)

---

([1]) الأندلسي، ابن حزم: الطوق, ص٣٧،١٣٧ م ن ,٦٨, ٩٤ ,

وأما وصفه لدورهم وطوقها بجانب قصر الزهراء وكثرة الجواري بها فهـو ممـا يؤكد هذه المكانة. وأما وصفه الجميل الذي ورد ,عن دورهم في بلاط مغيث على لسان شـخص ورد من قرطبة فهو يعبر عن تبدل هذه الحال والمكانة بعد فتنة البربر التي أرغمته على الرحيل من هذه الدور [١]". وقد امحت رسومها,وطمست أعلامها, وخفيت معاهـدها, وغيرهـا البلـى, وصارت صحارى مجدبة بعد العمران, وفيافي موحشة بعد الأنس, وخرائب منقطعة بعد الحسن, وشعاباً مفزعة بعد الأمن,ومأوى للذئاب, ومعازف للغيلأن, وملاعب للجان, ومكامن للوحـوش, بعد رجال كالليوث, وخرائد كالدمى ,تفيض لديهم النعم الفاشية. تبدد شملهم، فصاروا في الـبلاد أيادي سبا, فكأن تلك المحاريب المنمقة, والمقاصير المزينة, التي كانت تشرق إشراق الـشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها, حين شملها الخراب, وعمها الهدم, كأفواه السباع فاغرة, تؤذن بفناء الدنيا, وتريك عواقب أهلها, وتخبرك عما يصير إليه كما من تراه قائما فيها, وتزهد في طلبهـا, بعد أن طال ما زهدت في تركها, وتذكرت أيامي بها, ولذاتي فيها, وشهور صباي لـديها, مـع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم, ومثلت لنفسي كونهن تحت الثرى, وفي الآثار النائية, والنـواحي البعيدة, وقد فرقتهن يد الجلاء, ومزقتهن أكف النوى " . وقد بدأت النكبـات تحـل بـابن حـزم وأسرته بمجرد إعلأن وفاة الخليفة هشام المؤيد بالنكبات، وتوالت عليهم إذ يقول في ذلـك " ثـم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات, وباعتداء أرباب دولته, وامتحنـا بالاعتقـال والترقيب, والإغرام الفادح والاستتار, وأرزمت الفتنة, وألقت باعها, وعمت الناس, وخصتنا, إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله, ونحن في هذه الأحوال, بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا مـن ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة[٢] ، واتصلت بنا تلك الحال بعده".

ونتيجة حتمية لهذا التشرد فقد تعرض ابن حزم إلى السجن على يد خيران صـاحب المرية, ومن ثم النفي " وفي إثر ذلك نكبني خيران [٣] صاحب المرية, إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين _وقد انتقم الله منهم _ عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي[٤], أنا نـسعى

---

([1]) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ١١٥-١١٦.

([2]) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ص ١٣٦

([3]) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ١٤٥.

([4]) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ١٨٦ .

في القيام بدعوة الدولة الأموية, فاعتقلنا عند نفسه أشهرا, ثم أخرجنا على جهة التغريب, فصرنا إلى حصن القصر[١] ".

وظل ابن حزم على هذه الحال إلى زمن هذه الرسالة، حيث يقول لصاحبه في الختام معتذرا " والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع, وفراغ القلب, وإنّ حفظ شيء, وبقاء رسم, وتذكر فائت لمثل خاطري, لعجب على ما مضى ودهمني. فأنت تعلم أن ذهني متقلب, وبالي مبصر بما نحن فيه من نبو الديار, والخلاء عن الأوطان, وتغير الزمان, ونكبات السلطان, وتغير الإخوان, وفساد الأحوال, وتبدل الأيام, وذهاب الوفر, والخروج عن الطارف والتالد, واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد, والغربة في البلاد, وذهاب المال والجاه, والفكر في صيانة الأهل والولد, واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل, ومدافعة الدهر, وانتظار الأقدار, لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه, وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ".

## العشق والحب عند ابن حزم:

يبدأ ابن حزم حديثه عن ماهية الحب يقول " الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد, دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف , فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاينة , وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة ,إذ القلوب بيد الله عز وجل".

فهذه الكلمات التي بدأ بها ابن حزم رسالته عن ماهية الحب وضع فيها مرتكزات ثلاثاً كن له منطلقاً في اعترافاته

١_ الحب لا يعرف معانيه إلا من وقع فيه وذاق طعمه

٢_ وهو غير محرم لا في الديانة ولا في الشريعة .

٣_ وهو من الله عز وجل .

لذا فهو لا يجد في نفسه حرجا من أن يعترف بغرامياته وحبه للجواري اللواتي كن معه في قصر أبيه، إلى غير ما هو معهود في زمانه وما بعده، فقد حدثنا عن حبه لنعم جاريته أكثر من مرة مصرحا باسمها ومتغنيا بها في أشعاره. فهو وفيٌّ لها لآخر أيامه "وعني أخبرك أني أحد من دُهي بهذه الفادحة.وتعجلت له هذه المصيبة, وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً,

---

([1]) رحل عن قرطبة في أول المحرم سنة أربع وأربعمائة ,الطوق ١٣٦.

وأعظمهم حباً بجارية لي, كانت فما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً, وموافقة لي, وكنت أبا عذرتها. وكنا قد تكافأنا المودة, ففجعتني بها الأقدار, واخترمتها الليالي ومر النهار, وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة, وكانت هي دوني في السن, فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي, ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني, وقلة إسعادها, وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن, ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف, وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ, مسارعاً طائعا, وما طاب لي عيش بعدها, ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها, ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله, وحرم ما كان بعده[١]".

وله اعتراف آخر عن جارية أخرى تعرف عليها وأحبها و كلف بها، ولكن الأقدار حالت بينهما، نتيجة رحيله عن دورهم بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزهراء إلى دورهم القديمة بالجانب العربي من قرطبة ببلاط مغيث ولم تنتقل هي بانتقالهم لأمور أوجبت ذلك " وإني لأخبرك عني [٢]:أني الفت في أيام صباي, ألفة المحبة,جارية نشأت على جهات لا يطلع من غيرها عليها. وعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج في الآثار. ثم نزلن إلى البستان , فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها, فأمرتها, فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله, وأن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة, ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول:

إني طربت إلى شمس إذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير

شمس ممثلة في خلق جارية ... كأن أعطافها طى الطوامير

ليست من الأنس إلا في مناسبة ... ولا من الجنّ إلا في التصاوير

فالوجه جوهرة والجسم عبهرة ... والريح عنبرة والكل من نور

كأنها حين تخطو في مجاسدها ... تخطو على البيض أو حدّ القوارير

---

(١) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ١١٣ .
(٢) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ص ٣٧.

فلعمري لكان المضراب إنما يقع على قلبي, وما نسيت ذلك اليوم, ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا. وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها "(١) .

وله في هذا الباب اعترافات كثيرة. ومنها يصف حبه لجارية شقراء الشعر فما استحسن من بعدها سوداء الشعر فصفة الشقار هي الصفة التي كانت تجذب ابن حزم ووالده وهي نفس الصفة التي كان خلفاء بني مروان مجبولين على تفاصيلها (٢).

ومع تفضيله لصفة الشقار إلا أن حبه لا يأتي بعد النظرة الأولى وإنما مع المحاولة" ومن الناس من لا تصح إلا بعد طول المخافتة, وكثير المشاهدة, وتمادي الأنس ,وهذا يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالي,فما دخل عسيرا لم يخرج يسيراً. وهذا مذهبي " (٣)

وانه يطيل المحب ممن يدعي أنه يحب من النظرة الواحدة فقط ,ولا يكاد يصدقه ويرى أن مثل هذا الحب طرأ من الشهوة لا ينفذ إلى حجاب القلب , ولا يتعلن من صميم الفؤاد. يقول معترفا عن نفسه: " وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة,ولا أكاد أصدقه, ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة, وأما أن يكون في ظني متمكنا من صميم الفؤاد, نافذا في حجاب القلب, فما أقدر ذلك, وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل, وبعد ملازمة الشخص لي دهراً, وأخذي معه في كل جد وهزل, وكذلك أنا في السلو والتوقى, فما نسيت وداً لي قط, وأن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء, وقد استراح من لم تكن هذه صفته" (٤) .

فالشهوة تتنوع بتنوع ما تقع عليه العين من أشكال الجمال والحب، ولكن الحب الحقيقي واحدٌ دائما لا يتلوّن، فإذا رأيت من يحب اثنين في آن معا فاعلم أن الشهوات تسمى على المجاز حباً "وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي ,واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان, فهذا سر الشهوة ومعناها الحقيقي, فإذا غلبت الشهوة, وتجاوزت هذا الحد, ووافق الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً, ومن هنا دخل

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول القصة التي رواها عن نفسه في باب السلوطويلة ينظر الطوق ٣٤-١٣٧ .

(2) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٣٧ .

(3) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص٣٣.

(4) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ٣٣.

الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين, ويعشق شخصين متغايرين, فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفا, وهي على المجاز تسمى المحبة لا على التحقيق" [١].

إن هذه النظرة للحب تصدر عن رقي فكري وحضاري عرفه المجتمع الأندلسي، فهو يبحث عن حب يرقى به ويسمو سمواً روحانيا، ولم يبحث عن الابتذال ولا الرذائل، ولم يلين يوما ممن أهانه الحب، إذ هو عزيز الدمع مع أن "البكاء من علامات المحب، ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم عزيز الدمع هامل الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء , ومنهم جمود العين عديم الدمع وأنا منهم " [٢].

ومع جمود عينه وصلابته إلا انه يعجب من أمور تقع في الحب، كطاعة المحب لمحبوبه عندما يقع سلطان الهوى ويتنسم المرء بنسيم الحب "ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه, وترى المرء شرس الخلق, صعب الشكيمة, جموح القيادة ,ماضي العزيمة, حمى الأنف, أبيَّ الخسف, فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب, ويتورط غمره, ويعوم في بحره, فتعود الشراسة ليانا, والصعوبة سهلة, والمضاء كلالة, والحمية استسلاماً ."[٣]

وتتجلى الطاعة بعدم هروب المحب بأشواقه خوفاً أن يسم نفسه بهذه السمة عن الناس لأنها تزعمه من صفات أهل الطالة يفرو منها ويتفادى وليس هذا بصحيح "فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره, ويحاسب عليها يوم القيامة. وأما استحسان الحسن وتمكن لحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه, إذ القلوب بيد مقلبها, ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب, وأن يعتقد أن الصحيح باليقين. وأما المحبة فخلقة, وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة " [٤].

ولأنه يؤمن أن الحب من الله الذي بيده قلوب الناس فهو لا ينكره، لذا فإنه لا يجد في اعترافاته عن الحب وغرامياته ما يكون سبيلا لنيل منه، أو تتخذ طريقا لاتهامه ومع ذلك فقد أصدر بيانه الحاسم ليسد به الطريق على كل الراغبين في النيل منه مبرئاً ساحته " يعلم الله وكفى به علما, أنى برئ الساحة, سليم الأديم, صحيح البشرة, نقي الحجرة, وأني أقسم بالله أجل

---

(1) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص٣٤.

(2) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص٢١.

(3) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص٥٧.

(4) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص٤٩.

الأقسام أني ما حللت مأزري على فرج حرام قط, ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا, والله المحمود على هذا, والمشكور فيما مضى, والمستعصم فيما بقي " (١) ،وبعد هذا الإعلان يروي لنا قصصاً عن نفسه وكيف أنه منع نفسه عن زيارة امرأة من معارفه خوفا من أن يقع في المعصية(٢) .

وقصة أخرى نهى صاحب مجلس ونبهه على ما كان في مجلسه من غمز استشيعه وعرف ما وراءه من فاحشة ولم يعد له بعد ذلك اليوم .

ولأن حبه شفيف لا يشوبه الخزي، فهو يعترف لنا بلذة الوصل "وعني أخبرك أنّي ما رويت من ماء الوصل ولا زادني الظمأ، " والوصل حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة، ولأن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار الجزاء وأمان من المكاره، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه، وكمال الأماني،ومنتهى الأراجي " (٣).

ولأنه مجرب وله ذائقة فقد قدم لنا صورة دقيقة للسعادة التي تغمر أنفس المحبين إذا صفيت لهما الدنيا " وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء, وأمنا الوشاة, وسلما من البين, ورغبا عن الهجر, وبعدا عن الملل, وفقدا العذل, وتوافقا في الأخلاق, وتكافيا في المحبة, وأتاح الله لهما رزقاً دارّا, وعيشا قارّا, وزمانا هاديا, وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحال,وطالت صحبتهما, واتصلت إلى وقت حلول الحِمام الذي لا مرد له ,ولا بد منه"(٤)

" ولقد وطئت بساط الخلفاء, وشاهدت محاضر الملوك, فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه, ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء, وتحكم الوزراء, وانبساط مدبري الدول, فما

---

(1) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص ١٥٤ .

(2) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص ١٥٥.

(3) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص ٧٩.

(4) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص ٨٢.

رأيت أشد تبجحاً,ولا أعظم سرورا بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده, ووثق بميله إليه , وصحة مودته له". (١)



([1] ) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص ٩٠.

## أخلاقيات ابن حزم في الطوق:

حملت لنا اعترافات ابن حزم صوراً جميلة عن بعض صفاته التي أهلته لأن يكون عالماً وفقيهاً وأديباً رقيقاً وجدلاً عنيداً، وأول هذه الصفات هي كرهه للكذب والكذابين، وأدان هذه الصفة الذميمة بكل وسائل التعبير، يقول مفصحا عن نفسه" وما أحببت كذابا قط, وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيما, وأكل أمره إلى خالقه عز وجل, وآخذ ما ظهر من أخلاقه, حاشى من اعلمه يكذب, فهو عندي ماح لكل محاسنه, ومعف على جميع خصاله,ومذهب كل ما فيه, فما أرجو عنده خيرا أصلا, وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه, وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه, حاشى الكذب، فلا سبيل إلى الرجعة عنه, ولا إلى كتمانه حيث كان. وما رأيت قط, ولا أخبرني من رأى, كذابا ترك الكذب ولم يعد إليه, ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطّلِع له على الكذب, فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته, والمتعرض لتاركته" (١).

ويرى أن الكذب درجة من درجات الكفر لأنه أحار عن الله وكذب عليه بغير الحق، وقد رصد إلى هذا الرأي أحاديث وآيات قرآنية وأتى بقصص وشواهد تاريخية تظهر فضل الصدق وبشاعة الكذب، ويرى الواشي والنعام شر جميع الناس "وأن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل, ورداءة الفرع, وفساد الطبع, وخبث النشأة ولا بد لصاحبه من الكذب. والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه, وكل نمام كذاب" (٢).

وهو أصل كل فاحشة وجالب كل سوء. ولا يقف ابن حزم عند دورالكذب عند الأفراد وإنما يتجأوزهم في نظرة متقدمة ليدرك دوره في تدمير حياة الأمم والجماعات "وما رأيت أخزى من كذاب, وما هلكت الدول, وما هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب" (٣).

ويفرق للقارئ بين نوعين من الناس وهما الناصح والنمام "وهما صفتان متقاربتان في الظاهر, متفأوتتان في الباطن, إحداهما داء,والآخرى دوا ء ,والثاقب القريحة لا يخفى عليه

(1) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٧٤.

(2) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٧٤.

(3) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٧٥.

أرهما, لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى في الديانة, ونوى بـه التـشتيت بـين الأوليـاء, والتضريب بين الإخوان, والتحريش والتوبيش والتقريش" (١)

والصدق ينبع منه الوفاء فهو درة قلبه وزينة نفسه فهو وفي لكـل شـيء أصـدقاءه شيوخه ولكل من اتصل به وعرفه وإلى الأماكن والديار .

وهكذا يقرر أن الوفاء صفته وانه وفيّ حتى لمن يخطئ إليه ومن يخلص لـه, وأن الوفاء في الحالتين فضيلة ما ولا يكبر الوفاء ويتعاظم إلا عند وجوب أسباب الغـدر أو دواعـي القطيعة وانه ليختار من الوفاء عظميه ولا يقف عنه أدنى منازله وقل مراتبه (٢) .

وقد تجلت هذه الخصلة الحميدة والجميلة عند ابن حزم مع أحد أصدقائه، فهو وفيٌّ لهم إلى أن يفرق بينهم الموت (٣). يقول صديقه أبو عامر حفيد المنصور بن أبي عامر وكانت الكراهيـة شديدة بينهما في البدء ولم ير أحدهما الآخر "وكان الأصل في ذلك تنقيلا يحمل إليه عني وإلـي عنه, ويؤكد انحراف بين أوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان, ووجاهة الـدنيا. ثـم وفق الله الاجتماع به فصار لي أود الناس, وصرت له كذلك, إلى أن حال الموت بيننا ". (٤)

ويتعاظم الوفاء عنه ابن حزم ويبقى على أسرارهم، حتى ولو جـاءت القطيعـة وسقطت المؤونة وأخشى صاحبه بما يعرف من أسراره عنه "وكان لي مرة صديق ففسدت نيتـه بعد وكيد مودة لا يفكر بمثلها, وكان علم كل واحد منا سر صاحبه, وسقطت المئونة, فلما تغيـر علي أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه, ثم اتصل به أن قوله في قـد بلغني, فجزع لذلك, وخشي أن أقارضه على قبيح فعلته. وبلغني ذلك فكتبت إليه شـعراً أؤنـسه فيه, وأعلمه أني لا أقارضه" .(٥)

ومع الوفاء أوتي ابن حزم اعتزازا بالنفس" فلا يدني نفسه ولا ينزل بهـا, وإن الاعتـزاز بالنسبة له هو معدنه,فهو يعتز بنفسه لأنه نشأ عزيز النفس في أهله .وما زادتـه المـصائب إلا صقلا وصفاء فما وهن وما ضعف وما استكان, ناله الذين آذوه بالسجن والتعريـب، ولكـن لـم

---

(٢ ) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٧٨

(٣) بنظر محمد أبو زهرة ابن حزم حياته وعصره آراءه وفقهه ص ٧٨.

(٤ ) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٢٨.

(4 ) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ٩٩.

(٢) هناك صور متعددة حفل بها كتاب الطوق حول الصداقة عند ابن حزم تستحق مبحثاً مستقلاً لكن ضيق المقام هنا لا يسعفنا.

ينالوا من نفسه العزيزة في ذاتها القوية, ولقد ذاق مر العيش وحلوه فما استهوته لذات العيش إلى ما ينافي عزته, ولا هوت به مرارة الحياة إلى فوضت الزلة، بل كان الغريزة في حالي الرخــاء والبأساء لا بطلب حاجة ممن لا يفي بحاجته.(١)

ولقد قال في ذلك"إن محمد بن الوليد بن مكسير الكاتب كان متصلا بي, ومنقطعا إلى أيــام وزارة أبي رحمة الله عليه, فلما وقع بقرطبة ما وقع, وتغيرت أحوال, خرج إلى بعض النــواحي فاتصل بصاحبها, فعرض جاهه, وحدثت له وجاهة وحال حسنة. فحللت أنا تلــك الناحيــة فــي بعض رحلتي, فلم يوفني حقي بل ثقل عليه مكاني, وأساء معاملتي وصحبتي, وكلفته في خــلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد,واشتغل عنها بما ليس في مثله شغل, فكتبت إليــه شــعراً أعاتبــه فيه,فجأوبني مستعتبا على ذلك, فما كلفته حاجة بعدها" (٢)

وأما أجمل شيمة عرفت عن ابن حزم في هذا المقام الحساس هو حرصــه علــى أعراض المسلمين فهو يرقى بنفسه ودينه عن أين يفشي أسرارهم ويفضح عوراتهم. (٣)

تلك هي سجايا ابن حزم نشأ عليها وحبك وكان السبب "أني كنت وقت تأجج نار الــصبا, وشره الحداثة, وتمكن غرارة الفتوة, مقصورا محظرا على بين رقباء ورقائب, فلما ملكت نفــسي وعقلت, صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي, في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بــن أبــي يزيد الأزدي, شيخنا وأستاذي رضي الله عنه, وكان أبو علي المذكور عاقلا عاملا عالما, ممــن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا, والاجتهاد للآخرة, وأحسبه كان حصورا, لأنه لم تكن له امرأة قط, وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً وديناً وورعاً فنفعني الله بــه كثيــرا, وعلمت موقعه الإساءة, وقبح المعاصي, ومات أبو علي رحمه الله في طريق الحج". (٤)

لقد قدم لنا ابن حزم من خلال اعترافاته وذكرياته المتناثرة هنا وهناك في كتاب لم يقــصد فيه كتابة سيرته أصلاً وإنما عرض لبعض جوانب منها فرضتها عليــه موضــوعات الكتــاب،

---

(٣) محمد أبو زهرة .

(2) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ، ص ٩٩ _١٠٠ .

(٢) ينظر الأندلسي، ابن حزم: الطوق و٣٢, ٤٧ , ٤٨. على سبيل المثال لا الحصر .

(٣) الأندلسي، ابن حزم: الطوق ١٥٥.

وبقيت جوانب آخرى مبهمة لم تقدمها لنا تلك الاعترافات مع عظم صدقها الذي لم تشهده الثقافة العربية في أيامه, وكان يورد تلك الاعترافات بقوله"وإليك عني, وأخبرك عني, وهذا مذهبي، وأما رأيي...الخ. وذلك من أجل أن يحدد للقارئ أن مدار الحديث عنه هو تحديدا دون سواه، ومع ذلك فإن هذه الاعترافات مع ما قدمته من صور ذاتية عن ابن حزم وحياته وأسرته وعرفت بجانب كبير من نفسيته وذاته, وقد طابق للأنوات الثلاث, وصراحة العقد الذاتي عنده والذي أكد فيه على أنه سوف يتحدث عن نفسه وما عرض له من حوادث بصراحة ودون أن ينكر ذلك، وأنه سوف يخبرنا بها من خلال عبارات محددة كقوله، وإليك عني، إلا أنها تظل اعترافات وذكريات قاصرة عن أي توصف بأنها سيرة اعترافيه أو سيرة أدبية استعانت بنوع أدبي ينتمي إلى أدب الذات لتقدم لنا حياه صاحبها متكاملة وتأخذ معنى الشمول، والامتداد الزماني, والاختصاص بالذات, والتركيز عليها, وكشف معالمها الداخلية بهدف إضاءة سيرة صاحب هذه السيرة، وإنما بقيت عند حد الاعترافات عن بعض المواقف النفسية أو العاطفية، أو بعض الذكريات عن الماضي، أو بعض الآراء والمشاهدات المتفرقة التي تحتاج إلى لملمة أطرافها من قبل المتلقي وذلك من أجل رسم صورة ذاتية لابن حزم .

ولأجل ذلك فإن هذه الاعترافات لا يمكن أن تصل إلى حد أن تكون سيرة ذاتية أدبية، وذلك لأن السيرة الذاتية فن أكثر استيعاباً ونضجاً ووعياً بالذات من الاعترافات، ومع ذلك فإنني أرى أن هذه الاعترافات التي قدمها ابن حزم كانت الخطوة الأولى التي أسس عليه هذا النوع الأدبي في ثقافتنا العربية منذ عصور خلت وهي تعتبر بحق أول اعترافات من هذا القبيل، ولذلك فإنك لا تجد كتابا تحدث عن الاعترافات إلا وقد تحدث عنه دون سواه أولاً.

## قانون التأويل

أودع لنا ابن العربي سيرته العلمية في مقدمة كتاب "قانون التأويل" وقد جاءت هذه السيرة مقسمة إلى مقدمة وسبعة عنوانات :جاء الأول تحت عنوان (ذكر ابتداء طلب العلم),والثاني(ذكر الرحلة في طلب العلم), وأما الثالث فكان تحت عنوان(ذكر ما لقيته في العلم من المتمرسين والعلماء والراسخين أثناء رحلتي المشار إليها),والرابع(ذكر دخول بيت المقدس),وأما الخامس فكان(ذكر الرحلة إلى العراق) وأما العنوان السادس فهو(ذكر المعرفة بأمير المؤمنين حيث كان عونا على طلب علم الدين)وأما(ذكر التوصل إلى المطلوب من العلم) فقد كان العنوان السابع والأخير في سيرته العلمية التي بدأها متجها من الناس الذين يقادون للحكمة بالحكمة وإلى العلم بالسلاسل، فيقول:" عجبا لقوم يقادون بالحكمة إلى الحكمة، وإلى العلم بالسلاسل، وآخرين مهملين بالعدل على الاسترسال في الشهوات، والتخلي في غمرة البطالات، ولما خُلق الأنسان من نتن وقذر، بسابق القدر، ثم حُلِّي بعقل وسمع وبصر، كانت الرذيلة صفة لازمة، وعادت الفضيلة مكتسبة، وقد خلق على الفطرة، وصار من أصل يكون عليه، وفرع يعاد إليه". [١]

وبعد هذه العبارات بدأ بسرد مسيرته العلمية منذ أن كان طفلا في ريعان الحداثة، إذ سخر له الله والده ليرتب له معلمين يعلمونه كتاب الله وعلوما آخرى كالعربية وغيرها " وكان من حسن قضاء الله أني كنت في عنفوان الشباب وريان الحداثة، وعند ريعان النشأة، رتب لي أبي – رحمه الله- معلما لكتاب الله، حتى حذقت القرآن في العام التاسع، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين، أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التي جمعها الله فيه، ونبه الصادق صلى الله عليه وسلم عليها في قوله: (( أنزل القرآن على سبعة أحرف)) في تفصيل فيها.

والثاني لعلم العربية.

والثالث للتدريب في الحسبان.

---

([1]) ابن بشكال، قانون التأويل، ص ٦٩.

فلم يأت علي ابتداء الأشد في العام السادس عشر من العدد، إلا وأنا قد قرأت من أحـرف القرآن نحوا من عشرة، بما يتبعها من إدغام وإظهار، وقصر ومد، وتخفيـف وشـد، وتحريـك وتسكين، وحذف وتتميم، وترقيق وتفخيم." [١]

فهو لم يكن طفلا عاديا كأقرانه ولا طفولته، بل كانت عبارة عن جـد ودرس طـوال اليوم من الصبح إلى إذان العصر ولا يترك ساعة إلا بفائدة "يتعاقب علي هؤلاء المعلمـون مـن صلاة الصبح إلى إذان العصر، ثم ينصرفون عني، وآخذ في الراحة إلى صبح اليوم الثاني، فـلا تتركني نفسي فارغا من مطالعة، أو مذاكرة، أو تعليق فائدة، وأنا بغرارة الشباب أجمع من هـذه الجمل ما يجمل وما لا يجمل، والقدر يخبؤها عندي للأنتفاع بها في الرد على الملحدين، والتمهيد لأصول الدين".[٢]

فهو لم يبلغ السادسة عشرة من العمر إلا وقد نال علماً كثيرا في علوم مختلفة كانت عوناً له على رحلته في طلب العلم يقول " فلم يأت علي ابتداء الأشد في العام السادس عشر مـن العدد، إلا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحوا من عشرة، بما يتبعها من إدغام وإظهار، وقصر ومد، وتخفيف وشد، وتحريك وتسكين، وحذف وتتميم، وترقيق وتفخيم.

وقد جمعت من العربية فنونا، وتصرفت فيها تمرينا؛ منها: كتاب ( الإيـضاح) للفارسـي، والجمل، وكتاب النحاس، و(الأصول) لابن السراج، والدريود، وسمعت كتاب الأمـالي، وكتـاب الصناعة الأصلي الذي أنهاه الخليل إلى سيبويه، ثم تولى نظمه وترتيبه، وقرأت مـن الأشـعار جملة، منها الستة، وشعر الطائي، والجعفي، وكثيرا من أشعار العرب والمحدثين.

وقرأت من اللغة كتاب ثعلب و( إصلاح المنطق) و ( الأمالي) وغيرها.

وسمعت جملة من الحديث على المشيخة.

وقرأت من علم الحسبان: المعاملات، والجبر، والفرائض عملا، ثم كتاب أقليدس وما يليه إلى الشكل القطاع، وعدلت بالأزياج الثلاثة، ونظرت في الأسطرلاب، وفي مسقط النقطة ونحوه" .[٣]

---

([1]) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٦٩-٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٤.

([3]) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص٧٠_٧٤.

ثم تميزت هذه الحال وتبدلت حين دخل المرابطون بلده ولم يعد أمامه إلا الرحيل" ثم حالت هذه الحالة الخاصة بالاستحالة العامة عند دخول المرابطين بلدنا سنة أربع وثمانين وأربعمئة، ووقع علينا من تلك الحوادث ما كان مدة أسف فوقنا وصاب بأرضنا شؤبوب فتنة، يا طال ما دارت سحابه بنا، فانصدع الالتئام، وتبدد ذلك النظام، وكان لنا خيرة وللإسلام، ولم يمكن بأرضنا المقام" (١٢).

ونتيجة لهذه الظروف قرر والده الرحيل. ولكن هل كانت هذه الظروف وراء هذه الرحلة أم كان وراءها سبب آخر؟

إن دافعه الأساسي أو لنقل الذي كان يحفزه هو: رغبته الشديدة وعزمه على طلب العلم، فقد كان يضمر في نفسه ذلك الأمر، ويحدثها به منذ زمن، فقد روى لنا قصته عن كتب جلبها الباجي إلى الأندلس من المشرق، وفيها عبر لنا عن هذه النية "ولقد كنت يوما مع بعض المعلمين, فجلس إلينا أبي – رحمة الله عليه_يطالع ما انتهى اليه علمي في لحظة سرقها من زمانه مع عظيم أشغاله, وجلس بجلوسه من حضر من قاصديه, أحد السماسرة وعلى يديه رزمة كتب, فحل شناقها، وارسل وثاقها فإذا بها من تأليف السمناني شيخ الباجي . فسمعت جميعهم يقولون : هذه كتب عظيمة وعلوم جليلة, جلبها الباجي من المشرق , فصدعت هذه الكلمة كبدي وقرعت خلدي, وجعلوا يوردون في ذكره ويصدرون، ويحكون أن فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون وناهيك من أمة يجلب إليها هذا القدر الطفيف, فلا يكون منهم أحد يضاف إليه, الا بصفة العاجز الضعيف، ونذرت في نفسي طية, لئن ملكت أمري لأهاجرن إلى هذه المقامات, ولأفدن على أولاؤ الرجالات, ولأتمرسن بما لديهم من العقائد والمقالات, واستمررت عليها نية, واكتنتمها عزيمة مثنوية". (٢)

فجاءت الرحلة من تدبير الله فهو العالم بهذه النية وعلى الرغم من صعوبتها وهولها إلا أن "الباعث على هذا التشبث مع هول الأمر همة لزمت وعزمه لجمت" (٣)

فهذه العزيمة وما وراءها من نية كانت عزاءه في فقد بلده ورحيله عنها، فيقول: "فلما وقعت هذه الحال , كنت مع تفاقم الخطب وتعاظم الأمر الواردين علي, نعمة سابغة, ونعمة

---

(٢) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص٧٤.

(2) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٧٦_٧٧.

(١) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٧٦.

بالغة, أتسلى بما كان في طيتي من الرحلة, فترى كل من فقد نعمة يبتــئس, وإذا نظــرت إليــه وجدتني أتأنس . فخرجنا مكرمين, أو قل مكرهين, آمنين وان شئت خائفين, وفررت مــنكم لمــا خفتكم , فوهب لي ربي حكما وجعلني من العالمين. وكتبني في أتباع من قال : { إني ذاهب إلى ربي سيهدين" .(١)

وأخذ أبو بكر العربي في سرد رحلته العلمية وهو يسلسل تنقله من بلد إلى بلد باحثاً عــن العلم وأهله ومصادره ومنابعه وأماكنه، فكان إذا ورد بلداً ولم يجد في أهله ما يبحث عنه تركــه إلى غيره عساه يجد مراده في أهل مصر"وترددت في لقاء الناس بين أسفل وفوق, بما كنت فيــه من المعارف من التوق, وناظرت الشيعة والقدرية, وتدربت في جمل من الجدل, ونظرت في نبذ من علم الكلام, وتفطنت من سخافة هذه الطائفة بنفسي, إلى معان تممها لي النظر في المعــارف والتمرس بالمشايخ. أمة غلب عليها سوء الاعتقاد, ونشأت من غير فطم بلبن العنــاد, واســتولى اليأس منهم بما هم فيه من ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام." (٢) .

وأما إذا وجد ضالته مكث طويلا واستزاد إلى أن يملأ جرابه، ويأخذ ما عندهم حتى يصل إلى قراره" فدخلنا الأراضي المقدسة, وبلغنا المسجد الاقصى, فلاحة لــي بــدر المعرفــة, فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام". (٣)

لقد كان طلب العلم حافزه وهو وراء رحلته، فإذا وجد نفسه لا تعلم في أي علم من العلوم أو مسألة من المسائل فإنه لا يهرب بل كان يقعد في مجالس أهل هذا العلم ويأخذ منهم ويــسألهم ويحأورهم ويناظرهم ويجد في طلبهم حتى يشبع علمه منهم . ويشعر بالضيق والتقصير إذا سمع بمسألة ولم يفهمها.وهذا مما يدفعه إلى المزيد وأخذ النفس بالجد والتحصيل، يقول: "وحين صليت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي له ,عمدت إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط, فألفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى الذي كان استخلفه علــيهم شيخنا الإمام الزاهد نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي, وهم يتناظرون على عاداتهم, فكانت أول كلمة سمعتها من شيخ من علمائهم يقال له مجلي: " بقعة لو وقع القتل فيها لاســتوفي القــصاص بها, وكذلك إذا وقع في غيرها, أصله الحل" . فلم أفهم من كلامه حرفا, ولا تحققت منه نكرا ولا

---

([1]) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص٧٧_٧٨.

(٣) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٩٠_٩١.

(٣) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٩١.

عرفا, وأقمت حتى انتهى المجلس, فكررت راجعا إلى منزلي وقد تأوبني حرصي القديم, وغلبني علي جدي في التحصيل والتعليم, فقلت لابي رحمة الله عليه: إن كان لك نية في الحج , فامض لعزمك, فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها, وأجعل ذلك دستورا للعلم وسلما إلى مراقيها, فساعدني حين رأى جدي, وكانت صحبته لي من أعظم أسباب جدي. ونظرنا في الإقامة بها, وخزلنا أنفسنا عن صحبة كنا نظمنا بهم في المشي إلى الحجاز, إذ كانوا في غاية الإنحاز". [١]

ومن الأمور التي كانت تدفعه إلى الرحلة في طلب العلم إذا رأى قوماً أو سمع عنهم أن فيهم علما ليس عنده أو يكثرون به عليه طار إليهم دون تردد . وهذا من الأسباب الأساسية التي دفعته لأن يرتحل إلى العراق فقد التقى وهو في بيت المقدس بجماعة من علماء خراسان" كالزوزني، والصاغاني والزنجاني والقاضي الريحاني، ومن الطلبة جماعة كالسكري وساتكين التركي، فلما سمعت كلامهم، رأيت أنها درجة عالية، ومزية ثانية، وبَزٌّ من المعارف أغلى، ومنزلة في العلوم أعلى، وكأني إذ سمعت كلامهم، ما قرأت ما يعني، ولا يكفي في المطلوب ولا يُغني" [٢]. فقد شعر هذا الشعور مع أنه نال علماً كثيرا في بيت المقدس كان قد تحدث عنه قبل هذه القصة، وروى لنا منه نكتاً ومسائل قد فعل بها أمام شيوخه الذين أبدوا إعجابهم به وبعلمه.

إن المتتبع لهذة السيرة العلمية يجد أن صاحبها ركز بها على أمرين هامين كانا نتيجة حتمية فرضتها نيته التأليف التي فصلنا فيها الحديث عندما تنأولنا دوافع كتابة السيرة عند ابن العربي.

الأول: ألا يكتفي الإنسان بما عنده من المعارف ويقنع بما لديه، بل لا بد أن يأخذ نفسه على طلب المزيد في كل زمان ومكان وفي كل العلوم، فهو إذا قنع بما عنده جهل الكثير، وقصر علمه على الحد اليسير، وتراجعت همته حتى تموت، ولذا فقد كانت سيرته عبارة عن عرض لهمته وعزمه طوال حياته، منذ أن كان طفلا، وإرادته لطلب العلم وكيف تطورت به

(1) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص٩١_٩٢ .

(٢) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص٩٧-٩٨.

الحال، حتى أصبح على ما هو عليه من العلم الذي توجه بهذا الكتاب، الذي وضعت مسيرته العلمية في مقدمته، فهو لم يأت من العين بل بماء ثمرة هذا الجهد والتعب طوال حياته، وهو علم غزير لا يمكن أن يصدر إلا عن عالم حكيم وفيلسوف مبرز .

وقد تدرج بنا ابن العربي في عرض تطور شخصيته العلمية منذ أن كان طفلا وكيف دخل بيت المقدس إلى أن وصل إلى العراق. فكان في كل مرة يظهر لنا صفتة في بادئ الأمر ثم قوته في أي علم من العلوم بعد أن يجد في طلبه والاعتكاف عليه، حتى يصل به إلى مرتبة شيوخه، فيغتاظهم به حتى يظهر لنا إعجابهم بعلمه وبشخصه، يقول: " فلم تمربنا الا مدة يسيرة حتى حضر عندنا بالغوير_ ونحن نتناظر_ فقيه الشافعية عطاء المقدسي, فسمعني وانا استدل على ان مد عجوة ودرهم بمدي عجوة لا يجوز, وقلت : الصفقة إذا جمعت مالي ربا ومعهما أو مع احدهما ما يخالفه في القيمة سواء كان من جنسه أو من غير جنسه فإن ذلك لا يجوز, بما فيه من التفاضل عند تقدير التقسيط والنظر والتقويم في المقابلة بين الاعواض, وهذ أصل عظيم في تحصيل مسائل الربا. فأعجب الفهري ذلك, والتفت إلى عطاء وقال له: قبضت فراخنا ! . فقال له عطاء : بل طارت . وذلك في الشهر الخامس أو السادس من ابتداء قراءتي".[١]

وأما الأمر الثاني فهو من مركز الدائرة للمؤتمر الأول وهو: أن الإنسان إذا أخذ نفسه وروضها على طلب العلم فإنه هو المستفيد الأول من هذا الأمر، إذ يجد نفسه مع علية القوم فعلمه هو الذي يرفعه إلى مراتب الملوك والأمراء، وهو الذي يسخر له قلوب الناس حتى يشار له بالبنان، وهذا ما فعله علمه له، إذ روى لنا قصته مع تاجر ورد على الأندلس في زمن وزارة أبيه وحين لقيه في العراق عرفه على أمير المؤمنين فكان لعلمه الدور الكبير في الاحتفاء به وبأبيه يقول" وكان أبو الحسن المبارك بن سعيد البغدادي، قد ورد علينا تاجرا سنة ثلاثة وثمانين وأربعمائة، فأنزله المعتمد بن عباد عندنا، فأكرمه أبي غاية الإكرام، وعقد عليه مجلسنا في السماع، وتخلى له عن مناظرته في مسجده، وصدر الرجل عنا راضيا، فبينا نحن نمشي بعد ورودنا مدينة السلام بأيام قلائل في سوق الريحانيين بها، إذ لقينا أبا الحسن بن الخشاب المذكور فعانقنا ودعا لنا وقال:" هاهنا أنتم، وكيف جئتم؟ فرسّ له أبي الحديث، وبقر له عن النجيث، فمشى إلى الوزير عميد الدولة ابن جهير، فأعلمه بنا، وكنا قد حملنا من دمشق كتاب وإليها وجماعة من رؤسائها إلى الوزير عميد الدولة، وكتاب القاضي نجم القضاة الشهرستاني

---

([1]) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٩٤_٩٥.

بالتقريض لنا والتنبيه على مكاننا، فدخلنا الديوان إلى الوزير، ووقف على ما كان عندنا، ورفع إلى أمير المؤمنين أمرنا، فأمر بتكرمتنا وإدنائنا، وأجرى معروفا كبيرا لنا، وأباح الديوان لمدخلنا، ومخرجنا، فوقرتنا العلماء، وأكرمتنا المشيخة، وأظهرت الجماعة لنا المزية، ونعم العون على العلم الرئاسة".(١)

وفي موضع آخر من سيرته يروي لنا ابن العربي قصة آخرى حدثت معه في رحلته يرينا من خلالها أن العلم بأي نوع من العلوم مهما كان قليلا فهو منقذ لصاحبه من المهالك، وبه يخالب الألباب، ويكسب الأصحاب، ويصبح في أمان، بعد أن يفقد المال والأهل، وحتى الطعام، يقول:" فلما حان وقت إقلاع المراكب في البحر إلى ديار الحجاز، اعتزمنا فركبناه بعد أن وعيت جملا من المعلومات، تفسيرها في موضعها مسطور، فركبناه وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا بزوله، ويغرقنا في هوله. فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم، ونحن من السغب على عطب، ومن العري في أقبح زي، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة هيئتها، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحتزمناها أزرا، واشتملناها لففا، تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا عرق كان فيه من الحضر، وخفرنا بحرمة أورثتها عنده سجية مصرية، إذ كان نشأ في ديار الإسكندرية، ودرت عليه هناك الدرة الدينية، فأوينا إليه فأوانا، وأطعمنا الله على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا، بأمر حقير طفيف، وفن مِن العلم طريف، وشرحه: إنا لما وقفنا على بابه، ألفيناه هو يدير بأعواد الشاه، فعل السامد اللاه. فدنوت منه في تلك الأمطار، وسمع لي بياذقته، إذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للأغمار، ووقفت بإزائهم، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في مجلس البطالة، مع غلبة الصبوة والجهالة، فقلت للبياذقة:

الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شزرا، وعظمت في عيونهم بعد أن كنت نزرا، وتقدم إلى الأمير من نقل إليه الكلام، فاستدناني، فدونت منه، فسألني: هل لي بما هم فيه بصر؟

فقلت : لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر: حرك تلك القطعة، ففعل، وعارضه صاحبه، فأمرته أن يحرك آخرى، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى حتى هزمه الأمير،

(٢) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ١١٥_١١٦.

وانقطع التدبير، فقالوا: ما انت بصغير، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشدا:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال: لعن الله أبا الطيب، أو يشك الرب؟

فقلت له في الحال: ليس كما ظن صاحبك أيها الأمير، إنما أراد بالرب ها هنا الصاحب، يقول: ألذ الهوى ما كان العاشق فيه من الوصال وبلوغ الآمال على ريب، فهو في وقته كله، بين رجاء لما يؤمله، وتقاة لما يقطع به، كما قال:

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى فأين حلأوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض، في طرفي الإبرام والأنتقاض، ما حرك منهم إلى مبرتي داعي الأنتهاض، وأقبلوا يتعجبون مني، ويسألونني كم سني، ويستكشفونني عني، فبقرت لهم حديثي، وذكرت لهم نجيثي، وأعلمت الأمير بأن أبي معي، فاستدعاه، وقمنا الثلاثة إلى مأواه، فخلع علينا خلعه، وأسبل أدمعه، وجاء كل خوان، بأفنان الألوان، فقال لنا: لا تسرفوا، فإن الشبع بأثر الجوع معطب، وكأني بكم لم ينزل بكم سغب.

وأقمنا عنده حتى ثابت إلينا نفوسنا، وذهب عنا بؤسنا، وسألنا الإقامة عنده على أن يصير إلينا صدقات بني سليم كلها، فأبينا إلا الاستمرار على العزيمة الأولى، والتصميم إلى المرتبة الكريمة التي كانت بنا أولى، ففارقناه على ضنانة بنا وحرص علينا، وإلى الأن يرد علي ذكره وسلامه، وينال كل من ذكرني عنده بره وإكرامه.

فانظر إلى هذا العلم الذي هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذت من العطب، وهذا الذكر يرشدكم – إن عقلتم- إلى المطلب." [١]

فإن هذه القصة تظهر لنا افتخار ابن العربي بعلمه وقدرته على تسخيره له من أجل إنقاذ نفسه ووالده من الهلاك بعد أن فقد كل شيء معهما في البحر، وبعلمه أيضاً نال عند هؤلاء القوم مكانة واحتراما وعزا وجاها عريضين حفزاه على المسير من جديد ليواصل رحلته ويحقق مراده.

---

([1]) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٨٤_٨٩.

وقد كان ابن العربي، وهو صغير السن، من الأطفال المحظوظين، إذ سخر لـــه الله الذي يرعاه في طفولته رعاية خاصة ويسايره في رحلته إلى المشرق، ويكون لـــه عونـــاً علـــى تحقيق هدفه، يقول: "فقلت لأبي رحمة الله عليه: إن كانت لك نية في الحج، فامض لعزمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستورا للعلم وسلما إلى مراقيهـــا، فساعدني حين رأى جدي، وكانت صحبته لي من أعظم أسباب جدي، ونظرنا في الإقامـــة بهـــا، وخزلنا أنفسنا عن صحبة كنا نظمنا بهم في المشي إلى الحجاز، إذ كانوا في غاية الإنحفاز" (١) .

وأما عزيمته فقد كانت وراء كل الذي وصل إليه، فهو متحفز دائماً لا يكل ولا يمل ولا يتعب، كالنحلة التي تنتج العسل معسلة مؤلفات ضخمة أتحفت المكتبة العربية والإســـلامية، وعلم غزير انتفع به طلاب العلم في كل زمان ومكان. وأما غايته من ذلك كله هي التوصل إلى المطلوب من العلم، وهما في راية، معرفة الانسان لنفسه، ومعرفته لربه. يقول:" وكنـــت إبـــان طلبي في الأقطار ودرسي آناء الليل والنهار، ولقاء أولي البصائر والأبـــصار، لا أمـــل لـــي إلا التشوف إلى المقصد الأسنى، المنتحى في كل معنى، وهو معرفة الله تعالى،لأنا إذا نظرنـــا فـــي العالم لم ننظر من حيث أنه متقن الصنعة،أو جميل المنظرة،أو عام المنفعة،أو كبير الجرم ،وإنما نبتهل به، ونقبل بوجه النظر إليه،من حيث إنه صنعة الله. وإن نظرنا في النبي –صلى الله عليـــه وسلم-لم ننظر فيه من حيث أنه آدمي أو قرشي أو ذو منظر بهي،وإنما ننظر فيه من حيث إنـــه رسول الله. وإن نظرنا في أعمالنا لم ننظر فيها من حيث إنها حركات تجلـــب منفعـــة أو تـــدفع مضرة، وإنما ننظر فيها من حيث إنها خدمة الله أو تخالف أمر الله ،فالمقصود بكل نظر وفي كل قول وعمل إنما هو الله سبحانه.

وحين استنورت الطريق، ولاحت لي جادة التحقيق، وتحقق عندي أن كتاب الله هو المرشد إليه، والدليل عليه، لم آل في الترقي إلى درج المعرفة، وإذا لم يأت العبد من الله سداده، ولا كان من بحره استمداده، لم يغن عنه اجتهاده". (٢)

" فتلخص الاعتقاد، وتحصل المراد، ووقف الأمر على قسمين:

أحدهما: معرفة النفس، والثاني: معرفة الرب." (١)

(٢) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ٩٢.

([2] ) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ١١٧-١١٨.

إن المتمعن في هذه السيرة يجد أن صاحبها قد كانت نيته كتابه السيرة التي جاءت من خلال الميثاق السيري الذي أودعه في مقدمة سيرته. وأما التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية فإنا تحققنا منه عن طريق الضمير ومن ثم الاسم الموجود على الغلاف، وذلك من خلال التأكد من نسبة هذا الكتاب لابن العربي، وأنه له دون سواه، فكل هذه المعطيات تدخل هذا النص في جنس السيرة الذاتية. ولكن هناك أمرين هامين يجعلان هذه السيرة سيرة جزئية جانبية: الأول هو تعرض المؤلف إلى وجه من الوجوه في حياته دون أن تمتد إلى الوجوه الأخرى، فقد قصرها ابن العربي على الجانب العلمي عنده فغابت، فلم نعرف عن جوانب حياته الأخرى شيئا، وبهذا فإن شخصيته في أبعادها الأخرى بقيت مبهمة لا نعرف عنها شيئا، فغابت هويته في كل أبعادها وجوانبها إلا جانبا واحدا وهو لا يكفي لمنح الهوية التي تغدو من الشروط الأساسية لجنس السيرة الذاتية. وأما الأمر الثاني فهو غياب الأساليب الخيالية التي تمنح السيرة جانباً أدبياً فقد قصرت على اليسير منها كالحوار المنقول على لسانه. وأما اللغة على جمالها ومستواها الرفيع فقد سخرت لنقل الوقائع في سيرته وكأنها وقائع تاريخية في بناء متسلسل زمنيا لا يحفل بذكر التواريخ إلا ما ندر.

وعلى ما تقدم من العرض السابق فإن الباحثة لا ترى أن هذه السيرة سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق، وذلك لأنها لا تنظم حياة مؤلفها بعامة. ولذلك فهي سيرة جزئية قاصرة قصرت عن السيرة الذاتية التي ينبغي لها أن تكون عامة وشاملة لحياة مؤلفها ومسيرته في الدنيا ورؤيته وتطلعاته وأفكاره في الحياة.

---

(٢) ابن بشكال، قانون التأويل ، ص ١٢٠.

# الإحاطة للسان الدين بن الخطيب

قسَّم ابن الخطيب ترجمته الذاتية الواردة في أحد أبواب كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" إلى عناوين جاء الأول ، تحت: -(المؤلف)ذاكراً فيه اسمه كاملاً مبتدئاً من عنده إلى أن يصل إلى سعيد جده الأول ومن ثم يذكر أصله، ومن ثم بعض الأماكن التي سكن بها أجداده إلى أن وصلوا إلى غرناطة دون تفصيل، ثم ما عرف عنه من ألقاب.

"المؤلف:محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني. قُرطبي الأصل, ثم طُليطليه, ثم لوشيه. ثم غرناطية, يكنى أبا عبد الله, ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين". [١]

وأما العنوان الثاني فكان أوليتي: وفيه حدثنا ابن الخطيب: عن أجداده ومنذُ جده الأول سعيد وتنقلهم في الأندلس حتى وصل بهم المقام إلى غرناطة، وكيف استقروا بها، وما هي الأسباب التي كانت تدفع بهم إلى الرحيل من بلد إلى بلد ، كالفتن والحروب، ومع هذا التخيل المكثف في لغته والبعيد عن الجزئيات المملة، فقد ركَّز على فكرة مهمة، وهي ما يتصف به الأجداد من صفات حميدة وجميلة تجعلهم في كل مكان ينتقلون إليه أعيانه وفعلاءه وأكثر هذه الصفات الثقافة والعلم وتلأوة القرآن وحسن المعاشرة والضيافة للناس والكرم ؛يقول في جد سعيد الأول:" وكان سعيد هذا من أهل العلم، والخير، والدين، والفضل، وزكاء الطعمة". [٢]

وكان كلما وصف واحدا منهم يصف أخلاقه الحميدة وعلمه وثقافته، إلى أن وصل إلى والده عبد الله الذي تربى في بيت جده سعيد الثاني ، وكان في أفضل الأحوال " وتخلف والدي نابتاً في الترف نبت العليق, يكنفه رعي أيم، تجر ذيل النعمة, وتنحو منه على واحد تحذر عليه (الحولى من ولد الذرِ) ". [٣]

وينتقل ابن الخطيب بلقطة سريعة السرد يعرض فيها وصول أبيه للوزارة التي عرف بها، إلى أن وصلت إليه بعد وفاة والده في الكائنة العظمى بطريف يقول عن والده ونفسه "وفقد في الكائنة العظمى بطريف, يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين

---

([1] ) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة, ج٤ , ص ٤٣٩.

(٢) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج٤, ٣٩٤-٤٤٠

(٣) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج٤، ٤٤٢

وسبعمائة, ثابت الجأش, غير جزوع ولا هيابة. حدث الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة, الفقيه أبو عبد الله بن اللوشي, قال, كبا بأخيك الطرف يومئذ, وقد غشى العدو, وجنحت إلى إردافه, فانحدر إليه والدك وصرفني, وقال, أنا أولى به, فكان آخر العهد بهما. "(١)

وظلَّ ابن الخطيب على هذه المكانة من الرفاه والحظوة حتى يمد وفاة السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر، وعند ولده الذي خلفه على الحكم أبو عبد الله محمد الغني بالله، إذ استأثر بثقته كما استأثر بثقة أبيه، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين، لجمعه بين الوزارة والكتابة، وقد أجمل لنا ابن الخطيب عهده هذا في قوله " ولما توفي أبو الحجاج – ضاعف ولده حطوتي، وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحي " (٢).

وبعد هذه العبارات المحملة بمكانة ابن الخطيب إلى ذكر نكبته الأولى على يد الأمير إسماعيل أخي السلطان الغني بالله الذي ثار على أخيه وسلبه ملكه، وعندما استقر له الحكم طلب وزراء أخيه بالسجن والتغريم، وكان على رأسهم ابن الخطيب يقول" إلى أن كانت عليه الكائنة [ فاقتدى فيّ, أخوه المتغلب على الأمر، فسجل الاختصاص, وعقد القلادة, ثم قطع الإبقاء, وعكس الاختصاص, وحل القلادة, لما حمله أولو الشحناء. من أعوان ثورته على القبض عليّ فكان ذلك], وقبض عليّ". ولكن محنة ابن الخطيب لم تطل إذ جاء خلاصه على يد سلطان المغرب أبي سالم الذي كانت تربطه بالسلطان الغني بالله علاقة طيبة، وذلك عن طريق إرسال سفير يسمى لدى حكومتها الجديدة في إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل ابن الخطيب إلى المغرب، ولم يملك السلطان إسماعيل إلا الاستجابة لرغبة سلطان المغرب " فانتقلتُ صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب. وبالغ ملكه في بري, واعيا في حلة رعيي, منزلا رحبا, وعيشا خفضا, وإقطاعا جما, وجراية ما وراءها مرمى, وجعلني بمجلسه صدرا. ثم أسعف قصدي في تهنئ الخلوة بمدينة سلا, منوه الصكوك, مهنأ القرار، متفقدا باللُّهى والخِلع، مخول العقار, موفور الحاشية, مخلى بيني وبين إصلاح معادي".(٣)

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ، ج ٤, ٤٤٢.
[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة, ج٤, ٤٤٣.
[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ج٤ ٤٤٥ .

وبقي ابن الخطيب في سلا إلى أن عاد ملك الغني بالله أليه وما كاد أن يجلس على هرشه حتى كتب إلى وزيره المنفي يطلب منه العودة إليه مع ولده " ولم يوسعني عذراً, ولا فسح في الترك مجالا. فقدمت عليه بولده, في اليوم الأغر المحجل".

وهكذا عاد ابن الخطيب إلى سابق مكانته في الوزارة ، ولكن حديثه عن نفسه في هذه المرة يميل إلى الزهد وكأنه أخذ عبر من الفترة الماضية ، أخذ على نفسه الإخلاص لسلطانه الذي فوض له أمور دولته .

" فاستعنت الله عليه, وعملت وجهه فيه, من غير تلبس بخديعة, ولا تشبت, بولاية مقتصرا على الكفاية, حذرا من النقد, خامل المركب معتمدا على المنشأة, مستمتعاً بخلق النعل, راضياً بغير النبيه من الثوب, مشفقاً من موفقة الغرور, هاجرا للزخرف, صادعا بالحق في أسواق الباطل, كافاً عن السخال, براثن السباع, مفوتاً للأصول في سبيل الصدقة. ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة " .

وفي ختام هذه السنوات يشير ابن الخطيب إلى أمرين مهمتين الأول : استهدافه بالشر من قبل البعض وأنه يشير إلى بوادر محنته الثانية وهروبه إلى المغرب .

وأمّا الأمر الثاني:- فهو يشير إلى العام الذي أنهى فيه إملاءه هذه الترجمة وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة .

" ومع ذلك فقد عادت هيف إلى أديانها, من الاستهداف للشرور, والاستعراض للمحذور, والنظر الشزر, المنبعث من خزر العيون, شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء, ورعاية [1] سخطة أرزاق السماء, وقتلة الأنبياء, وعبدة الأهواء ممن لا يجعل لله إرادة نافذة, ولا مشيئة سابغة, ولا يقبل معذرة, ولا يجمل في الطلب, ولا يتلبس مع الله بأدب . ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا . والحال إلى هذا العهد [وهو أول عام احد وسبعين وسبعمائة ] على ما ذكرته. وأداله الله بحال السلامة, وفيأه العافية, والتمتع بالعبادة. وربك يخلق ما يشاء ويختار".

وفعلا توقف ابن الخطيب عند هذا العام ،ولم يتابع بحديثه عن الأحداث التي مرت به في ما بعد، وانتقل إلى عنوانه الثالث مباشرة، والذي ضم فيه ما صدر له من بعض التشريعات الملوكية أيام تلبسه بهذه الغرور على حد التعبير .

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ،ج٤، ٤٤٦.

وذلك من أجل إظهار مكانته عند الملوك في تلك الفترة مما يضفونه عليه من ألقاب وينعتونه به من نعوت .

يقول: " وكتب إلى مخبرا بما فتح الله عليه قبل الوصول إليه:

((من أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر, أيد الله وأوامرهم, ونصر أجنادهم المظفرة وعساكرهم, وخلد مفاخرهم الكريمة ومآثرهم. " إلى ولينا في الله تعالى, الذي نعلم ماله في الإخلاص لجانبنا من حسن المذاهب, ونعتد به اعتدادا يتكفل بنجاح المقاصد والمآرب, وخلاصتنا الذي نثنى على مجده البعيد الغايات, في الشاهد و الغايب, الفقيه, الوزير الجليل, الصدر الأوحد المثيل, العالم العلم الأوحد, الرفيع الشهير, الحسيب الأصيل, الماجد الأثيل الخطير, الخطيب البليغ الكبير, الأوحد, الحافل الفاضل الكامل. إمام البلغاء, وصدر الخطباء, وعلم العلماء, وكبير الرؤساء. الحبيب المخلص, والأود الأصفى أبي عبدالله بن الوزير الفقيه الجليل, الأعز الأرفع, الماجد الأسمى, الصدر الحافل, الفاضل الكامل, الأعلى الكبير, الخطير الأثير, الارضى, المعظم والموقر, المبرور المقدس, المرحوم الشهيد, أبي محمد بن الخطيب, وصل الله سعده, وحرس مجده, سلام عليكم, ورحمة الله وبركاته"(١).

وأما عنوانه الرابع فهو(المشيخة ) فقد ضم في ثناياه العلوم التي درسها ابن الخطيب في حياته، وعلى من تتلمذ في كل نوع منها، موضحاً كثرتها وتنوعها في آن معاً، وأما ثمار هذه العلوم فقد أتت يانعة بكتبه وتواليفه.

وأما عنوانه الخامس فهو (التواليف) ولم يقتصر إبداع ابن الخطيب على النثر فقط بل تعداه إلى فن الشعر الذي خصَّ له في ترجمته عنواناً خاصاً (الشعر) وقد استحوذ هذا العنوان على معظم الترجمة، وأرانا مؤلفه إبداعه الشعري في أغراض عديدة منه، ولم يقتصر على غرض أو غرضين، فقد قال في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم،وبعض الشخصيات المهمة في عصره،وفي النسب النصري--- الخ ،وأورد لنفسه موشحات عديدة .

وبعد الشعر انتقل إلى إيراد كم هائل من المكاتبات والرسائل التي خطها وأهمها رسالة السياسة .

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ج٤ ص٤٤٧-٤٤٨ .

يقول:" وهذا ما حضرني من المنثور والمنظوم, وحظه عندي [ في الإفادة ] حظ ضعيف, وغرضه كما شاء الله سخيف, لكن الله بعباده لطيف, سبحان لا اله إلا هو " [١] .

وأما آخر عنوان فكان عن مولده، حيث يقول:" مولدي : في الخامس والعشرين لرجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة, وكم (٦) بالحي ممن ذكرته, ألحق بالميت, وبالقبر قد استدل من البيت, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" .[٢]

لقد قسم ابن الخطيب ترجمته لنفسه إلى عنوانات يسهل التعامل معها، وهذا منهج أهل التأليف في هذا الفن، فهم يقسمون الترجمات إلى عنوانات صغيرة يختلف كل واحد منهم في ترتيبها، فمنهم من يبدأها :ولدت بتاريخ كذا بمنطقة كذا في عائلة كذا ذات مكانة في المجتمع إلى آخره من العنوانات البسيطة التي تقدم فن حياته موجزا عن بعض الشخصيات ،فإن هذا الفن عرف عند العرب منذ عقود، إذ هو من تاريخ الحياة الموجز الذي يهديه الكاتب إلى تقديم نفسه والتعريف بشخصيته في صفحات قليلة .

فالنية السير الذاتية موجودة في هذا النوع الأدبي ،وقد كانت واردة عند ابن الخطيب الذي صرح بها في عقده السير ذاتي إذ أراد أن يترجم لذاته أسوةً بمن ترجم لهم في كتابة الإحاطة الذي ضمَّ تراجم عديدة لشخصيات عديدة، إذ كان دافعه وضع نفسه في مراتبهم مفتخراً بذاته ومكانته ،ولكن الحديث عن ذاته جاء مقتضبا ومكثفاً كما عرضنا له في حديثنا عن أبنائه، واقتصر ابن الخطيب على أبرز الحوادث التي مرَّ بها، وحتى ملوناته الذخلية حيالها ظلت في غياهب نفسه وذاته، إلا في آخر حديثه عن أوليته إشارة مقتضبة إلى شعور نحو المستقبل القادم مدركا له من خلال بعض الإشارات التي بدت له . لذا فإن الذات في ترجمته بقيت عند حد الاسم العلم الذي ذكره في بداية ترجمته ولم تنطلق إلى التعريف بها من الداخل إلا من خلال الجوانب الإبداعية التي عرضها لنا في نثره وشعره الذي قصره على الخوض في الأغراض الشعرية المعروفة ولم يتحدث به عن نفسه .

فمع غياب هذه الذات ظلت هذه الترجمة فناً يعكس روح العصر الحقيقية من خلال سرد حياته الخاصة ورسمت شلاً استعان به كتاب السيرة في العصر الحديث فكانت الترجمة الذاتية من المُلونات الخطابية الأساسية للترجمة في العصر الحديث من الذين استعانوا بهذا النوع الأدبي

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ج٤ ص٦٣٤.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة ج٤ ص٦٣٤.

في عصرنا الحاضر مثل إحسان عباس في غربة الراعي، وعبد الرحمن بدوي في سيرة حياتي ، وأحمد أمين في حياتي .

**الخاتمة**

## تقويم السيرة الذاتية الأندلسية :-

إذا أردنا أن نضع تقييما لأي فن من الفنون، فلا بد لنا من وضع معيار خاص يحكم هذه العملية، ومعيارنا هنا هو تعريف فيليب لوجون وبعض المقولات الأساسية لجورج وغيره من الباحثين الذين نظروا لهذا الجنس الأدبي والذي يمكن أن نضع أهم اشتراطاته من خلال القول الآتي : السيرة هي " حكي نثري ،استعادي يقوم به شخص واقعي يركز فيه على شخصيته وحياته الخاصة ،شاملاً جوانب شخصيته المختلفة ، متتبعا خطا زمنيا ممتدا بين مرحلتين يقع بينهما أغلب حياته [1] .

وقبل أن نعرض بالتفصيل لهذه الاشتراطات وتحليلها في السيرة الذاتية الأندلسية أود أن أنوه الى أمرين اثنين وذلك من أجل أن نضعها نصب أعيننا ونحن نقوم بهذا التقويم :

الأول :- إن نصوص السيرة الذاتية الأندلسية وجدت قبل أن تصبح السيرة الذاتية جنساً أدبيا قائماً بذاته، لذا فإن الحدود الفاصلة بينه وبين أي جنس آخر لم تكن معروفة لديهم في ذلك الوقت .

الثاني :- إن هذه الاشتراطات هي من أجل تسهيل عملية التقييم فقط ولا يشترط أن تكون كلها في نص واحد .

وأول هذه الشروط هو أن السيرة الذاتية هي:

حكي: والحكي فعل لغوي ينفتح على مناطق السرد المختلفة ليفسح المجال أمام المؤلف حتى يختار الشكل والإطار والأسلوب الفني للسيرة الذاتية ، كأن تكون اعترافات وذكريات، كما هي عند ابن حزم، أو ترجمة ذاتية كما هي عند ابن الخطيب ،أو على شكل رحلة كما هي سيرة أبي بكر بن العربي، فالمقولات السردية التي تجمعها كلمة (حكي) هي الرواة التي يمكن أن تجمع كل صنوف الكتابات السير ذاتية الأندلسية على تنوعها .

نثري : يعني أن النثر هو الشكل الأساسي لهذا الحكي مستمداً ما يسمى بالسيرة الذاتية الشعرية التي تميل الى الخيال الذي يتنافى وواقعية السيرة الذاتية المفترضة ،ولأن النثر غير

---

([1]) لقد وصفنا هذا القول لأنه يضم معظم الاشتراطات التي وضعها المنظرون من أجل أن تحدد الحدود الأساسية لهذا الجنس وتميزه عن الأنواع الأدبية القريبة منه .

مهيأ لتقبل الحياة كاملة ودون أن تخوض في تفاصيل هذا الشرط عند المنظرين ؛فإن النصوص التي درسناها في هذه الأطروحة هي نصوص نثرية في أساسها، ولم يأت الشعر فيها إلا ضمن حدود الغرض الذي وضعت له، فالشعر عند ابن حزم في الطوق لم يأت على سيرته وإنما "كان غزلا في نعم ثم رثاء لها، وكان إخوانه يسمونه: القول فيما يعرض لهم على طريقتهم ومذاهبهم فيقول ما يناسب حالهم ومقصودهم ، أي أنه لم يكن يرفض أن يقول الشعر بتكليف ،وأن يتحدث عن أحوال غيره[١] وقد قصر رسالته على شعره خاصة، إلا في حالات أورد فيها أبياتاً قليلة لغيره، وتفسير هذا واضح:

" إعجابا بنفسه، وواثقاً بقدرته الشعرية ورغبة في أن يسجل إبداعه"[٢].

وهذا الأمر وقع عند ابن الخطيب الذي أودع ترجمته كماً هائلاً من شعره في موضوعات مختلفة وتقليدية عرفت في زمانه وذلك من أجل إظهار مقدرته الشعرية مقابل النثرية أيضاً .

استعادي : تشير هذه الكلمة إلى طبيعة السيرة الذاتية القائمة على إعادة أحداث الزمن الماضي ورسمها على الورق عن طريق آليات التذكر والاستدعاء، وقد تمثل هذا الشرط في السير الأندلسية جميعها، إذ لجأ أصحابها إلى هذه الطريقة لصوغ أحداث حياتهم الماضية ورسمها على مسرح الحياة من جديد . ولم يلجأ أحدهم إلى صوغ حياته عن طريق الاستشراف الزماني الذي يتنافى وطبيعة السيرة الذاتية التي تروي لنا أحداثا مضت، وليست إنشاء لحياة لم تقع أحداثها بعد، إلا في بعض المواضع التي جاءت على شكل آمال وتطلعات كما هي عند ابن العربي، أو مخاوف وتنبؤات أو استشراف القادم الذي لم يأتِ، والواقع الذي لم يقع كما ورد عند الأمير عبد الله في كتابه التبيان، والذي أضفى به على سيرته صبغة أدبية جعلت سيرته تقترب في مبناها من مبنى السيرة في العصر الحديث لأن هذه الاستشرافات كانت تأتي عنده على شكل حوار داخلي يعكس مخاوفه من القادم وصراعه مع من حوله ومع الزمن .

يقوم به كاتب واقعي : ويقصد بهذه العبارة التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسة ، إما عن طريق الضمير أو عن طريق الاسم العلم الموجود داخل السرد، والذي يحيل

---

([1] ) عباس ،إحسان ، رسائل ابن حزم الأندلسي ص٧٨.

([2] ) مكي، الطاهر أحمد .

اسمه على شخص واقعي وجد على أرض الواقع، وقد أوضحنا هذه القضية في الفصل الأول إذا تمَّ التطابق بين الأنوات الثلاث في هذه السيَّر عن طريق الضمير والاسم العلم المثبت على الغلاف الذي يحيل على كُتاب كانوا شموساً في زمانهم ولم تغرب في زماننا .

يركز في على شخصيته وحياته الخاصة :

إن هذه العبارة تمثلت في السيرة الذاتية بشكل صحيح لأنها منحت الشخصية الرئيسة الهوية التي نتعرف من خلالها على شخص المؤلف، من مرحلة التعيين الى مرحلة التعريف ؛ولأن الغاية من وراء التأليف هي التي ترسم هذا الجانب، وتتحكم به وتسيطرُ عليه، عند مؤلفي السير الذاتية، فإن التفاوت في الحديث عن الذات ونوعية الحديث أمر يحتمه الهدف الذي يبتغى الوصول إليه؛ فالأمير عبد الله على سبيل المثال جاء معظم حديثه عن نفسه في زمن ولايته، وما مر به من أحداث سياسية وتاريخية، ولم يعرض لجوانب حياته الأخرى إلا نادراً ؛وذلك لأن التسويغ كان هدفه في هذه السيرة ، ولذا فإن تركيزه على الجانب السياسي عنده حتم عليه ذكر أحداث ووقائع تاريخية أدخلت سيرته في متاهات الأنواع الأخرى، فقد تجانبها الآراء ؛ فمنهم من عدها مذكرات، ومنهم من أدخلها باب التاريخ ، ومنهم من أودعها ضمن كتب الوقائع ، ومع ذلك فقد أثبتنا في الفصل الثالث أنها سيرة أدبية بحق .

وأما السير الثالث المتبقية : فهي أنواع أدبية تقع في دائرة البحث عن الذات، فهي اعترافات عند ابن حزم ،وسيرة جزئية على شكل رحلة عند ابن العربي، وترجمة ذاتية عند لسان الدين بن الخطيب ،وهذه الأنواع التي عرفت عندهم هي موجودة اليوم ولها حدودها وقوانينها ،وهي لا تختلف عنها في شيء، بل إنها كانت الأساس الذي بنيت عليه ،وهي الخطوة الأولى له؛فقد أرسى هؤلاء دعائم هذه الأنواع، وهم لا يعرفون، وآية ذلك أن هذه الأنواع تشكل المكونات الخطابية للسيرة الذاتية في العصر الحديث، فقلما تخلو منها سيرة أدبية ذاتية بنسب متفاوتة لكل منها ؛وذلك حسب الأسلوب والطريقة الفنية التي يتبعها المؤلف في عرض سيرته؛ فمنهم من يتبع الأسلوب الاعترافي ، ومنهم من يجعل الترجمة الذاتية الشكل الأساسي لمبناه،وأما البعض الآخر فإن الرحلة يمكن أن تكون خياره الأفضل لعرض مسيرته في الحياة .

الامتداد الزمني : وهو شرط ضروري لإيجاد فضاء مناسب تتطور فيه الشخصية على مهل أمام القارئ فيسهل عليه مراقبتها ، ويحس بأثر الأحداث عليها وهي تتقلب أمام ناظريه وتنمو ببطء ، ويراقبها وهي تكافح في سبيل عيشها وقيمها، فيعرف سبب تصرفاتها وأفعالها ويدرك قيمها وآراءها ومبادءها --- الخ .

فمن طريق هذا الامتداد الزمني الوحيد المفصل في سيرة الأمير عبد الله الذي بدأ منذ توليه الحكم، حتى عرفنا من هو هذا الملك الأمير، ولماذا تعرف هكذا في بعض المواقف ، ما سياسته وراء ذلك وما هي غاياته، والظروف التي أحاطت به، وردود أفعاله حيالها، ونمو شخصيته في أول سلطته الى آخر عهده .

وهكذا فإن الامتداد الزماني على صورته عنده فسح له المجال لأن يقدم نفسه بالصورة التي يود أن يظهرها إلى القارئ لا كما عرف عنها من الآخرين.

وأما ابن حزم ؛ فإن اعترافاته جاءت متناثرة في صلب الكتاب معبرة عن بعض غرامياته ، وأفكاره وآرائه ومذاهبه، ولكن لم تضع حياته ضمن إطار زمني محدد، وهذه سمة الاعترافات .

وأما أبو بكر بن العربي ولسان الدين بن الخطيب فان سيرتيهما أخذت لنفسها امتدادا زمنيا بدأ عند كل واحد منهم منذ سن مبكر، إلى أن امتدت إلى معظم سنين عمره ،ولكن هذا الامتداد كان سريع السرد معتصب الجوانب ،مكثفا إلى درجة أنك لا تلمح منه إلا النزر اليسير عن ذواتهم وشخصياتهم، وبقيت في غياهب الماضي الذي يطل علينا منه من خلال سيرهم هذه ، مما أضعفها وجعلها تقصر عن أن تكون سيراً أدبية كما هي السيرة في العصر الحديث .

وفي الختام، وبعد هذا التقييم السريع، نرى أن هذه السير الأربع التي كانت قيد الدراسة ؛ قد تمثلت معظم الظروف التي وضعت من قبل المنظرين للسيرة الذاتية، إلا أن النقص في بعض الجوانب الفنية كالبناء المرسوم الواضح، أو وضع بعض المؤثرات كالتشويق عن طريق وضع بعض الأحداث، التي يكون لها وقع عند المتلقي أو تخييب آماله ،وتصوير الصراع بين الذات والآخرين، أو بين الذات والذات الباطنة ،أو وضع بعض التخيلات أو التفسيرات لبعض الأحداث هي التي كانت وراء عدم حمل السيرة الأندلسية سيراً ذاتية تصل إلى مستوى السيّر في العصر الحديث، ولكن ومع هذا كله، وبما أن هذه النصوص الأندلسية قد توافرت فيها أهم الاشتراطات، ونظراً لخصوصيتها فإني أقول : إنها سيرة ذاتية بحق عكست روح عصرها وتقاليده الكتابية، عرفها الأدب الأندلسي خاصة والعربي عامة " قبل أن يتبلور متصورها الذهني بما يتيح لها الانفراد بمصطلح نقدي مخصوص، ومع ذلك فإنها قد صممت

على نماذج تصل بها إلى منزلة الاكتمال في العرض والمضمون والأسلوب، وخير مثال على ذلك كتاب التبيان للأمير عبد الله [١] .

وقبل أن أختم هذا الحديث أود أن التأكيد على ما قلته في التمهيد وهو أن العرب عرفوا السيرة أنها موجودة في الأدب العربي القديم وأنها كانت الخطوات الأولى المؤسسة للسيرة الحديثة وهذا يبقي مقولتي المنظرين القريبين والذين يزعمان أن السيرة الذاتية حديثة النشأة وأنها سليلة الثقافة الغربية دون سواه من الثقافات[٢] .

(1) بتصرف، قال هذا الكلام المسدي ، وأنا استعنت به هنا .
(2) لقد استوحيت عنوان الخاتمة من خاتمة الباحثة جليلة الطريطر في كتابها ، مقومات السير الذاتية في العصر الحديث. وإما طريقة العرض فقد استلمتها من الباحث أحمد بن علي آل مريع في كتابه ، السيرة الذاتية مقارنة الحد والمفهوم . ط٢٠٠٨/٢م ص٨٥-١٠٢ ..

# المصادر والمراجع


إبراهيم, عبد الله: (٢٠٠٠). **السردية العربية بحث في البنية السردية في الموروث الحكائي العربي**, ط ٢, بيروت, المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

------------ **السيرة الروائية**: إشكالية النوع والتهجين السردي, (١٩٩٨). مجلة نزوى,مؤسسة عمان للصحافة والنشر, العدد ١٤.

أديل,ليون: ( ١٩٧٣). **فن السيرة الأدبية**, ط ١, ( ترجمة صدقي خطاب ). مؤسسة الحلبي, مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر, القاهرة, نيويورك.

أشهبون, عبد المالك: ( ٢٠٠٤ ). **خطاب المقدمات في الرواية العربية**: التنوع والشكل والوظائف الفنية, مجلة عالم الفكر, الكويت, مجلد ٣٣, العدد ٢, ص ٨٧ – ١١٥.

البقاعي، محمد خير: (١٩٩٨) **آفاق التناصية المفهوم والمنظور**, الهيئة المصرية العمة للكتاب, القاهرة.

البارودي,محمد: (١٩٩٧). **السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث**: حدود الجنس وإشكالاته, مجلة فصول,القاهرة, المجلد ١٦, العدد ٣, ص ٦٨- ٨٦.

بارت, رولان: (٢٠٠٢). **من البنيوية إلى الشعرية**، ط ١, (ترجمة غسان السيد ). نينوى للدراسات والنشر والتوزيع وزارة الأعلام, دمشق.

بحراوي, حسن: ( ١٩٩٣ ). **بنية الشكل الروائي** ( الفضاء, الزمن, الشخصية).بيروت, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء.

---------- (١٩٨٤ ). **أنساق الميثاق الأوطوبيوغرافي** السيرة الذاتية بالمغرب نموذجا, مجلة آفاق المغرب, العدد ٣- ٤ ص ٣٩-٤٧.

بدوي, عبد الرحمن: (١٩٤٥).**الموت والعبقرية**, ط١,الكويت,وكالة المطبوعات, بيروت,دار القلم.

---------- ( ١٩٨٤) **موسوعة الفلسفة**, المؤسسة العربية للدراسات والنشر,بيروت,

ابن بشكوال, أبو القاسم خلف بن عبد الملك: (ت ٥٧٨ ه). (١٩٦٦ ). **الصلة**,٣ ج, القاهرة الدار المصرية للتاليف والترجمة.

بلال, عبد الرزاق: (٢٠٠٠).**مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم**، دار أفريقيا الشرق ـــ المغرب.

بلعابد, عبد الحق, (٢٠٠٨). **عتبات**: ( ج جنيت من النص إلى المناص ), ط ١, الدار العربية للعلوم ناشرون, لبنان بيروت,منشورات الاختلاف الجزائر.

بن ياسر,عبد الواحد, ( ٢٠٠٣ ).**الخطاب المقدماتي**, مجلة علامات النادي الأدبي بجدة,مجلد ١٢, جزء ٤٧, ص ٦٢٦ – ٦٤٠.

التهانوي, محمد علي, **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**, سلسلة موسوعات المصطلحات العربية والإسلامية, تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم وآخرون,مكتبة لبنان ناشرون.

تودوروف, تزفيتان( ١٩٨٧ ). **الشعرية**,( ترجمة شكري المبخوت – ورجاء بن سلامة ). سلسلة المعرفة الأدبية, دار توبقال للنشر,الدار البيضاء.

الثعالبي, أبو منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل النيسابوري, (ت ٤٢٦ ه ). **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**, ( تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ). مصر دار المعارف.

الجزار,محمد فكري, (١٩٩٨). **العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي**, ط ١, سلسلة دراسات أدبية الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة.

جنيت,جيرار, ( ١٩٩٧ ). **خطاب الحكاية بحث في المنهج**, ط ٢, (ترجمة مجموعة من النقاد,المشروع القومي للترجمة,

حاجي خليفة,مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنيفي, (ت١٠٦٧ ). **كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون**(١٩٨٢).بيروت لبنان, دار الفكر.

ابن حزم, أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد, ( ت ٤٥٦ ه).( ١٩٧٧ ).**طوق الحمامة في الألفة والألاف**, ( تحقيق الطاهر احمد مكي ). مصر, دار المعارف.

---------- (١٩٨٠). **رسائل ابن حزم الأندلسي**, ط ١, ( تحقيق إحسان عباس ). المؤسسة العربية للدراسات والنشر,بيروت.

حمداوي, جميل, ( ١٩٩٧ ). **السيميوطيقا والعنونة**، مجلة عالم الفكر, الكويت, مجلد ٢٥, العدد ٣, ص ٧٩ – ١١٢.

الخبو, محمد, (١٩٩٨). **بعض ملامح الأنا الراوية والمروية في الخطاب الروائي المعاصر**: ادوارد الخراط نموذجا, مجلة فصول,القاهرة,المجلد ١٦,العدد ٤, ص ١١٢-٢٢٦.

ابن الخطيب, لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد, ( ت ٧٧٦ ه ). (١٩٧٤). **الإحاطة في أخبار غرناطة**, ٤ ج, ( تحقيق محمد عبد الله عنان ). مصر دار المعارف. ١٩٥٥, مكتبة الخانجي القاهرة.

________(١٩٥٦ ).**تاريخ إسبانيا الإسلامية أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**, ط ٢, ( تحقيق ليفي بروفنسال ), بيروت, دار المكشوف,

ابن خلدون, عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي, ( ت ٨٠٨ ه ), (١٩٩٩ ). **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**, ط ١, جديدة منقحة, ٧ ج,تعليق تركي فرحان المصطفى, بيروت لبنان, دار إحياء التراث العربي.

---------- (١٩٥١). **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**, ( طبعة اجنة التاليف والترجمة والنشر.

أبو زهرة,محمد, ( ١٩٥٤).**ابن حزم حياته وعصره – آراؤة وفكره**, ط ١,مطبعة مخيمر, مصر.

سالم , عبد الجليل,**العقل والنقل عند ابن رشد**,www.hekma.org

ابن سعيد, المغربي, أبو الحسن علي بن موسى, ( ت ٦٨٥ ه )( ١٩٥٣ – ١٩٥٥ ). **المُغرب في حُلى المِغرب**, القسم الخاص بالأندلس, ط ٣, ٢ ج, ( تحقيق شوقي ضيف ), مصر القاهرة دار المعارف.

الصكر, حاتم.( ١٩٩٤ ), **كتابة الذات دراسات في وقائعية الشعر**, عمان, دار الشروق.

----------- ( ١٩٩٩ ). **مرايا نرسيس**: الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة, ط ١, االمؤسسة الجامعية للداات والنشر والتوزيع برت.

صولح.خليل, ( ١٩٩٨). **أدب السيرة الذاتية المسكوت عنه عربيا سيرة ذاتية بصيغة ضمير الغائب**, مجلة الرافد, دائرة الثقافة والإعلام,الشارقة,العدد ٢٠, ص ١٠٩ – ١١٢.

الصنهاجي, عبد الله بن بُلقين بن باديس, ( ٤٨٣ ه ). (١٩٥٥ ). **مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة**, ( تحقيق ونشر ليفي بروفنسال,القاهرة, دار المعارف,

ضيف,شوقي: (١٩٨٧). **الترجمة الشخصية**, ط ٤, القاهرة, دار المعارف.

الطريطر, جليلة: (٢٠٠٤). مقومات **السيرة الذاتية في الأ دب العربي الحديث بحث في المرجعيات**, دون طبعة, مركز النشر الجامعي.,

عباس, إحسان.( ١٩٦٨ ). **رحلة أبي بكر بن العربي كما صورها قانون التأويل.مجلة الأبحاث**, **الجامعة الأمريكية**, بيروت,السنة ٢١,العدد ( ١ – ٤ ): ص ٥٩ – ٩٥ .

----------- ( ١٩٨٨ ) **فن السيرة**, ط ٥, عمان, دار الشروق.

عبد الواحد, مصطفى, **دراسة الحب في الأدب العربي**,دار المعارف بمصر.

عبد الدايم, بحيى إبراهيم: (١٩٧٥) **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث**, ط١, القاهرة, مكتبة النهضة المصرية.

ابن العربي, ابو بكر محمد بن عبد الله المعافيري, ( ت ٥٤٣ ه ). ( ١٩٩٠ )، **قانون التأويل**, ط ٢, ( تحقيق محمد السليماني ), دار الغرب الأسلامي,بيروت.

ابن عماد الحنبلي, شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد, ( ت ١٠٨٩ ه ) (١٩٩٨) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**, ( تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ). ط ١, دار الكتب العلمية, بيروت لبنان.

عمد, هاني: (١٩٨١). **دراسات في كتب التراجم والسير**, ط ١, عمان.

فضل,صلاح, ( ١٩٩٦ ). **بلاغة الخطاب وعلم النص**,ط ١, الشركة المصرية العالمية للدراسات والنشر,دار نوبار للطباعة,القاهرة.

فهمي, ماهر حسن: (١٩٨٣).**السيرة تاريخ وفن**, ط ٢, الكويت , دار القلم.

قاسم, سيزا, ( ١٩٨٥ ). **بناء الرواية**, ط ١,بيروت, دار التنوير.

القاضي, محمد, ( ١٩٩١ ). **كتاب التّبيان لعبد الله بن بلقين**: مذكرات ام سيرة ذاتية؟ ضمن: التراث الأندلسي في الثقافة العربية الإسلامية منشورات مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية, ص٣٥-٥٢.

كرستين, مونتاليني,( ١٠٠١ ).**جيرار جينيت نحو شعرية منفتحة**, ط ١, ( ترجمة غسان السيد – وائل بركات ).دار الرحاب, وزارة الإعلام,دمشق.

لحمداني,حميد, (١٩٩٣ ) **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**, ط ١, المركز الثقافي العربي,بيروت,الدار البيضاء.

لوجون, فليب: (١٩٩٤) **السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي**, ط ١, ترجمة وتقديم عمر حلي, بيروت, المركز الثقافي العربي.

________ **أدب السيرة الذاتية في فرنسا المفاهيم والتصورات** ( ترجمة ضحى شيحة ), مجلة الثقافة الأجنبية, بغداد, العدد ٤ لسنة ١٩٨٤ م.

ماي, جورج: (١٩٩٢). **السيرة الذاتية**, ط ١, تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة, تونس المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات.

المبخوت, شكالذاتية ري: (١٩٩٢). **سيرة الغائب سيرة الآتي السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين**,ط ١, تونس, دار الجنوب للنشر.

آل مريع, أحمد علي: ( ٢٠٠٨). **السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم**, ط ٢, الرياض, نادي أبها الادبي.

المسدي, عبد السلام: (١٩٨٣) **النقد والحداثة**, ط١,بيروت, دار الطليعة للطباعة والنشر.

ابن مظور,أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم, ( ت ٧١١ ه) **لسان العرب**, ١٥ ج, بيروت,دار صادر.

المقري, شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني, ( ت ١٠٤١ ه). ( ١٩٤٢). **ازهار الرياض في اخبار عياض**, طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر, ٥ ج, ( تحقيق مصطفى السقا – إبراهيم االسلابياري ). القاهرة.

________ ( ١٩٦٨ ). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**, ط ١, ٨ ج, ( تحقيق إحسان عباس ), دار صادر, بيروت.

موروا, اندريه, ( ١٩٧٨). **أوجه السيرة**,( ترجمة: ناجي الحديثي ). بغداد,دار الشؤون الثقافية العامة.

النباهي, أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي, **تاريخ قضاة الأندلس كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**, (١٩٤٨). ط ١, ( نشر ليفي بروفنسال ). القاهرة دار الكتاب المصري,

مؤلف من القرن الثامن الهجري. ( ١٩٧٩ ). **الحلل الموشية**, ( تحقيق سهيل زكار – وعبد القادر زمامة ), دار الرشاد الحديثة,الدار البيضاء,

المطري, محمد الهادي. (١٩٩٩). **شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق**, مجلة عالم الفكر, الكويت,المجلد ٢٨, العدد ١, ص ٤٥٥-٥٠٣.

مرتاض, عبد الملك, ( ١٩٩٨ ) **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**, ط ١, سلسلة عالم المعرفة,الكويت.

هياس, خليل شكري, **السيرة الذاتية العربية تاريخ وثقافة** ,السنة ٤٣ المعرفة ع ٤٨٩ حزيران (٢٠٠٤) ص ٦٦- ٩٢.

________ (٢٠٠١) **سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات**، ط ١, دمشق,اتحاد الكتاب العرب.

________ (٢٠١٠) **القصيدة السيرذاتية بنية النص وتشكيل الخطاب** , ط ١, الأردن,عالم الكتب الحديث.

ياقوت الحموي,شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله, ( ت ٦٢٦ ه ) **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**, ج, (تحقيق عمر فاروق الطباع ). مؤسسة المعارف للطباعة والنشر, بيروت لبنان.

ياكبسون, رومان, (١٩٨٨). **قضايا الشعرية**. ط ١, ( ترجمة محمد الولي ومبارك حنون ). دار توبقال للنشر الدار البيضاء.

يقطين, سعيد, (١٩٨٩). **انفتاح النص الروائي**: ( النص – السياق ). ط ١, منشورات المركز الثقافي العربي,بيروت,الدار البيضاء.

# AUTO BIOGRAPHIES IN AL-ANDALUS :A STUDY IN VISION AND STRUCTURE.

**BY**

**FATIMA ABD EL-SLAM AL-RWASHDA**

**SUPERVISOR**

**.DR. SALAH MOHAMMAD JARRAR , Prof.**

## Abstarct

This study discussed the art of auto biography in al-andalus according to quotes and approaches of science of the new narrative auto biography , so the topic of the search that we chose is :

“Auto biography in al-andalus”.

It demanded us in the first phase to understand the most important new auto biography theory ,and keeping with different applied studies which resulted in these theories , and expressed its orientations , and they are such studies that explain the kind of approaches which were printed on the auto biography articles , and contributed in determining the kind of cases that those articles Discussing.

And for studying the articles of Andalusia auto biography we went to :

First :

Following the monetary development of the new auto biography approaches and made it our logic in this study.

Second:

Working on benefitting from it on both theoretical and applied levels.

And this benefiting suits the articles of Andalusia study and build with it a powerful discussion that shows its substantive properties.

This study includes an introduction and three chapters :

The introduction included two questions:

1. When did auto biography arose?
2. Where did auto biography arose?

And included also ,the opinions and cases that resulted from those two questions .

The first chapter presented the features of Andalusia auto biography article, the matching between “author , narrator , central personallity” and the auto biography charter .

The second chapter discussed the article escorts and thresholds indication and we choose from them what suits the Andalusia auto biography articles”

Title , author name , introduction , the motivation behind writing the auto biography .

The third chapter is concerned with the building and the identity of Andalusia auto biography .

Finally , we confirmed on that the search that we did , is just a basic introduction to research in Andalusia auto biography privacy which subjected to the most important requirements that qualify them to be under the cover of auto biography with keeping on its privacy which prevents some of its articles to upgrade to the stage of auto biography in the new age. And even that , this privacy which comes from the soul of its ages which codified inside it , the criticism of the Arabic auto biography writers in this new age . and it itself which forms the components of auto biography speech also.